

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

الاسلام بين اقصيه وعنده

تأليف

دكتور محمود قاسم

دكتوراه الدولة في الفلسفة من السربون
برتبة الشرف الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منطبعة احمد علي مخيمر ٤٧١٩٣

مقدمة

قد نحسن الظن لو قلنا إن شباب المسلمين وشيوخهم ، قد انقطعوا ، منذ جيل أو جيلين ، عن الفخر بماض لم يصنعوه ؛ وعن الأسى والحسرة لحاضر يزعمون عجزهم عن إصلاحه ؛ وعن الأمل العريض في مستقبل يلقون عبء تحقيقه على الأجيال بعدهم . ذلك أنهم كانوا ينتظرون إحدى المعجزات لكي تقودهم إلى الحرية عفا ، وإلى المجد دون أن يبذلوا من ذات أنفسهم شيئاً .

واليوم يوشك القوم أن يعترفوا أن النهضة لا تأتي دون جهد ، وإنما تنبعث من أعماق الأمة ، وتصنع بأيدي أبنائها وعلى عيونهم ، فإن البكاء لا يجي البيت ، والأنين لا يرد المجد الضائع . ولهم بعد ذلك أن يدركوا أن تدهورهم أبعد عهداً عما يظنون . إنهم يرجعونه عادة إلى زمن الحروب الصليبية أو هيجوم التتار على بغداد ، مع أنه بدأ في الحقيقة مع ظهور النظام الملكي الاستبدادي ، وما صحبه من انقسام المسلمين إلى فرق ومذاهب دينية متناحرة ، تزعم كل فرقة منها أنها على الحق وحدها . ولهم أن يدركوا — لو شاءوا — أن مما عجل بركودهم أنهم أفسحوا صدورهم لنوع غريب من التصوف جاءتهم عناصره من الغرب والشرق على حد سواء ، فحجب عنهم عقيدة التوحيد ، واتجه بهم قدماً نحو لون من الشرك الخفي أو الصريح . ثم زاد بهم البلاء حدة والتدهور عنفاً ، رغم تلك اليقظات العابرة التي كانت توحى إليهم أنهم ما زالوا بخير .

إن تفهم المسلمين ، الذي بدأ منذ عصور متطاولة ، قد أدرك غايته في القرن الثامن عشر الميلادي . وعندئذ أحس هؤلاء أنهم قد تدهوروا حقيقة . وما كانوا يستطيعون ألا يشعروا بهذا التدهور ؛ فإن جيوش الغرب عادت مرة أخرى توقظهم من أحلامهم وغرورهم ، وتنبيههم أنهم لم يعودوا ممثلي الحضارة الإنسانية التي ألقت إليهم مقاليدها طيلة أربعة أو خمسة قرون . وهكذا كانت الكوارث الكبرى ، التي نزلت بمختلف الأقطار الإسلامية في العصر الحديث ، هي التي كشفت لأهلها عن مقدار ما انحدروا إليه ، فحاول هؤلاء الوقوف أمام موجة الزحف الأوروبي ،

وقام مصلحوهم ينهبونهم إلى الخطر الجلل الذي يوشك أن يطمس حضارتهم وينتزع من أيديهم ما بقي فيها .

لكن تلك الموجة كانت أقوى من أن تقف أمامها أمم منحلة متخاذلة لا تربطها رابطة قوية من الأخوة أو التعاون ؛ فسقط كثير منها في حوزة الغرب ، واستمر الزحف الأوروبي في عنفوانه إلى عهد قريب . ولم يبطئ من سيره لكي يقف ثم ينحسر إلا بعد أن ظهرت ثمرة الجهود التي بذلها كبار المصلحين من أمثال صاحب الحركة الوهابية ، وجمال الدين الأفغاني ، وأحمد خان ، ومحمد عبده ، وآخرون كثيرون . فدبت روح المقاومة في تلك الشعوب الحامدة ، وقامت الثورات متتابعة على حكم الغرب ، وعلى الحوة من أبناء الدول الإسلامية أو أمرائها .

وقد أكدت هذه الثورات المتلاحمة أن يقظة المسلمين شاملة ، وأنها تسير في الاتجاه الصحيح ؛ لأنها ليست قاصرة على الإصلاح الديني وحده ، ولا على الإصلاح السياسي وحده ، ولا على النهضة الاقتصادية وحدها ، ولا على النهضة العلمية وحدها ؛ وإنما تبسط ظلمها على مختلف هذه النواحي الاجتماعية الرئيسية في كل دولة جديدة بالحياة . ولا ريب في أن تعدد نواحي الإصلاح كفيل بتحقيق الأمل في المستقبل الذي تبنيه الأجيال الحاضرة في مختلف الأقطار الإسلامية . وما يؤذن بأن هذا الأمل ليس حلماً يستحيل تحقيقه هو ما نراه من التجاوب العميق اليوم بين المسلمين إن في المشرق ، وإن في المغرب .

وهذا التجاوب هو مظهر الرابطة الإسلامية التي بدأت تتأكد من جديد بين المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، بعد أن كادت تنفصم عروتها بسبب ضروب الاستبداد السياسي والروحي التي استسلم لها المسلمون ، أو اضطروا إلى الاستسلام لها ، منذ أن غابت عن قلوبهم الأصول الدينية الأولى التي حجبتها جدل الفقهاء في العقائد وتمنتهم وتشددهم وغلوهم في التفريع والتشريع ، والتي صمت آذانهم عن سماع ندائها بسبب صخب الدفوف والمزامير في حلقات أهل التصوف .

ولا أدل على نهضة الأمة الإسلامية من أنها أخذت تفسح صدرها لكل رأي حر وجملة تؤمن أن العلم ليس عدواً للدين ؛ بل هو حليفه وناصره .

الفصل الأول

تدهور المسلمين

١ — حالة المسلمين في العصر الأخير

١ — الاستعمار والمسلمون :

لقد أخذت بلاد المسلمين في الانحطاط منذ عهد ليس بالقريب ، وربما كان أشد البلاء الذي نزل بأهلها أنهم لم يفظنوا إلى تدهورهم ، ولم يتبينوا أنهم ابتعدوا عن نهج الحضارة الواضح ، فاتخذوا لأنفسهم طريقاً ينحدر بهم ، وهم يظنون ، لجهلهم وغبلةهم ، أنهم هم الصاعدون السابقون . وما جعل هذا الوهم يبدو حقيقة في أعينهم أنهم كانوا ينتفضون بين آونة وأخرى ، فتدب فيهم الحمية والنخوة ، وتسرى فيهم روح أسلافهم ، فيهزمون أهل الصليب الذين أغاروا على بعض بلادهم ؛ أو تجوس جنودهم خلال بلاد أوروبا عندما استطاع الأتراك أن يشيدوا أمبراطوريتهم الكبرى . لكن لم يكن هذا الملك العريض يعتمد على غير القوة والقهر ، ولذا كان يحمل جرثومة فئائه بين ثناياه . فلما آن لموجة القوة أن تنحسر أجمعت دول أوروبا أمرها على تمزيق أوصال الخلافة العثمانية ، وتوزيع حطامها ؛ فسقطت الجزائر في يد فرنسا ، ثم هوت مصر في قبضة إنجلترا ، وتهاوت الممالك الإسلامية ، واحدة بعد أخرى ؛ في حوزة الأعداء على النحو الذي ما زلنا نلس كثيراً من آثاره حتى يومنا هذا .

ولم يكن بد للمسلمين من أن يتركوا وهمهم وغرورهم بعد أن اشتد بهم

ضغظ البلاد الاستعمارية ، ولا سيما بعد أن تسكشفت لهم أهداف هذه الدول المسيحية بالاستيلاء على مصر ، وهى باب الحرمين . فعم الحزن واستيقظت الشعوب الغافلة الخاملة ، ونشط مفكروها ، وبدأوا يدرسون أدواء الشرق ، ويحاولون ، إن استطاعوا ، أن يدفعوا عن ديارهم شره الأجانب ، وأن يستعيدوا ما فقدوه . وأصبح الحديث عن ضعف المسلمين وسوء حالهم حديثاً لا تنفر منه النفوس ولا تضيق به أو تغضب له ؛ بل جعلت تقبل عليه وتطمئن لسماعه ، وربما وجدت فيه نوعاً من الرضا والمتعة ، كالمرضى الذى يحلو له أن يكشف عن علته عسى أن يجد سبيلاً إلى شفائها .

لقد صحا المسلمون من نومهم ، فوجدوا أنهم كثرة ، ولكنها كثرة لا تغنى عنهم شيئاً . فهم مستعبدون فى الأرض : تتحكم فى كل قطر من أقطارهم شزيمة قليلة من جند الأجانب وحكامهم وتجارهم ؛ تسومهم الخسف ، وتحتكر موارد الثروة عندهم ، وقد تنصب عليهم ولاية أو ملوكاً أشبه بالسعوب الدمى ، يحركونها كيفما شاءوا ، ويستخدمونها فى فرض سلطانهم على رعايا لا حول لها ولا قوة . وقد بلغ الذل بهذه الرعايا أن فريقاً منها رضى أن يكون من جند الفاتحين ، فأسلم قياده لهم ، وأصبح أداة عسف وقهر لبني جلدته وملته ، يساق إلى الموت سوقاً ، ويشترك فى حروب خارجية لا نفع له فيها ولا مجد ؛ لأنها تنتهى دائماً بخسرانه ، سواء أكان مع الغالب أم مع المغلوب .

كذلك فجأهم أنهم أبعد الناس عن الحضارة والتقدم ، وأدناهم مرتبة فى شؤون العمران ، وأقلهم خبرة بالسياسة وتدير المال واصطناع القوة . فإذا نحن قارنا منصفين بين إقليمين متجاورين أو ناحيتين فى إقليم أو قريتين أو بيتين فى قرية واحدة أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين إلا ونجد

المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم الحيوية الذاتية والعمومية ، كذلك نجدهم أقل إتقاناً من نظرائهم في كل فن وصناعة .^(١) ولو نحن قارنا مرة أخرى بين الدول الإسلامية والدول المسيحية في عصرنا الراهن لفزعنا لمقدار انحطاط وتأخر الدول الأولى في جميع مرافق الحياة : من تعليم وصناعة واقتصاد وعمران وقوة . ولا حاجة بنا إلى الاستطراد بذكر الأمثلة لتوضيح الفارق بيننا وبينهم في هذه الأمور وغيرها ؛ فإن هذا الفارق أظهر وأوضح من أن يشار إليه . وهو من الظهور والحدّة في الوضوح بحيث يوهّم من لا علم له بحقيقة الإسلام ، أو بمقدار انحراف أهله عنه ، أن هذا الدين كان سلباً في تدهور معتنقيه . وسنعود إلى هذه المسألة في موضعها .

لكن يكفي أن نقرر هنا أن الدول المستعمرة تحاول أن تدخل هذا الوهم في عقول رعاياها من المسلمين . ولا يجد دعاة الاستعمار حرجاً في أن يقرنوا بين الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر ، ما دام الهدف الذي يريدون تحقيقه ينحصر في تحطيم آخر رابطة توشك أن توجد بين الشعوب التي يستعمرونها ، ونعني بها الرابطة الإسلامية . وهم موقنون أنهم لو استطاعوا القضاء على هذه الرابطة لأمنوا على أنفسهم أن تهب تلك الشعوب من ركودها ، فتحطم قيودها ، وتسترد شيئاً من القوة ، فتفلت من قبضتهم ، وربما أصبحت خطراً عليهم . وليس لنا أن نتوقع من هؤلاء المستعمرين أن يسلكوا مسلكاً مخالفاً ، طالما بقي الشرق منبعاً ومورداً لرخائهم وقوتهم . وكيف لهم أن يحترموا قوماً من المبذرين السفهاء الذين لا يحجمون أو يترددون في بيع ديارهم وأملاكهم بثمن بخس لكل غاصب

(١) عبد الرحمن السكواكي : أم القرى ص ٢١ .

أو طامع؟ وكيف لا يلصقون بهم ما شاءوا من التهم، وهم يدعون في أثناء ذلك كله أنهم إنما جاءوا إلى ديارهم لأشياء سوى النهوض بهم وإطلاعهم على نتائج الحضارة الحقة، ويريدون بها حضارتهم؟ والحق أنهم لا يريدون بهم خيراً، أو يرغبون لهم صلاحاً؛ إذ ما النفع الذي يعود على الغرب من إصلاح حال المسلمين ومنعهم من السفه، فإن من أمانيه أن يتبادى الشرق في غيه وإسرافه، حتى يطول عهد السيطرة عليه؟

ولقد سبق أن قارن جمال الدين الأفغانى بين حال المسلمين وحال المسيحيين في أواخر القرن الماضى ليرى ما السبب فى ضعف الأولين وتقدم الآخرين، فرأى أن أهل المسيحية حولوها عن أصولها الأولى من الوجهة العملية، فبعد أن كانت ديانتهم ديانة زهد وتنسك، وانصرفوا عن الدنيا، وندم وحسرة على الخطيئة الأولى التى أخرجت آدم من الجنة إذ بهم يسخرون الدين من أجل الدنيا، فيحسنون القيام بأمر دنياهم، ويفتتتون فيما تتطلبه هذه الحياة من أسباب الترف وألوان الهناء، وما تقتضيه من الغزو والفتح واحتكار أسواق التجارة. وهكذا اتجه المسيحيون الذين يؤمنون بدين يدعو إلى السلم اتجاهاً مادياً، وانكبوا على الدنيا ونعيمها، يفتحون الممالك بالسيف، ويخرجون على الناس باختراعات متتابعة مذهلة فى أدوات الحرب، ويعنون بإعداد الجيوش وتدريبها، حتى بلغوا فى الفن الحربى أقصى مراتبه. ومع ذلك فهم يقولون إن حضارتهم هذه هى الحضارة المسيحية الحقة التى يجب أن يتقبلها البشر فى كل صقع من أصقاع الأرض حتى يكونوا من الناجين.

ولم يكن الأفغانى بعيداً عن الحق فيما رأى. فلقد شهدنا فى الزمن القريب كيف استخدمت أوروبا فكرة الحضارة المسيحية والدفاع عن مثلها العليا

لكي تبعث أبناءها ، وغير أبنائها ، على قتال أعدائها وأعداء هذه الحضارة . أما المسلمون ، فبدلاً من أن يعملوا للدين والدنيا جنباً إلى جنب ، كما كانوا يفعلون في سابق عهدهم ، فإننا نجدهم يصبغون كل شيء بصبغة الدين ، حتى أنهم وجدوا لكل من الركود والجمود والانحطاط ما يبرره من الوجهة الدينية ، أى أنهم سخروا دنياهم لدينهم . غير أنهم سخروها لدينهم على النحو الذي يفهمونه^(١) . ومن ثم لم يكن عجباً أن خسروا دينهم ودنياهم معاً . ذلك أن دينهم يدعوهم إلى العزة والقوة والغلبة ، ويحثهم على رفض كل قانون يخالف الدين ، وينهاهم عن الاعتراف بولاية من لا يستحق الولاية على المسلمين ولكنهم ينفرون من المجد ، ويؤثرون الضعف ، ولا يفكرون في الدفاع عن أنفسهم ، فضلاً عن نشر سلطانهم ؛ وهم يتقبلون صاغرين كل قانون ولو كان مخالفاً لشريعتهم ، ويتسابقون للاعتراف بسلطان من ليس على دينهم . لقد كان ينبغي لهم ، حسب ما يأمرهم به دينهم ، أن يكونوا أقوى الأمم من الوجهة الحربية . لكن ليست تلك هي حالهم . وهم أعجز عن أن يلبوا دعوة الإسلام إياهم إلى المنعة والعزة . وهم لا يذكرون أنهم مطالبون بحماية ديارهم والدفاع عن إخوانهم في الدين على اختلاف أجناسهم ، وأنهم لو نكصوا عن أداء هذا الواجب لحق عليهم أن ييؤوا بالإثم . نقول إنهم لا يذكرون ذلك أو قليلاً منه ، ثم يظنون أنهم يضحون دنياهم من أجل آخرتهم ، ويخيل إليهم أنهم يتبعون أوامر دينهم ، وأن ما نزل بهم من السكوارث إنما هو من عنيت الدهر وعسفه . وفي أثناء ذلك نراهم « يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا

(١) قال أبو العلاء المعري : وكَم من فقيه خابط في ضلالة . . وحجته فيها الكتاب المنزل

لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات .» (١) فإذا عجزوا عن
مباراة الأمم الأخرى في هذه السبيل ، وكثيراً ما يعجزون ، بسطوا أيديهم
إلى أعدائهم يطلبون إليهم أن يمدوهم بأجهزة القتال وأدواته ، ثم عجبوا أن
يضمن عليهم هؤلاء الأعداء بالسلاح . وما كان لهم أن يعجبوا؛ إذ لو كانوا
مكانهم لفعلوا مثلهم .

ب — المسلمون بين عهدين :

وليس أدل على أن المسلمين خسروا دينهم ودنياهم ، على حد تعبير
جمال الدين ، مما نراه من تضاد بين صفاتهم وصفات أسلافهم « فنحن لا نحفظ
عهداً ، ولا نفي وعداً ، وهكذا مضأؤهم في العمل وتسويقنا ، إنجازهم
وتطويلنا ، صبرهم وجزعنا ، شجاعتهم وإقدامهم جبننا وإحجامنا ، عزة
نفوسهم وإباؤهم ذلتنا واستكانتنا ، وإلى ما هنالك من المحزنات . » وهل هناك
من يدعى أننا صادقون في العمل والقول صدق الأوروبيين فيهما ؟ وهل هناك
من يزعم أننا نهرع دائماً إلى نصره الحق وإزهاق الباطل ، أو أننا نعمل
لدنيانا كما يأمرنا ديننا أن نعمل لها ؟ ثم هل هناك من يأتي ، في آخر الأمر ،
ليقول إن ما حلّ بالمسلمين إنما هو قضاء الله وقدره ، وإنه لا قبل لهم بدفع
ما هم فيه من ضرر ، وإن عليهم أن يخلدوا إلى ما هم فيه من ذل وضعف حتى
يقضى الله أمراً كان مفعولاً ؟ ما نظن ذلك . فقد مضى ، أو كاد يمضي العهد ،
الذي كان يحجب فيه نفر من رجال الدين للمسلمين أن يرضوا بما هم فيه من
هوان وضعة باسم الدين نفسه ، أو باسم الإيمان بالقضاء والقدر .

إن ما نزل بالمسلمين فيما مضى يرجع في الأغلب إلى تشويه إحدى العقائد الإسلامية ، ونعني بها عقيدة القضاء والقدر . ذلك أنهم انصرفوا عن الوجه الصحيح لفهمها ، فكان هذا الانصراف سبباً في فساد الأخلاق ، وقبح الأعمال . وما يؤسف له أنه ما برحت هناك جماعة من السذج تحيل كل شيء على القضاء والقدر ، إما لعجزهم ، وإما لرغبتهم عن العمل ، وإما جهلاً بحقائق الأشياء . وقد اتخذ الأوروبيون من مسلك هؤلاء السذج ذريعة للطعن في المسلمين ودينهم ، فقالوا إن المسلمين لم يصلوا إلى ما هم فيه من فقر وتدهور وانحطاط وتخلف عن جميع الأمم الأخرى إلا لإيمانهم بالقضاء والقدر . فإن هذا الإيمان كان سبباً في كثرة النفاق والرياء والحقد والتباغض والكذب وتفرق الكلمة ، والانصراف عن البحث في علل الأشياء ومقدماتها . لذلك ليس بعجيب أن أصبح المسلمون من الغفلة إلى حد أنهم لا يفرقون بين ما يضرهم أو ينفعهم . وهذا هو السبب في توالدهم وقعودهم عن طلب الخير لأنفسهم وفي قناعتهم بحياة لا تسمو كثيراً عن حياة العجاوات : فهم يأكلون ويشربون وينامون على أسوأ ما يأكل المرء أو يشرب أو ينام . ولا يخطر لهم ببال أن يجدوا في العمل وأن ينافسوا غيرهم فيه . ومع هذا فإنهم مغاوير أبطال إذا كان الأمر بصدد إلحاق الضرر بعضهم ببعض . فبقدر عجزهم عن النهوض بأنفسهم ونفورهم من التضحية من أجل الآخرين تراهم يجعلون بأنفسهم فيما بينهم ؛ فلا رفيق ولا هوادة في الخصومة والرغبة في الأخذ بالثأر ، بحق أو بغير حق ؛ بينما تجددهم يتطامنون للأجانب الذين يمدون سلطانهم على أوطانهم ، وينالون من أرزاقهم ماشاءوا ، ويسخرونهم كما يسخر العبيد . وأدهى من ذلك أنهم قد يرون ذلك عدلاً وخيراً ، أو قضاء وقدرًا .

فهم جماعة رضوا به لأنفسهم الذل ، ووطنوا النفس على قبول الضيم :
يقنعون بالقليل الذى يلقى به إليهم . أماملوكمهم وأغنياؤهم وذوو الأمر منهم
فلا يعنون إلا بأنفسهم ، ويحسبون أن القضاء والقدر قد كتب لهم أن ينعموا
بلهوهم وتلبسته رغباتهم وشهواتهم . وهم قد لا يحمدون الله إلا لأنه لم يجعلهم
من فئة الفقراء الجائعين . فإذا بقى لأمر أو ملك منهم ، بعد اللهو واللعب
واغتصاب حقوق رعاياه ، فسحة من الوقت سخرها للنزاع مع أمير يشاكله
فى أمره وخلقه . وكثيراً ما يعجز المتنازعان عن أن ينال كل من صاحبه ،
فلا يجد أحدهما حرجاً فى أن يستظهر الأجنبى على خصمه يرجو لديه
عوناً . فلا يجد الدخيل أمامه قوة تردعه ، فينال من الخصمين ما أراد ،
دون أن يكون فى حاجة إلى استخدام عدد ولا عدة . تلك هى حال أمراء
المسلمين فى عصر جمال الدين ، وما أشبه أن يصدق قوله على حالهم فى عصرنا .
فإنهم كما يقول جماعة من المترفين « شملهم أخوف وعظم الجبن والخور ، يفزعون
من الخمس ويألمون من اللبس ، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأهم
فى العزة والشوكة . » وقد تقطعت بينهم الروابط فلا نجدة ، ولا محاولة للاتحاد
للقوف جبهة واحدة ، وإنما هم أحزاب وشيع يظنون بأنفسهم القوة ، وهم
لا يعلمون أنهم الخاسرون جميعاً ، وأن عدوهم هو الذى يحركهم ، ويؤلف
بينهم متى يشاء ، ويفرق بينهم متى أراد .

وفى ما بين عصر جمال الدين وعصرنا ما برح كثير من المسلمين يغترون
بأنفسهم ، فيذكرون ماضيهم الذى لم يصنعوه بأيديهم ، لكي ينسوا حاضرهم
الذى يتبرأون منه ، ويتعللون بالقضاء والقدر الذى أراحهم فى زعمهم عن
مكان الصدارة ، والذى ربما أعادهم إليه عفواً ، أى دون جهد ينبغى لهم أن
يبدلوه . وقديماً ضاق الأفغانى بغرورهم ، فقال لمن يحدثه عن عبور العرب

للمحيط الأطلسي وكشفهم لأمريكا قبل الأوروبيين^(١) : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم أجابوه إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعفة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! لقد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذاكروا مفاخر آباءكم إلا أن تفعلوا فعلهم . . . إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هو شهواتهم . » ومع كل ما بذل الأفغان من عناء في إيقاظ المسلمين وتحريرهم من الغرور بأنفسهم والتشدد بماضيهم في غير ما يجدى فإنه كاد لا يفارق هذه الحياة إلا يائساً منهم . وهو يستصرخ أسلافهم الأجداد في قبورهم ، لكي ينظروا إلى ما فعله خلفهم ومن يدين بدينهم عند ما حادوا عن الطريق وضلوا السبيل ، وتفرقوا شيعا ، « حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب له القلوب أسفاً ، وتحترق الألباب حزناً ، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية . لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم . » وهم فيما بين ذلك لاهون يفخرون بما لم يفعلوا ، ويحيلون على الأجيال بعدهم أن تفعل ما يظنون أنهم يعجزون هم عن فعله .

ولقد كانت نفسه تدمى أن يرى كيف ينصرف كثير من الأوروبيين أو الأمريكيين عن الديانة المسيحية التي تعجز عقولهم عن فهمها ، وكيف يبدو لديهم استعداد لقبول دعوة الإسلام ، وبخاصة الأمريكيين منهم لعدم وجود أحقاد دنيئة بينهم وبين المسلمين . ومع ذلك فإن حال المسلمين ما كانت

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي . ص ٢٩٩ .

لتدفعهم إلى الإقبال على هذا الدين العقلي . ولذا نجده يقول « إذا نحن أردنا أن نحمل غيرنا على الدخول في ديننا وجب علينا ، قبل كل شيء ، أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال الإسلام . » فهل هناك بعد الوصول إلى هذا الحد ما يوجب علينا الاستطراد في بيان مقدار ما بلغت إليه حال المسلمين من سوء في ذلك العصر ؟

(ح) الفقر :

وحقيقة كيف تستقيم أمور كثير من الدول الإسلامية ، وقد عمها الفقر ، وشملها البؤس ، وغلب على أهلها ملوك مستبدون يتخذون أعوانهم وبطاناتهم إما من رجال أجانب أو من قوم زعموا أنهم قوامون على الناس في عقائدهم وخلجات نفوسهم ؟ فاجتمع الفقر مع الاستبداد وسطوة الكهنوت على قوم من البؤساء ، ففسدت عقولهم وشوهت أخلاقهم ، واندثر ما قد عسى أن يكون قد بقي في نفوسهم من أثر للعزة والنخوة . فانقاد هؤلاء إلا قليلا منهم انقياد الأعمى ، واستحبوا ذلهم على الكرامة ؛ بل ربما يبلغ من فساد طباعهم أنه لو نفرت منهم طائفة تؤمن بالله والوطن ، وأخذت ترشدتهم وتحررهم مما هو فيه هوان لظنوا بها السوء ، ولنسجروا حول أعمالها ستاراً من الأباطيل ، ولبرموا بها وحاولوا الوقوف أمامها إما حقداً وحسداً ، وإما لكي يعودوا القهقري إلى ما كانوا فيه من هوان . وقد تدفعهم سذاجة التفكير وسقم الرأي إلى الاتحاد مع أنصار القديم ، فيعضدونهم ويحاولون جاهلين مساعدة أعوان الاستبداد السياسي والاقتصادي الذين يغرون بهم بأسماء زائفة ، كالعدل والمساواة والحرية . كل ذلك لأن طول عصور الاستبداد التي خنعوا

لها أفسدت طباعهم ، وقضت أو كادت تقضى على معايير الحق والخير
في نفوسهم .

ولا يملك المرء إلا أن يعجب لتلك الأمم الإسلامية التي تتحدث عن
ماضيها ما وسعها الحديث ، وتتشبث بالأوهام والأحلام ، وتشكو حظها
العائر ، وتئن من الاستبداد ، وتبدي في الشكوى وتعيد . كل ذلك وهي
لا تفطن إلى أن ما هي فيه من ضنك يرجع إلى قعودها عن منافسة الأمم
الأخرى في استغلال ثرواتها الطبيعية . فهي بلاد غنية بأرضها فقيرة بأهلها
الذين لا يرون أن بناء الأمم لا يكون بالشكوى والنواح ، وإنما يكمل عن
طريق العمل الذي يخلق المال ، فيقضى على الجهل ويسمو بالخلق ، ويضع
حداً للشقاق والخلاف ، ثم يشعر الناس بكرامتهم ، وأنهم لم يخلقوا لكي
يقنعوا بالقليل الذي ربما هبط بهم عن مستوى البهيمة . وهم لا يستحون
أن يقال عنهم إن ما يقوم بأود بقرة أو حصان أكثر مما يكفي ليقنات به
فلاح مصرى أو عراقى أو سودانى . وليس أحب إلى قلوب المستبدين
من أن يكون رعاياهم فقراء جهلاء راضين بالقضاء والقدر . فإذا بدأت
الشعوب تعمل ، وتربأ بنفسها أن تكون هملاً ، غرر بها حكامها فأدخلوا
نظاماً نيبائياً ليس بينه من شبه وبين مثيله في البلاد الأوروبية سوى الاسم ؛
إذ أن القوانين تطبق بحيث تجمع الأموال من الفقراء ، لكي ينعم بها الأغنياء
والمسرفون السفهاء .

هذا إلى أن يقظة الشعوب الإسلامية في مثل هذه الأحوال يمكن أن
توصف بأنها إحدى المعجزات . فقد تشابكت الأسباب على قتل كل استعداد
لدى الأفراد الممتازين الذين يرجى منهم الخير ؛ إذ كيف يوجد أمير عادل

أو زعيم مصلح في أمم تحالف عليها الاستبداد والفقر . وقد صور لنا عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد كيف ينشأ الفقير في دولة الظلم ، فقال : « إذا افترسنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير ، وكيف يتربى نجد أنه يلقح به ، وفي الغالب أبواه متناكدان متشاكسان ، ثم إذا تحرك جنيناً حرك شراسة أمه فشتيمته .. فإذا نما ضيق عليه مقره لآلفتها الانحاء خمولا .. أو التقلص لضيق الفراش . ومتى ولدته ضغطت عليه بالقطاقتصادا أوجها . فإذا بكى سدت فمه بشديها . . . أو سقته مخدراً عجراً عن نفقة الطبيب . فإذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه . فإن كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت . فإن سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويحكم لضيق خلق أبويه . فإذا قويت رجلاه يدفع به إلى خارج الباب إلى مدرسة الألفة على القذارة ، وتعلم صيغ الشتائم والسباب . فإن عاش وضع في مكتب أو عند ذى صنعة . ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح . فإذا بلغ الشاب ربطه أو لياؤه على وتد الزواج ، كيلا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة ويجنى على غيره كما جنى عليه أبواه . ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله . وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط ، ويهرول ، ما بين وداع سقم واستقبال سقم ، إلى أن يستقبله الموت ، مضيقاً دنياه مع آخرته ، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه . »

حقاً قد تكون هذه اللوحة التي رسمها الكواكبي قائمة تبعث اليأس ، لكنها كانت صادقة في عصره ؛ بل قبله بعدة قرون ، وما زالت تنطبق للأسف على ملايين من المسلمين في الوقت الحاضر .

(٥) الجهل :

وللفقر في البلاد الإسلامية حليف ليس أقل منه خطراً وقهراً ، وهو الجهل . فالعلوم الحديثة لم تطرق دور الدراسة إلا بعد جهد وصراع طويلين ، وإلا بعد مقاومة رجال الدين الذين يحرسون عادة على إبقاء القديم على قدمه ، إما خوفاً على نفوذهم أن ينحسر عن أفئدة العامة ، وإما طمعاً في التقرب إلى الحكام المستبدين الذين يحسبون أن سلطانهم لا يستقر ولا يزدهر إلا بفضل الجهالة الشاملة . وإذا تطرقت هذه العلوم إلى عقول طبقة من الشعب ، غير مشوهة أو محرفة ، فإنها لا تغني عنهم إلا القليل ؛ فإن هناك نوعاً من الجهل العاقي الذي صنعه السابقون فأحكموا صنعه ، على غير ما جرت به عادتهم في فنونهم الأخرى ، ونعني به جهل النساء . وكفى بهذا الجهل سبباً في إفساد كل شيء ، وفي خيبة الرجاء في الأجيال القادمة . فلقد ظن المسلمون في عصور تدهورهم أن الحجاب معناه حرمان نصف المجتمع ، أو أكثر من نصفه ، من حقوقه الاجتماعية والروحية والعقلية . واعتقدوا أن صلاح حالهم إنما يكون بأن تعامل المرأة معاملة الرقيق ، وأن يُضيق عليها الخناق حتى يؤمن شرها وكيدها . فتولد الأناث فلا ترى الحياة إلا طفلة حتى إذا كادت تدرك حبسها أهلها في دارها . وإذا هي بلغت مبلغ النساء دفعت إلى رجل لا تعرف عن أمره شيئاً ليتخذها أداة للمتعة وانجاب البنين والبنات . ثم تودع الدينادون أن تعمل عملا سوى أن تنشئ جيلاً أكثر جهلاً منها . ويظن الرجال أن هذا السجن شريعة إلهية ، وأن جهل النساء ضمان لعفتهم ؛ في حين أن تعليمهن أدعى إلى فجورهن . وقد نسي هؤلاء أن النساء المسلمات في عصور القوة لم يكن سجينات دورهن ؛ بل كان منهن العالمات والشاعرات ،

وكن يساهمن في الحياة العامة أكبر مساهمة ؛ يحرضن على القتال ويفتتن أخواتهن في أمور دينهن .

وكأنما حسب أعداء المرأة أن العلم يقودها إلى الفجور ، مع أن العلم والجهل قد يكونان سواء في هذه الناحية . وإنما الذي يحفظ المرأة ويقبها السقوط هو أن يحسن أهلها تأديبها وتعليمها تعليماً دينياً وأخلاقياً . وماذا يجدى الجهل إذا ساء الخلق ؟ وماذا يضر العلم إذا أحسن التأديب ؟ إن الجاهلة لا تتردد في الزلل متى سنحت لها سائحة . وكثيراً ما تلقى من الصدف ما يكفي في سقوطها . وهل من سبيل إلى المقارنة بين امرأة متعلمة تعف لحسن تأديبها ، وامرأة جاهلة لا تعف إلا مقهورة مغلوبة على أمرها ؟ ومن قال إن تعليم المرأة دعوة إلى الفجور وخروج على التقاليد ؟ أليس من الممكن أن تقاسم المرأة الرجل حظه في المعرفة ، ثم تستقر في بيتها ترعاه وتخرج نشأاً صالحاً ؟ وهل يحسن لدى العقل أن نحجر عليها أن تعمل خارج دارها ، وأن تساهم في العمل الاجتماعي بقدر طاقتها إذا اضطرتها الحياة إلى العمل ، أو إذا أوجبت عليها حاجة المجتمع أن تعمل ؟ وهل الدين هو الذي يوجب على المرأة أن تكون جاهلة خاملة ؟ وأي نفع للمجتمع الإسلامي في أن تعامل المرأة معاملة الرقيق ؟ إن المرأة مساوية للرجل من جهة تركيبها العقلي . وإذا كان هناك تفاوت بينها وبينه فهو من جهة التربية التي تعد كل منهما للعمل الذي يتفق مع ميوله واستعداده . ورعاية البيت صناعة من الصناعات ؛ بل من أهمها ، إذ البيت مصنع تسوى فيه النفوس وتغرس فيه الأخلاق ، شرها وخيرها . لكن إذا فقدت المرأة من يعولها فلا عليها أن تسعى لعمل يناسبها ويكفيها مئونة الانحدار إلى الرذيلة ، أو أن تكون كسلاً على ذوى قرباها ممن يضيّقون بأنفسهم ، قبل أن يضيّقوا بها أيضاً . » وإذن فلا مانع من السفر إذا

لم يتخذ مطية للفجور ، كما كان يقول جمال الدين الأفغانى .

على أن جهل الرجل والمرأة كان منبعاً لكارثة اجتماعية كبرى ، وهى كثرة النسل . حقاً إن عامة الناس محرومون ، بسبب جهلهم وفقرهم ، من اللذات الحقيقية ، كالحياة الطيبة وتحصيل العلم ، والسعى وراء المجد ، والتضحية من أجل الوطن والإنسانية ، والرغبة فى الذكر الحسن وغير ذلك من اللذات الروحية التى تجعل للحياة معنى يسمو بها عن حياة البهيمة . ولما كان الجهلاء لا يعرفون عن هذه اللذات شيئاً فإنهم يسخرون من قائلها إذا حدثهم عنها ، ولا يرون أن هناك لذات أخرى سوى لذة البطن والفرج . فلذاتهم لا تعدو ملء بطونهم بما يتيسر لهم ، ثم إنجاب الأبناء الذين يزداد بؤسهم كلما درجوا فى الحياة . هذا إن لم يأت الموت يخترمهم فينقذهم من أن يهيجوا نهج آبائهم . وربما احتج بعضهم بالدين ، فقال إن تحديد النسل جريمة لا تغتفر . لكن الدين السامع لا يكف الناس ما لا يطيقون ، ولا يأخذهم بما لا قبل له به . وهذا هو ما فهمه الإمام الغزالي الذى يذكر لنا فى كتاب « إحياء علوم الدين » أن للرجل أن يتجنب كثرة النسل عن طريق العزل إن خشى الفاقة ، وللمرأة أن تفعل مثله إن خشيت المرض ؛ بل إن خافت أن يذهب جمالها . وقد فطنت الأمم المتقدمة إلى خطورة إطلاق النسل دون ضابط فحدته ، ولم يمنعها ذلك من أن تحتفظ بقوتها وسطوتها . لكن لوقام رجل ينادى بذلك فى بلد إسلامى متأخر للقى من جهل العامة وحنق رجال الدين ما قد يسوء له أمره . هذا إن لم يتهم من هؤلاء وهؤلاء بالمروق أو الكفر .

وهكذا يعيش المرء فى دولة الجهل والاستبداد والفقر لا يعلم لنفسه غاية ، ولا يبذل جهداً لتبديل حاله بما هو خير منها . وربما ثارت نفسه ضد الاستبداد

والظلم . لكنه قلّما يفكر في الحرية الحقيقية أو العمل المثمر للنهوض بأمره ؛ إذ كل ما يصبو إليه هو أن يستبدل مستبداً بمستبد آخر علّيه يجد طعاماً جديداً للاستبداد . وهو يتوقع دائماً أن تأتي معجزة من الخارج لكي تنقذه مما هو فيه ، مع أن المعجزات في النظم السياسية والاجتماعية لا تأتي إلا من الداخل ، أى لا تنبعث إلا من أعماق الشعب نفسه . فإذا بقيت أمة جاهلة غافلة متخاذلة فليس لها أن تطلب المعجزات . وذلك أن الجهل والغفلة والتخاذل تدفع أى حكومة ، ولو كانت عادلة ، إلى الاستبداد . وإذا هي استبدت مرة واحدة لم تترك الاستبداد إلا مكرهة . لكن لن يقهرها الفقر والجهل والتخاذل .

٢ — ابتعادهم عن الدين

(١) الصراع السياسى والدينى :

لم يفته المسلمون إلى ما انتهوا إليه من الضعف والتدهور قضاء وقدرًا ؛ وإنما قادتهم إلى ذلك أسباب ومقدمات ، يميلون هم عادة إلى أن ينسبوها إلى غيرهم ، مع أنهم أحق بأن يعزوها لأنفسهم . فهم يقولون إن الأيام دول ، وإن المؤمن مصاب ، وإن الحياة الدنيا تحلو لغيرهم وفي عاقبتها الحسرة والندم ، ثم يخدعون النفس بالأمل فى انقشاع الغمة وزوال الكربة قضاء وقدرًا ، وينسبون سنة الله فى أنه لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والحق أنهم بدأوا من تلقاء أنفسهم يختلفون فيمن يتولى أمر المؤمنين ، وتخضبت أرضهم بالدماء ، وقتل من خلفائهم كثيرون ، ولم تسكن الفتن بمقتل هؤلاء . فقد تشتت شمل الأمة من ذلك الحين ، وكانت العصية الكريمة التى قضى عليها الإسلام تعود تطل برأسها كلما آنتت ضعفاً من

الولاية. فلما استقر الملك لبنى أمية استعادوا قوتهم واتسعت فتوحهم وامتدت حتى جنوب فرنسا. لكن عادت الفتن، فانتقل الملك لبنى العباس، فلم يستطيعوا إعادة وحدة المسلمين؛ إذ اشتد ساعد الدعاة لآل علي، وبقي جزء من المغرب في يد بنى أمية. ثم بدأت دولة الشرق في الانحلال لاستبداد خلفائها وجبروتهم. وزاد في انحلالها أن قويت شوكة الفرس الذين استظهر بهم العباسيون على العرب. وكان الاستبداد أظهر سمة في هذه الدولة الشرقية. والاستبداد كما نعلم، يمتد إلى الأمم، ويشوه الدين والخلق. ودولة الاستبداد دولة من الأرقاء يسوسهم فيهارقيق مثلهم؛ فإن الحاكم المستبد يدعو هلعاً وفزعاً أن يقبض سجيناً في قصره لينما يستعين على قهر رعيته من الأرقاء بالجنود الأجانب، الذين يفنيهم طبقة بعد أخرى خوفاً من أن يغلبوه على ملكه، حتى ينتهي الأمر بأن ينكسوه عن عرشه، أو يبقوه عليه بعد أن يقلبوا أظافره. حقاً استطاع هارون الرشيد أن يفتك بالبرامكة، لكنه لم يستطع القضاء على نفوذ الفرس الذي أخذ في الازدياد في عصر المأمون. ثم أراد خلفاء هذا الأخير أن يستبدلوا بالفرس غيرهم، فجاءوا بالأتراك. فكان ذلك نهاية ملكهم الحقيقي؛ إذ أصبح الخلفاء المستبدون لعبة في أيدي الخطايا، توليهم وتعزلهم دسائس القصر ورغبات أمراء الجيش.

ولم يكن بد من أن تنعكس صورة الصراع السياسي في عقائد المسلمين وآرائهم. وليس بعجيب أن تتفرق الأمة في عقيدتها منذ أواخر القرن الأول الهجري بظهور فرق الجبرية والقدرية والشيعة. ثم ازداد عدد هذه الفرق تبعاً لاختلاف النزعات السياسية والقومية. وأباح كل فرقة لنفسها أن تفسر القرآن على ما تهوى، وأن تضع من الأحاديث ما تشتهى. وتشئت

الفكر ، وأخذ أعداء الإسلام يكيدون له . ونشأت معركة الجدل في العقائد بين المفكرين المسلمين أنفسهم . واختلف هؤلاء ما شامت لهم ثقافتهم وعقولهم وأهواؤهم أن يختلفوا . وشغل القوم أنفسهم ومعاصريهم بمشا كل دينية مزعومة ما كان أغناهم عنها ، كالبحث في صفات الله وأفعاله وفي خلق القرآن والقضاء والقدر . واحتدت الخصومة فيما بينهم ، واضطهد كل فريق صاحبه ، أو سارع إلى تكفيره . لكن إذا نحن نظرنا اليوم إلى المشا كل الدينية التي فرقهم وجدنا أنها ترجع ، في الأغلب ، إلى سوء فهمهم للنصوص الدينية وإلى انحرافهم ، إن قليلاً أو كثيراً ، عن العقيدة الإسلامية الرئيسية التي تنص على تنزيه الله سبحانه تنزيهاً مطلقاً عن مشابهة المخلوقات ؛ إذ أن القرآن يذكرهم بأنه ليس كمثله شيء . (١)

ونجم عن هذا الصراع السياسي الديني أن تغير وجه الإسلام الحقيقي ، على قرب عهد الناس بالدعوة الإسلامية ، فالحقه التشويه والتحريف ، وانزلق أهله من حيث لا يشعرون إلى الشرك ، فعبدوا مع الله غيره ؛ بل كان الزيغ عن التوحيد أبعد عهداً من ذلك . فإن جماعة ممن تشيعوا لعلي بن أبي طالب زعموا أنه لم يقتل ، لأن روح الإله حلت فيه ، ثم انتقلت منه إلى أبنائه . ثم إن أهل أفريقيا الشمالية من البربر والعرب خلطوا توحيدهم بديانة بدائية شهدت الأهم القديمة كالصين وروما ، وما زالت تؤمن بها شعوب منحطة في جزر المحيط الهادي ، ونعني بها عبادة الموتى من الآباء والأجداد . غير أن هذه العبادة تطرقت إلى المسلمين في صورة تقديس الأولياء والتقرب

(١) لقد عرضنا هذا الرأي بشيء من التفصيل في مقدمتنا في نقد مدارس علم الكلام التي صدرنا بها كتاب مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد .

إليهم بالقرايين ، والالتجاء إليهم دون الله في رفع الضر ، لأنهم أقرب إليهم من الله فيما يزعمون ، أو لأنهم بمثابة وزراء يشفعون لهم عند صاحب الأمر كله ، مع أن الدين الإسلامى يقرر أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . ثم امتد التشويه والتحريف من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، حتى عم البلاد الإسلامية بفضل جماعة من العلماء المزيفين الأدعياء ، أو من محترفي نوع من التصوف لا تربطه بالإسلام صلة قريبة أو بعيدة .

ب — التفرقة بين العقيدة والعمل :

ولما فطن العامة إلى أن ذوى رأى فيهم من الفقهاء وأهل الجدل ليسوا على وفاق فيما يمس أمور العقيدة ، التى كانت لا تتطلب فى الحق لا جدلاً ولا خلافاً ، أدركوا أن الحق كله لا يمكن أن يكون فى جانب أى فرقة من هذه الفرق . فاختلط عليهم الأمر ، وضاقوا بتشدد الفقهاء وتغنثهم ، وتفريعات أهل الجدل وتفسيراتهم التى لا تنتهى . فظنوا أنه من الممكن أن يفصلوا ، غير آثمين ، بين العقيدة والعمل الدنيوى من بيع وتجارة وروابط اجتماعية . ولم يكن هذا الفصل فى صالح العقيدة ، ولا فى صالح العمل ؛ إذ انقلبت العبادات إلى صيغ وعبارات جامدة وحركات لا روح ولا خشوع فيها . وبطل تأثيرها فى أعمال الناس ، ولم تعد تردعهم عن الفحشاء والمنكر ، وذلك لفقد روح الإخلاص فيها ، ولما غلب على الناس من الكذب والخداع والنفاق فى أمور دنياهم . فانتقل هذا الرياء إلى العبادات نفسها . وذهب كل إمرئ يسعى إلى ما يظن أنه الخير لنفسه ،

ولو كان فيه ضرر لغيره . « لا يحن أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحداً في الآخر إلا ولاذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندفع عن حوزته . » وينكر الأفعانى على بنى ملته أنهم يفرقون بين العقيدة والعمل فيقول : « أيجسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى عنهم بما يظهر على الألسنة ، ولا يمس سواد القلب ؟ هل يرضى عنهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ » .

وبينما يئن المسلمون بما يصيبهم كان العدو يغير على بلادهم فيستولى عليها قطراً بعد آخر ، فلا يشير ذلك نخوة لدى هؤلاء الذين يشتدقون باسم الدين ، ولا تدفعهم حمية للدفاع عنه . وكلما مضى بهم العهد زادوا تفرقة بين دينهم وأعمالهم ، وظنوا أنه يكفيهم أن يتقربوا إلى الله بعبادات ، ثم هم في حل بعد ذلك من أن يسيئوا إلى الناس ، أو يقتربوا ما شاموا من الآثام ما دامت العبادة في ظنهم تمحو آثار أعمالهم . فهم يعبدون الله لا حباً فيه أو خشية منه ؛ وإنما لأنهم يحسبون أنهم يكفرون عن خطاياهم أو عما يأتون من شر . فكأن العبادة نوع من العوض أو هي تجارة وحيلة لم فما جاء القرن الثامن عشر الميلادى حتى كان العالم الإسلامى قد أشرف على الفناء ؛ إذ فسدت أخلاق أهله ، واستسلموا لشهواتهم وأهوائهم ، وزهق الحق وجاء الباطل ، واندثرت الفضيلة ، وعم الجهل ، وتحالف رجال الدين الأدعياء مع الحكام الطغاة ، وأخذوا يدعون الناس إلى طاعة أولى الأمر منهم ، ولو كانوا فساقاً أو من غير دينهم . وعلم المستعمرون خطر رجال الكهنوت في الأمم الجاهلة البدائية ، فقرر بهم إليهم . وأفسحوا لهم في مجالسهم بين حين وحين ، وأسرع

هؤلاء فألقوا بأنفسهم في رحابهم ، وربما آثروهم على الحاكم المسلم ، بعد أن رأوا أنه غدا لا يرتجى لديه خير أو نفع ؛ بل ربما هرع بعض هؤلاء إلى المستعمر يستنصرونه على إخوانهم الذين يطالبون بالحرية ، أو ينادون بعزل الولاة الخائنين . ولقد رأينا في أثناء الأزمة المراكشية الأخيرة أن بعض رجال الطرق الصوفية يقفون موقفاً صريحاً ضد رغبات الشعب المراكشي بأسره ، وينصرون أعداءه عليه .

وعلى كل فقد كان مسلك هؤلاء المزيفين من العلماء أشد وبالاً على العامة من جهلها ، فخارت النفوس ، وذهبت النخوة ، ودب التخاذل في القلوب ، فأهملت الزراعة والتجارة واستشرى التواكل ، وطفق القوم يخذعون أنفسهم عما هم فيه من ضيق بحياة أخرى هي خير من حياتهم الدنيا ؛ إذ ينعمون فيها . وانصرفوا عن المساجد والعمل إلى الطرق الصوفية التي سيطر على المنتسبين إليها نفر من الأدعياء الجهلاء ، والتي استغلها المستعمرون في جميع الاقطار الإسلامية لما رأوا أنها كفيلة بإبقاء الجاهلين على جهلهم ، والمتواكلين على تواكلهم .

وقد اضطرت عامة المسلمين إلى سلوك مسلك التصوف الكاذب فراراً من تشدد علماء الكلام والفقهاء الذين ذهبوا في تفريع المسائل وتقسيمها وفرض الفروض المستحيلة كل مذهب ، فتخيّلوا جميع الحالات الممكنة التي قد لا تتحقق بالفعل . ثم اختلفوا في حكم كل مسألة من هذه المسائل ، فتشعبت الحلول ، وتفرقت الآراء ، وأصبح الاهتمام إلى الحق فيها أمراً يكاد يشبه المستحيل ، حتى لدى المختصين في دراسة العقائد والفقه ، فما بالك بالعامة التي تنفر من البحث ، وتكره التعمق ، ولا تبحث إلا عن السهل

اليسير ؟ . وهل هناك ما هو أشد يسراً من مذهب يريحهم من عنيت الفقهاء ولججهم ، ويحبب إليهم التخلص من المشاكل التي لا يجدون لها حلاً ؛ بل يبيح لهم التحرر من التكاليف التي أصبحت ثقيلة مجعدة ، لاضطراب العقيدة التي توجبها عليهم .

لقد كان هذا المذهب السهل اليسير هو التصوف . وليته كان تصوفاً إسلامياً بالمعنى الذي كان يفهمه السلف من الزهد والتقشف ، والرغبة عن غرور الدنيا ، ولكن مع العمل المستمر لنشر الإسلام ، وكشف حجب الوثنية والشرك لدى الأمم الأخرى . لقد كان تصوفهم على العكس من ذلك تصوفاً دخليلاً على الإسلام ، ضم شتات آراء مسيحية وأخرى وثنية ترجع بعض أصولها إلى فلاسفة الإغريق كفيثاغورس وأفلاطون ، كما حوى آراء أفلاطون من أقطاب مدرسة الإسكندرية ، ومن أشهر القائلين بوحدة الوجود ، أى بأن كل ما فى هذا العالم إنما هو مظهر لوجود واحد ، وقد فسره بعض المتصوفة من المسلمين بأنه الله الذى يحل فيهم وفى كل كائن ، مع أن فكرة الحلول هى تلك التي حاربها الإسلام وجاء لهدمها .

(ب) تصوف المتأخرين :

لقد كان تصوف السلف وزهدهم فى الحياة مظهراً للتعبد والخشوع ، وحافزاً إلى العمل ؛ بينما أصبح التصوف لدى المتأخرين تظاهراً بالعبادة ، وذريعة للتخاذل والتغير بالعامية . فنشأ فى القرن الرابع الهجرى أو قبله بيسير جماعة من الأدعياء الذين أرادوا احتلال مكانة كبار الأئمة وأجلة العلماء ، فأخذوا يغربون فى الدين ، ويتظاهرون بالتقشف ، ولبسوا مسوح

التصوف أو الرهينة . ومن العادة ، كما يقول عبد الرحمن السكواكي ، « أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى الزينة واللباس . » فصار هؤلاء المدّعون للعلم والزهد يدسون على المسلمين بتأويل القرآن على نحو لا يحتمله النص الصريح . ثم نفقت سرق الدجل في القرن الخامس ، واشتد ساعد الآراء الإلحادية ، وجاهر بعض الدعاة بمذهب إباجي ، على نسق ما كان يدعو إليه الدهريون من الإغريق والفرس . وكان يرأسهم جماعة من الدهاة الذين علموا كيف تنحدر الأمة نحو الشرك بسبب جهلها وابتعادها عن المنابع الأولى لدينها . فنصب هؤلاء الدعاة أنفسهم أئمة في الدين ، وزعموا أنهم أخذوه عن أئمتهم المعصومين ، أو تركوا أتباعهم يزعمون أنهم أولياء الله ، وأقطاب الطريق . ثم توسعوا في تصوفهم هذا ، فرسموا الطقوس ، ووضعوا الأذكار ، وحددوا لها ترنحاتها ونغمات مزاميرها وطبوعها ، وألفوا التراتيل ، وصنفوا الكتب التي ملأوها بالأساطير والأباطيل : ينسبون فيها إلى أنفسهم أو إلى مشايخهم الذين أخذوا عنهم كرامات أو معجزات ، دونها معجزات المرسلين . ثم ستروا باطلهم بالغموض في العبارة ، واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادي سليم العقل عن فهمها ، وقالوا إنها أسرار لا يرقى إليها إلا الخاصة ، وإنه لا مدخل للعقل في إدراكها ؛ لأن العارف منهم متى وصل أدرك بذوقه ما لا يخطر بعقل بشر . وعند الوصول يستوى الجمع والإفراد ، والكثرة والوحدة ، أي أن للتصوف منطقاً دونه منطق العقل ، أو هو مضاده ، إن صح أن يسمى منطقاً . ثم قالوا إن من رام التعبير باللغة عما يشاهده أهل التصوف في شطحاتهم يشبه أن يكون كمن يروم ذوق الألوان . أما هؤلاء الذين يأبى

عليهم عقلمهم أن يرتضوا ما يقرره المتصوفون من أمور تخالف صريح الشرع فهم كالحفافيش التي لا ترى ضياء الشمس ؛ لأنها ألقت ظلمة الليل . وخلق بهم أن يعيشوا مع العقلاء أمثالهم من الذين أوتوا ظاهراً من الحياة الدنيا . أما أهل الذوق أو المعرفة الصوفية فهم المصطفون المجتوبون الذين تفيض عليهم أنوار من لدن عالم الغيب ، لا ينالها إلا كل ذى حظ صبور .

وقد فطن الخلفاء أول الأمر إلى خطر هؤلاء الغلاة من الأدعياء على الدين ، فقتلوهم . لكن ذلك لم يحل دون انتشار كتبهم وكثرة أتباعهم ممن يميلون ، في كل أمة ، إلى غرائب النوادر وعجيب الأساطير ، ومن يريدون أن يحيو في عالم كله معجزات مستمرة ؛ لأنهم لا يرتضون العقل حكماً في أمور دينهم ودنياهم ، أو لأنهم يعجزون عن استخدام عقولهم لتمييز الخبيث من الطيب . وأمثال هؤلاء كثيرون ، وهم في كل طبقة من طبقات الأمة . ولم يعجز المدلسون عن أن يشبعوا نزعتهم إلى الغريب والظريف ، فطفقوا يقتبسون لهم كثيراً من أساطير الإسرائيليين ونوادر المسيحيين وقصص قديسيهم وعجائبيهم . ثم قسموا أتباعهم ومريديهم إلى منازل أو طبقات ، ووضعوا لهم نظماً تشبه نظم الرهبانيات والأديرة ، ورسموا لهم طقوساً شتى ، وحددوا لهم مراسم الانتقال من طبقة أو منزلة إلى أخرى ، وخصصوا لهم الشارات والعلامات . ثم أقاموا الأضرحة على أجداث رؤسائهم وشيوخهم ، وجعلوها كالكنائس التي تضم رفات بعض الشهداء والقديسين . وشرعوا لهم التقرب بالشموع والنقود للتوسل لساكني القبور ، والتبرك بآثارهم ، وقراءة آيات أو سور من القرآن على قبورهم طلباً للشفاعة ، مع أن قراءة القرآن على القبور لم تؤثر عن السلف ؛ بل هي بدعة .

وقد قارن الكواكب قبلنا بين طقوس المتصوفة ومراسم المسيحيين ، فأحسن الالتهداء إلى ما بين تصوف المسلمين في العصور الأخيرة وبين طقوس المسيحية من أوجه شبه سافرة فقال : « وأخذوا التبرك بالآثار والقدح والحربة من احترام الذخيرة و قدسية العكان ، وكذلك إمرار اليد على الصدر عند ذكر بعض الصالحين من إمرارها على الصدر لإشارة الصليب ، وانزعوا الحقيقة من السر ، ووحدوا الوجود من الحلول ، والخلافة من الرسم [تنصيب الكاهن] والسقيا من تناول القربان ، والمولد من الميلاد . . . ورفع الأعلام من حمل الصليبان ، وتعليق ألواح الأسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل ، والاستفاضة في المراقبة من التوجه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام ، ومنع الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك قراءة الإنجيل على غيرهم ، وسد اليهود الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود . . . » (١)

كذلك ذكر شكيب أرسلان أنه ذهب مرة إلى المدينة المنورة ، فشاهد أن شيخ الحرم النبوي، وكان تركيا ، قد دلف هو وجماعة من خدم الحرم في ساعة معينة بعد العصر ، فدخلوا الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة . فرأى أنهم لبسوا جميعا ، قبل دخولهم إليها ، أوشحة بيضاء شفاقة ، كما أنما كانوا يريدون بذلك التعظيم والتوقير ، وهذا شبيه بما يفعله رجال الكهنوت في الديانة المسيحية . وقد حكى الإمام محمد عبده أنه دخل يوماً كنيسة في بيت لحم ، فسمع أناشيد تشبه أناشيد الطرق الصوفية ، ولكنّه سرعان ما فطن إلى أن هؤلاء كانوا قسيسا مسيحيين .

(١) ارجع إلى طبائع الاستبداد ص ٢٠ ، وإلى أم القرى ص ٣٥ .

(و) مظاهر الشرك :

ولما فتح باب الشعوذة والإيحاء على مصراعيه اندفع من لا حياء له يدعى أنه أدرك سر الولاية : إنها نظرة واحدة من المرشد يصير لها الشقي ولياً ، وإنها نفحة في وجه المريد أو تلفة في فمه فإذا بالأفعى تطيعه وبالعقرب تحترمه ، مع أنها لدغت صاحب الغار عليه السلام . وليس هذا كل ما يستطيعه العارف ؛ لأن من وصل عرف : « أن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب الحرمان ، أى أن تحسين الظن بالفساق والفجار أولى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك من الأقوال الموهونة للدين والأعمال التي تجعله نوعاً من اللهو الذي تستأنس به نفوس الجاهلين . » (١)

ولما رأى أديعاء التصوف كيف أقبل الجبهة عليهم لم يزدادوا إلا غلواً في تقرير أصول الشرك ، فدعوا إلى التبرك بالأولياء ، ونصحوا بالالتجاء إليهم لقضاء الحاجات ، ولو كانت من المنكرات . وصادف ذلك هوى في نفوس النساء والمرضى وضعاف العقول ولو كانوا ممن قد يُظن بهم العلم . ذلك أن الإنسان متى قعد به تفكيره عن السمو إلى ما تتطلبه عقيدة التوحيد من أن الإله وحده هو الذي يدبر العالم ويصرفه ويرتب مسبباته على أسبابه ، دون أن يكون في حاجة إلى وسيط أو وكيل ، فإنه يميل إلى عبادة ما يدركه حسه من ضريح ، أو تلمسه يده من شجرة أو صخر ، فإذا جمعت العبادة إلى جانب ذلك نصيباً من اللهو أو الرقص كانت أقرب

(١) عبد الرحمن السكواكي .

إلى النفس ، وأكثر يسراً عليها من عبادة كلها جد وخشوع ؛ لأنها تنتجه إلى من لا يرضيه أن يترنح المترنحون ، وأن يصفق المصفقون على وقع المزامير والطبول .

ولم يجد مثل هذا التصوف الذي لا يكلف جهداً ما يعترض سبيله ، فانتشر في مختلف البلاد الإسلامية ؛ بل وجد من تشجيع بعض الجبهة من الأمراء ما ثبت أقدامه في مصر والشام وبلاد المغرب ، ثم بلغ غايته في بلاد الأتراك . وسيطر على عقول أهلها منذ عدة قرون ، فكان سبباً في انحلالها وذهاب ملكها . فقد عظم فيها أمر هؤلاء الدراويش الذين خلطوا العقائد الإسلامية بكثير من الخرافات والأوهام ، حتى ذوت عقيدة التوحيد ، وقامت مقامها عبادة الأولياء أو الموتى ؛ ووجدوا من الأمراء الجاهلين عضداً ، فتبعهم في تشجيعهم نفر من العلماء الأغبياء فعمم البلاء ، وأيقنت العامة ، أو كادت توفق ، أن هذا التصوف هو الدين .

وقد وصف الكواكبي الذي عاصر هذا الفساد ما بلغه المشعورون في تركيا من القوة والنفوذ فقال : « فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيماً ، وأفسدوا كثيراً في الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تسكياً للطالبين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات . . وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للطالبين الذين ترجح من دوى طبولهم قلوب المتوهمين ، وتكفهر أعصابهم ، فيلبسهم نوع من الخبل ، فيظنون أنه حالة من الخشوع ، وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لاتباعهم . . وبذلك ضاق على العلماء الخناق ، لا رزق ولا حرمة . وكفى بذلك مضيقاً للعلم والدين ، لأنه قد التبس على العامة علماء

الدين الفقراء الأذلاء من هؤلاء المدلسين الأغنياء الأعزاء ، قشورهم
عقائدهم وضعف يقينهم . »

وكم رأينا نحن في بلادنا قطعانا من هؤلاء الجاهلاء الأدعياء الذين يجوبون
القرى في مواسم محددة ، يحملون التمام والمسابح ، ويتظاهرون بالورع .
ولسكنهم ينزلون ضيوفا على القرية الجاهلة بيتاً بعد بيت ، يقيمون الأذكار
ويؤمنون الناس بالباطل أنهم أهل بركة وخير ، فيصيبون أفضل طعامهم ،
وقد يذهبون بالقليل الذي يدخرونه وما أشد حاجتهم إليه ؛ إذ يحرصونهم
على البذل لهم ، ونحر الضحايا على قبور أوليائهم . حقاً إن انتشار التعليم
في البلاد الإسلامية كفيل بالقضاء على هذه الخرافات . لكننا ما زلنا نرى
في عاصمة مصر نفسها نفراً غير قليل يهرعون من أقاصى البلاد لمولد
من الموالد ، فيزورون الأضرحة فيلبسون جدرانها ، فإذا انتهوا من ذلك
أقاموا حفلات الذكر في الأزقة أو الميادين ، على نحو تعافه النفس
إذ لا خشوع فيه ، وإنما هو ضجيج وصفيق لا يذكر فيه اسم الله إلا باللسان .
غير أن هذه الطقوس أو الحفلات أصبحت أقل رونقا وأقل جاذبية
نما يبشر بأن ساعة الخلاص من هذا التصوف الخادع قد أوشكت أن تحين

(هـ) الدفاع عن عقيدة التوحيد :

وقد فزع كثير من مفكرى المسلمين في مختلف العصور لموجة الشرك
التي كانت تقضى على معالم العقيدة الإسلامية . وأشهر هؤلاء ابن تيمية
ومن تبع أثره ، كالإمام الشوكاني اليمنى ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وجمال الدين
الأفغانى وتلاميذه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا . فإن هؤلاء رأوا أن

التصوف كما يفهمه المسلمون بدعة في الدين؛ بل نوع من الشرك؛ لأن المسلمين استبدلوا بالأصنام التي كان يعبدونها عرب الجاهلية قبور الأولياء التي أقاموا عليها الأضرحة، وآسرجوا لها الشموع، كما يفعل المسيحيون في كنائسهم. وجعلوا يطوفون بها، والسعيد منهم من استلم أركانها، أو نثر ترابها على رأسه. كذلك هرعوا إليها يستنجدون بالموتى عندما تحل بهم النوائب، ويطلبون إليهم الرحمة والعون، ويتخذونهم زلفى إلى الله في قبول دعواتهم. ثم ابتدعوا عبادات لم يأت بها الإسلام، كالتقرب إلى الأولياء ببعض الركعات كما لو كان الله قد ترك الإسلام ناقصاً، فجاءوا هم يكملونه.

وكاد يستوى المسلمون جميعاً في الإيمان بمثل هذه الخرافات. حقاً قد يكون انتشار هذا الشرك وعبادة الأصنام أو القبور بين العامة أمراً لا يثير كثيراً من العجب، ولكن ما أعجب أن يميل إلى هذا الشرك كثير من الخواص، أو ممن يُتَوَهَّم أنهم كذلك. «وكم سرى عن تشييد القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام. وعظم ذلك، فظنوا أنها قادرة على جلب النفع، ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب الخوائج وملجأ لنجح المطالب، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم، أو شددوا إليها الرحال، وتمسحوا بها واستغاثوا. وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه... ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله، ويغار حمية للدين الحنيف، لا عالماً ولا متعلماً، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً. وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه عين من قبل خصم حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك

ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق . » (١) وقد كثر عدد هؤلاء الأولياء أو أنصاف الآلهة بتقدم الزمن ، وأصبحوا لا يدخلون تحت حصر ؛ فلكل قرية معبودها أو صنمها ، أى أن المسلمين الذين يلجأون إلى غير الله في دعواتهم وتوسلاتهم يشركون معه آلهة أكثر عدداً مما ذهب إليه هؤلاء الذين قال الله فيهم : لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة .

ومن هؤلاء الذين فزعوا من طغيان مظاهر الشرك محمد بن عبد الوهاب الذى قام ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، ينادى بضروره تطهير العقائد ، والعودة إلى العقيدة الأولى ، عقيدة التوحيد الصحيح التى لا تشرك مع الله أحداً غيره فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ؛ وجعل يحض المسلمين على وجوب الرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة وعدم الثقة بطائفة رجال الكهنوت الذين فرضوا أنفسهم على الدين وأهله وأغلقوا باب الاجتهاد وآثروا التقليد وجعلوا الجود شعاراً لهم . كذلك هاجم المتصوفة وما ابتدعوه من إقامة الأضرحة وما سنوه من زيارة القبور ونذر النذور وذبح القرابين وتلاوة الأوراد التى يبيكون عند سماعها ولا يبيكون عند سماع القرآن : ذلك أنه كان يعتقد أنه لا نجاة للمسلمين مما حل بهم من تدهور إلا إذا تركوا هذه الأوهام والخرافات وعادوا إلى دينهم فى طهارته الأولى .

لكن ثورة ابن تيمية وتلاميذه فى مختلف العصور لم تكن إلا ثورة أفراد قلائل ، غلبت على أصواتهم صيحات المتوسلين بالشاذلى والجيلانى وابن عربى ، فلقد كان الاتجاه نحو التصوف غالباً ؛ ولأن الجهل كان شاملاً . فاتهم دعاة الإصلاح بالمروق والكفر ، كما اتهم بذلك ابن تيمية ،

(١) من كلام الإمام الشوكانى : نيل الأوطار ج ٣ ص ١٣٤ .

وكما شوه رجال السكهنوت والسياسة فكرة المسلمين عن الحركة الوهابية .
فلما جاء جمال الدين الأفغانى ، عجب لأمر هؤلاء الذين يعيشون عالة على
الناس ، ويندّعون التصوف والاتصال بالله ، أو يزعمون أنهم يفنون في ذات
الله سبحانه ، مع أن الفناء الحقيقي إنما يجب أن يكون في العمل من أجل
الآخرين ، لا في التغرير بهم وتضليلهم وصرفهم عن دينهم ودنياهم . وقد نجحت
دعوة جمال الدين إلى حد ليس باليسير ، خملها من بعده تلاميذه وكثير من
الكتاب . فأصبح هؤلاء الذين لا ينظرون بعين الرضا إلى التصوف ؛ بل
يهاجمونه ، من أمثال رشيد رضا^(١) وغيره ، نفراً عديدا لا يوصفون بالكفر
أو المروق ، وغدا أنصار التصوف في موقف الدفاع ، بعد أن لزموا موقف
الهجوم عسورا طويلة .

على أننا قد لا نعطي التصوف حقه في معركته الأخيرة إذا نحن أنكرنا
أنه ما زال له أنصار يدافعون عنه ، قدر طاقتهم ، محاولين الإبقاء عليه بين
المسلمين ، بعد أن أدرك هؤلاء خطره عليهم ، ونعني هؤلاء الأنصار بعض
المستشرقين ممن يدرسون التفكير الإسلامى ولا سيما التصوف . فمنهم من
يقول : ليس في التفكير الإسلامى شيء جدير بالإعجاب سوى التصوف ،
أما الفلسفة فخط المسلمين فيها ليس مما يؤبه له . وقد ردد بعض من يشتغلون
بالفلسفة من المسلمين هذا رأى غافلين عما يحمل بين ثناياه . فإن تمجيد
التصوف الإسلامى لا يراد منه في الحقيقة سوى تمجيد التصوف المسيحى
الذى كان أحد منابعه ، وهو تصوف قائم على فكرة الحلول التى تتنافى مع عقيدة

(١) المنار : مجلد ٨ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ؛ مجلد ٢ ص ٩٨ ؛ مجلد ١٠ ص ٣٧٠ ؛

مجلد ٨ ص ١٦٩ ، مجلد ١١ ص ٢٩٧ الخ .

المسلمين . قد يقول بعضهم إن الناس يميلون في جميع العصور إلى اعتقاد أن الترانيم والمواكب الدينية وتقديس آثار الأولياء لها قيمة ذاتية ، وإنها تصل الإنسان بالإله ، وإنها تعبر عن حاجة الإنسان إلى تجسيد عواطفه الداخلية بحركات خارجية ، وتلك حاجة إنسانية لا يمكن أن تختفي من أى دين ، ولو كان الإسلام . ونقول نحن إن المسلمين ليسوا في حاجة إلى هذه الترانيم والمواكب ولا إلى تقديس الآثار ، لأنهم يستطيعون الاتجاه إلى خالقهم خاشعين آمنين ، دون أن يشركوا معه في ملكه غيره . وقد فعلوا ذلك أزماناً ، وهم الآن في طريق العودة إليه ، فيما نعتقد ، بعد أن أخذوا بأسباب العلم والحضارة .

٣ — يأس وجبن

(١) يأس :

لم يستطع التفكير العقلي أن يصمد أمام عدوين رهيبين تحالفا عليه وأقسما على هلاكه ، رغم ما بينهما من صراع قديم ، ونعني بهذين العدوين المتحالفين تعنت أهل الجدل والفقه ، ومذهب التصوف الذى جعل الدين لهواً ولعباً ، والتوحيد شركاً أو حلوياً . وقدر للشر أن ينتصر ، فأنطقت جذوة التفكير ، واندثر العلم ، ودخلت الأمم الإسلامية في سباتها العميق ، فتخلفت عن الركب ، وسبقها أمم أوروبا التى تتلمذت عليها طيلة العصور الوسطى . فلها أيقظها الاستعمار من محنتها ، وأطلعت على آثار الحضارة الأوروبية وما وصلت إليه من تقدم فى القوة والعمران والعلم ، ورأت أن الشقة بينها وبين السابقين أضحت أكثر اتساعاً من أن تقطعها بالخيال ، فضلاً عن أن تأتى عليها بالجد والعمل تملكها اليأس ، وآثرت أن تعود إلى نومها ، وأن تتعلل

بالأمان والدعاء ، ورغبت في أن تستسلم للقضاء والقدر ، وهي تظن أن معجزة من المعجزات ستأتى يوماً لتدفعها إلى الإمام ، فتحتل مكان الصدارة في سباق الأمم ، دون أن يتطلب منها هذا السبق جهداً ، ودون أن تكون في حاجة إلى ركوب الصعب من الأمور . فحق للأوروبيين أن يسخروا من المسلمين المعاصرين ، وأن يرجعوا تأخرهم إلى إيمانهم بالقضاء والقدر ، وأن يقولوا عنهم إنهم قوم مضى زمنهم ، ولن تقوم لهم قائمة ما داموا يحيلون كل أمر يعجزون عنه ، أو يظنون أنهم عاجزون عنه ، على القدرة الإلهية ؛ وإن عقيدتهم هذه سوف تقودهم إلى الفناء ، وليس في فنائهم خسران كبير ؛ إذ سيخلفهم في أرضهم قوم آخرون هم خير منهم ؛ لأنهم سيكونون أكثر منهم اعتداداً بأنفسهم ، وأقدر على مقاومة عوامل الزمن ، وحوادث الدهر التي لا تبقى إلا على من هو أهل للبقاء . فالحياة صراع ، ولا مجال فيها للضعيف خائر العزم .

حقاً حاول جمال الدين الأفغانى أن يرد هذه التهمة ، وأن يدافع عن عقيدة المسلمين في القضاء والقدر ، فرمى أهل أوروبا بأنهم لا يفهمون حقيقة هذه العقيدة ، وأنهم لا يفرقون بين الإيمان بالقضاء والقدر وبين مذهب الجبر الذى نادت به طائفة من المسلمين منذ القرن الثانى الهجرى . فإن هؤلاء كانوا ينسكرون على الإنسان كل قدرة ، وينسبون ذلك إلى الله وحده . فهبطوا بالإنسان إلى مرتبة الجماد أو النبات ، وجعلوه كريشة في مهب الريح تقلبها كيفما تميل ، لا قدرة لها ولا إرادة . ويزعم الأفغانى أن هذه التهمة التي ألصقها الأجانب بالمسلمين تهمة باطلة لا تقوم على أساس من الحق ، وأن ضعاف العقول من الشرقيين وحدهم هم

(٣ الإسلام)

الذين يرددونها ؛ لأنه « لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي وإسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ؛ بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم . » ذلك أن المسلمين يرون الآن أن مذهب الجبر المطلق ليس إلا نوعاً من السفسطة الكاذبة . هذا إلى أنه مذهب تاريخي قد غبر زمنه منذ أواخر القرن الرابع الهجري . وكأن الأفغانى يوصى هنا إلى انتصار مذهب الأشعرى الذى حاول التوفيق بين طائفة الجبرية وطائفة المعتزلة فى مسألة قدرة العبد ، وصلتها بعقيدة المسلمين القائلة بأن الله خالق كل شىء . ويظن جمال الدين بعد ذلك أن مذهب الجبر المحض قد اندثر تماماً ، وأن الإيمان بالقضاء والقدر ، كما يفهمه المسلمون ، ليس شديداً فى شىء بهذا الاعتقاد الغريب عن روح الإسلام . ثم يلخص رده على وجهى هذه التهمة فيقول : « أما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة ولا غيرها من العقائد الإسلامية ، ونسبته إليها نسبة النقيض إلى النقيض . » وهو يعمل رأيه هذا بأن المسلمين الأوائل لم يفتحوا الأمصار ، ولم يبسطوا ملكهم عليها إلا لأنهم كانوا مؤمنين بالقضاء والقدر ، وبأن نابليون لم ينتصر فى معاركه إلا لأنه كان مؤمناً بهذه العقيدة

وعنا يؤكد الأفغانى أن انحطاط المسلمين إنما يرجع إلى بعض الأسباب السياسية ، كهجوم التتار على بغداد ، وكهجرة الصليبيين إلى بلاد الشام فى الوقت الذى ضعف فيه سياسة المسلمين وأمرؤهم ؛ فى حين أنه يقول غير ذلك فى موطن آخر . ومهما يكن من تأرجح رأيه فى أسباب التدهور فإننا نراه

يؤكد مرة أخرى أن الأمة الإسلامية لن تموت ما دامت تؤمن بالقضاء والقدر ، ويعلم النفس بأن ما عرض للمسلمين من الأمراض النفسية والتدهور العقلي لا بد أن يزول بسبب التمسك بمثل هذه العقيدة الحقة ، ليعود الأمر كما بدأ ، ويذهب اليأس ، ويأتي مكانه العزم ، فينقذ المسلمون بلادهم ، ويرهبوا الأمم الطامعة فيهم ، فيوقفوها عند حدها . وليس ذلك في ظنه بالأمر الذي ينكره العقل ، كما تدل عليه الحوادث التاريخية ؛ فإن العثمانيين هبوا من نومهم بعد حروب التتر وأهل الصليب ، فأرسلوا جيوشهم إلى بلاد أوروبا ، وامتدت فتوحاتهم ، ودوخوا الملوك والسلاطين ، حتى غدا سلطان آل عثمان يسمى بالسلطان الأكبر في أوروبا .

لكننا نعتقد أن جمال الدين كان يخدع النفس بالأمانى ، ويغفل عن حقيقة هامة ، ينبغي لنا أن نعترف بها ، لا مجازاة أو تقليداً لأهل أوروبا الذين يعيروننا بإيماننا بالجبر ، ولكن إحقاقاً للحق ، وكشفاً عن موطن الداء ، وقضاء على تلك الفكرة الخاطئة التي كوَّنها المسلمون لأنفسهم عن القضاء والقدر . حقاً كانت هناك جماعة الجبر المحض الذين أنكروا على الإنسان أفعاله وقدرته واختياره . وجعلوه لا يملك من أمر نفسه شيئاً . كذلك من الحق أن جماعة من المسلمين قاموا يسفّهون آراء هذه الطائفة ، لكن لم يكن أهل السنة الذين يمثلهم الأشعري وغيره هم الذين قضوا على آراء الجبرية ، تلك الآراء التي بعثت اليأس في القلوب وشلت الأيدي عن العمل ، وإنما كان المعجزة هم الذين حاولوا إنقاذ الأمة من وباء التواكل والتخاذل ؛ فأخذوا يقررون حرية الإنسان واختياره ، حتى يكون للشواب والعقاب معنى .^(١)

(١) إن كان من فعل الكبائر مجزاً فعقابه خلم على ما يفعل والله إذ خالق المعادن عالم أن الحداد البيض منها تجعل

فجاء أبو الحسن الأشعري يحاول التوفيق بين أهل الجبر وبين المعتزلة فلم يفلح في توفيقه ؛ إذ قال إن للإنسان كسباً ، واختياراً ولكنه لا يخلق أفعاله ؛ لأن الله هو الذى يخلقها له ، سواء أكانت إرادية أم غير إرادية . وظن من لا علم له بحقيقة رأى الأشعري أن هذا المفكر كان وسطاً بين أهل الجبر والقائلين باختيار الإنسان وحرية . والحق أنه كان أقرب إلى أهل الجبر ؛ بل هو في رأينا لا يختلف عنهم في قليل أو كثير . (١)

فلما كتب النصر لآرائه ، وظن الناس أنها تعبر عن حقيقة آراء السلف سرت في الأمة الإسلامية روح التخاذل والتواكل . ولن يغنى عن الأشعري أن يجيء جمال الدين يحاول تبرئته ، أو يتحايل في دفاعه بالفرقة اللفظية بين عقيدة الجبر وبين فهم المسلمين للقضاء والقدر . وكان أولى به أن يسلك مسلك غيره من أئمة التفكير الإسلامى الذين فسروا القضاء والقدر بأنه الأسباب التى وضعها الله فى الكون ، والتى يستطيع الإنسان أن يعمل فى حدودها ، وأن يعمل الشيء الكثير ؛ بل الشيء الذى لا يكاد يقف عند حد . لكن هذا رأى الحق لم يجد من يصغى له أو يحاول فهمه . وهكذا انتصرت فكرة الأشعري ، وهى فكرة الجبر المحض ، بسبب الجرد والتقليد ، وانتهى الأمر بالأمم الإسلامية إلى ما نراه من ضعف فى وقتنا الحاضر .

فما لا شك فيه أن عقيدة الجبر ، كما فهمها المسلمون فى عصور الخطاطهم ، وكما يفهمها كثير منهم فى عصرنا الراهن كانت وليدة الخور والتخاذل .

(١) عرضنا هذه الفكرة فى موضع آخر : انظر مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة

وقد استخدمها بعض الناس تبريراً لما هم فيه من ضنك وعجز عن التمتع بالطيبات التي أباح الله لهم أن ينعموا بها؛ ثم أرادوا ألا يكون القادرون أفضل حالاً منهم، فأخذوا يحثونهم على الزهد في الدنيا والاكتفاء بالقليل الذي لا يغنى، والقضاء على الميول الإنسانية المشروعة كالسعى وراء المجد، وطلب المال والنفوذ والقيام بخطير العمل مما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع، ويجعلهم في منعة لا ينال منها عدو أو طامع. ثم طفقوا يرغبونهم في أن يعيشوا كأموات قبل أن يدركهم الموت حقيقة. وكأن الإسلام لم يأت لينادي بالجمع بين الدين والدنيا، وينهى على هؤلاء الذين يحرمون على أنفسهم ما أحل الله لهم لأنهم آثروا أن يحيا حياة الرهبان. حقاً إن الإسلام لا يدعو أهله إلى التسكالب على الحياة الدنيا على نحو ينسون معه آخرتهم، لكنه ينصحهم بالتوسط في الأمر. فإذا غلب بعض المسلمين في الحث على الزهد والتقصيف فربما كان ذلك لعجز في نفسه أو للترويح عن العاجزين من أمثاله.

ومع هذا فمن العادة أن يفسر المرء كل شيء بالقضاء والقدر أو الصدقة — وكلا التعبيرين معنا سواء — عند ما يجهل أسباب الأشياء، أو عند ما يحاول الإبقاء على جهله. وهل هناك من خطر على عقيدة المسلم إذا أدرك أن ما يحدث في العالم إنما يقع طبقاً لقواعد وقوانين ثابتة سخرها الله لتؤدي إلى نتائج محددة؟ وأيهما أسلم عقلاً وأصح إيماناً: رجل يعتقد أن ما يحدث في السكون إنما يجري على أسس ثابتة تدل على دقة الصانع وعلمه وحكمته، أم رجل يظن أن الصدقة أو الاتفاق، أو القضاء أو القدر، أو ما شئت من الأسماء، هو قانون هذا العالم؟

هذا إلى أن الزهد في الحياة لا يمنع العمل ، ولا يبرر اليأس ، ولا يدعو إلى التواكل الذي يوصى به أهل الجبر المطلق . ألم يكن الصحابة وكثير من أمراء المسلمين زاهدين ، ومع ذلك كانوا أكثر الناس عملاً وأقواهم أهلاً في رفعة شأن دينهم وأهلهم ؟ لقد كان زهدهم هذا زهداً صحيحاً ؛ لأنه كان يهدف إلى تغليب المصلحة العامة والنهوض بإخوانهم ، لا إلى تثبيط همهم ليقعدوا بهم مع القاعدين .

على أن الآراء إنما تقدر بعواقبها ونتائجها . فهل هناك من ينكر أن فكرة المسلمين عن القضاء والقدر كانت وبالا عليهم ؟ وإلا فما السبب في هذا اليأس القاتل وفي كراهيتهم للعمل ؟ لو كنا نعتقد أن أعمالنا من صنع أيدينا ، وأن لنا قدرة على تغيير حالنا بخير منها لما تركنا العمل ، ولا أثرنا الجِد ، ولضيقنا بالكسل ، ولعافت نفوسنا روح الهزل التي يزهو بها كثير منا ، مع أنها لا تعبر عن نفوس سليمة معتدلة ؛ بل تنم في الحقيقة عن رغبة المرء في أن يستتر همه وعجزه وأساءه . لقد ملك اليأس علينا قلوبنا فأصبحنا نضيق بكل شيء ونسخر من كل شيء . فلا نبحت عن معرفة ، ولا نحاول الاستماع إلى نصيح ؛ بل قد نسخر من الناصحين ، ونتخذهم أضحوكة وملهاة لنا . وذلك لضعف الإحساس والقنوط من كل إصلاح . فكأننا يضحك ويسخر ، ولكنه ضحك أشبه بالبكاء . فإذا أغلظ الناصح في نصحه أثار غضب اليائسين لا ضحكهم ؛ لأنهم يدركون عندئذ أنه يطلب إليهم أن يؤدوا واجبات لا قبل لهم بها لأنهم أعجز الناس عن أدائها . هذا إلى أنه لا يخطر بخیال أحد من اليائسين أن يعمل من تلقاء نفسه « ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم ، واستفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً ، أو يعيد إليها مجداً ، عدّه

هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف المزاج أو خلل في البنية ، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، ويُحكّم لنفسه سلاسل من الجبن ، وأغلالاً من اليأس ، فتغل يداه عن العمل ، وتقف قدماه عن السعي ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه . (١)

وفي غمرة هذا اليأس الشامل افتقد المسلمون الزعماء والهداة فلم يجدوهم ؛ لأن المصلحين والمرشدين لا ينبتون عادة في الحجر الصلد ، ولا تثمر آراؤهم في الأمم المتأخرة التي تفقد ثققتها بنفسها وربها . وكيف يعقل أن يوجد هؤلاء إذا لم يكن هناك صدى لنصائحهم في قلوب العامة ، وإذا لم يعترف لهم قومهم بأنهم ممتازون وقادرون على إنقاذهم ، ويقرون لهم بالرغبة المخلصة في النهوض بهم ؟ نقول إن ظهور المصلحين في مثل هذه البيئات اليائسة القانطة يكاد يكون أمراً مستحيلاً ؛ لأن فكرة الإصلاح لا يمكن أن تسنح لخيال امرئ مادام يرى قومه مصيرين على يأسهم وتخاذلهم ؛ لا يجمعهم رأى ، ولا يحفزهم أمل ، ولا يشعرون بدافع إلى العمل على قهر عوامل التدهور التي تكبت تفهمهم من كل جانب .

ب — جبن وذل :

وإذا فقد المرء كل أمل في صلاح أمره ويئس من ظهور من يأخذ بيده ، وأرجع كل ما يلحقه من أذى وضر إلى ضربات القضاء والقدر ، أو إلى محض الصدقة التي تتقلب مع الهوى ، أضحي فريسة للهواجس والوهم ،

وتطرق الخوف إليه ، ترتعد فرائضه عند كل بارقة ، وتذهب نفسه شعاعاً عند كل نازلة ؛ لأن الجهل بأسباب الأشياء أو نتائجها يضخم الوجدان ، ويشير الرعب ، فلا يقدم الإنسان على أيسر الأعمال وأكثرها أمناً ، فضلاً عن أن يخاطر بحياته من أجل الحياة الكريمة ؛ بل يؤثر أن يخنع وأن يرضى بما لا يرضى به الحر الكريم ، ويستحب معيشة الضنك في كنف الذل على حياة المشقة التي تتسع لها آفاق من العزة والرغد . فالرابطة وثيقة بين اليأس والجنون ؛ فإذا كان اليأس هو الذي يقعد بالأمم ويثبط الهمم فإن الجنون هو الذي ينخر في أسس الدول ويقضى على كرامة أبنائها ، فيجعل احتمال الذل في أعينهم هيناً ، ومذاق العبودية مستطاباً .

ذلك أن الجبان يتقبل الإذانة متذرعاً بالصبر ، ويرضى العسف مدعيًا الجلد ، ثم لا يسوؤه ، في كثير أو قليل ، أن يقبل الجور أو يسلك أوعر المسالك إبقاءً على حياته . يسخره الأجنبي أو المستبد كما تسخر الأنعام فلا يخطر بباله أن يحتج ، وقد يحرم ثمرة عمله فلا يحرق على المطالبة بأجر ما عمل ؛ ولو طلب إليه أن يعمل أكثر مما يطيق لما استطاع رفضاً . لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة — كما يقول جمال الدين — ولكنه راض بكل حال . . . هذه حياته : أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء . . . إنه الجبان الذي يتجشم أشق الأعمال ويعانى المكاره ، ولو بذل جزءاً يسيراً من جهده الذي يتطلبه منه ساداته ، لاستطاع أن يحطم قيوده ، وأن ينال نصيباً من الحياة التي تليق بالآدميين . لكن المستعمرين والمستبدين يعلمون أن هؤلاء الجبناء « أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ، ورضوا لها بما دون حقها . . . وكفروا بنعمة الله في تكوينهم على الشكل الإنساني . . . فيعاملهم أولئك

السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات .^(١) وهذا أمر شهدناه ، وربما ستشهده عدة أجيال مقبلة في بعض البلاد الإسلامية التي ترزح إما تحت حكم ملوك طغاة ، وإما تحت نير الاستعمار الأوروبي .

وقد أصيب المسلمون بالجبن ، لأنهم يخافون الموت ، ويحرصون على حياة ما كان لهم أن يحرصوا عليها لو أرادوا الحق ؛ فإن الحياة الطيبة هي التي يعمل المرء للاحتفاظ بها ، ويضحي بنفسه للدفاع عنها . أما الحياة التافهة فمن العسير أن يتصور المرء كيف يشتد الحرص عليها إلى درجة ينسى معها آدميته . والجبن وليد الخوف من الموت ، فإن الجبان متى نزلت به نازلة تقبلها بالرضا والصبر ، ولم يحاول دفعها ؛ لأنه يظن أنه لو فعل لنزلت به أخرى أشد وأدهى ، وربما لقي فيها حتفه . لذا تراه يستحب هذه الحياة التافهة على أية حياة كريمة تتطلب قدراً من الشجاعة . مع أن نظرة واحدة بين يديه . . . تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين غشيتها فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمتها الجبن فغ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتنل به نفوس الإنسان ، وتلتهم به الأمم والشعوب ، وهو حباله الشيطان يصيد به عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة . . . ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعشه وموجهه . . . هازم الجيوش ومنكس الأعلام . . . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الأذنياء لدنيئة الارتشاء أليس هو الجبن ؟^(٢)

(١) المصدر السابق ص ١٨٠ . (٢) العروة الوثقى ص ٢١٤ — ٢٦٥ .

ومن الأكيد أنه لا بد للمطلع على أحوال الدول الإسلامية من الاعتراف أنها لم تعد تلك الدول التي يحسب لها العدو حساباً ؛ بل إنها فقدت مميزاتها الأولى ، وأهمها الشجاعة والثقة بالنفس والأمل في النصر . فآلف أهلها استبداد ملوكهم واستعباد أولى الأمر لهم . فصار الذل والهوان طبيعة فيهم ، لا يسمو بهم أمل ، ولا تحفزهم شجاعة أديبة إلى الوقوف في وجه الطغاة والمستبدين ؛ بل إنهم ألفوا الانحدار والانحطاط بحيث لو طلب إليهم أن ينعموا بحريتهم التي تعطي لهم عفواً لما استطاعوا أن يتحرروا من ذلهم . فهم يحكمون على أنفسهم بالخطية ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، ولا ينفرون من الإهانة والتحقير ؛ بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من ذلك أياً كان . ولو حاول أحد منهم أن يرفع الذل عنهم بالخروج على الحاكم المستبد لوجد من أمره عجباً ، ولرأى قوماً من إخوانه البؤساء يدافعون عن جلاذيتهم ، ويفضلون أن يبقوا على ما هم فيه من ضيم لأنهم يخافون ما يأتي به الغد ، وقد يكون أسوأ من حاضريهم . فالجن يقعدهم والذل يثنيهم عن أن يدركوا الخير بأيديهم أو بأيدي غيرهم . « وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقى إلى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت إلى الرفعة والعزة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور ، وإذا ألزمت الحرية تشقى وربما تنفى ، كالبهايم الآلهة إذا أطلق سراحها ... » (١)

ونحن لا نغلو في تصوير حالهم فإن الحوادث التاريخية تكشف لنا كل

يوم من أمثال ذلك شيئاً كثيراً يحار له العقل ، ويعجز المنطق عن تفسيره ، ولا يبرره إلا طول ما لقي القوم من ذل واستبداد ، حتى اعتقدوا أن تلك هى الحياة الطبيعية التى يجب أن يحياها الإنسان فى دار الغرور . ولو أن هؤلاء الجبناء آمنوا على أموالهم وأنفسهم وحريتهم فى القول والعمل ، ثم نزلت مصيبة بإخوانهم فى قطر آخر لما رثوا لهم ، ولا توجهوا لمصائبهم ؛ بل لو ثارت طائفة من الأحرار على ملك مستبد من ملوكهم فقهرته ، واستردت لشعبها ما كان يرنو إليه من الحرية والعدل ، لوجدت كثيراً من الناقمين فى بلادها وفى البلاد الإسلامية الأخرى : ينظرون إليها شذراً ، ولا يقفون فى عدائهم لها موقف الحياد ، أو يكتفون بالتقول عليها واتهامها بالباطل ، وبتشويه أغراضها والخط من أعمالها ؛ بل قد يتجاوزون ذلك — وكثيراً ما يفعلون — إلى الكيد لها وطعنها من الخلف نذالة وخيانة أو حسداً ، فيحاولون الاتفاق مع العدو الخارجى الذى يتربص بهم الدوائر جميعاً .

وإنما يخونون إخوانهم وأنفسهم لأنهم ربما يرون فى خلاص قطر من الأقطار الإسلامية بشيراً أو نذيراً بخلاص المستعبدين فى الأرض من أبناء جلدتهم . وذلك أمر لا يرجونه ولا يأنسون إليه ، ولا يطيّبون به نفساً ؛ لأنهم يعتقدون أن طلب الإصلاح خطر على النظام القائم عندهم ، ونذير بانقضاء عهد الذل الذى ألفوا مذاقه فأفسد طباعهم ، فأثروا الاستكانة لملوكهم المستبدين ، الذين يرون طاعتهم أمراً واجباً ، ولو كانوا يعملون ، قاصدين أو جاهلين ، على خراب بلادهم وتسليم المسلمين قطيعاً إلى الدول الأجنبية : يسخرونها فى فلاح الأرض أو يخذلونها لحروبهم . وإن مسلحاً هذا شأنه ليس من نسج الخيال وإنما هو حقيقة تاريخية حتى فى عصرنا هذا ؛ فإن بعض الحكومات الإسلامية ما زالت

تؤثر الفرقة ، وترحب بالاتحاد مع المستعمرين ، مما يجعل المحايد من الأجانب يقلب كفتيه لا يفقه شيئاً من أمر الدوافع الخفية التي تحفز هؤلاء القوم إلى كراهية الخير لأنفسهم ، ثم ينتهي بأن يصفهم بأنهم غير جديرين بالحرية ، وقد لا يكون مخطئاً في حكمه عليهم .

وهكذا أصبحت الرابطة الإسلامية مجرد كلمة تقال ، لكنها لا تعبر عن أخوة حقيقية . فالمسلمون أكثر الناس خشية أن ينسأخ أحدهم من دينه . وإذا حدث ما يخشونه عمهم الحزن ، سواء أكانوا من العامة أم من الخاصة . ومع أن هذا الحزن الشامل قد يوحى بقوة الرابطة بينهم فإنه لا يعدو أن يكون عاطفة فردية أو سطحية ، لا عاطفة اجتماعية تسوق الجمهور إلى القيام بعمل ما . وقد استدل جمال الدين الأفغاني لذلك بانقطاع الصلة الإسلامية في عصره ؛ فإن أهل بلوخستان كانوا يشهدون بأعينهم كيف تسالل الإنجليز إلى بلاد الأفغان يحاولون احتلالها ، فلا يجيش لهم جأش ، ولا تدفعهم حمية إلى نجدة إخوانهم ومساعدتهم على عدوهم المشترك . كذلك كان الأفغانيون يرون رأى العين كيف تدخل الإنجليز في بلاد فارس ، ثم لا يأسفون ولا تأخذهم غيرة ، كأن الأمر لا يعينهم . هذا إلى أن الإنجليز استطاعوا أن يفتكوا بقطر إسلامي له مكانته وهو مصر ، وأن يعملوا في أهله النار والحديد ، فلا تدب الغيرة إلى قلب أحد من أبناء الأقطار الإسلامية المحيطة بهم . وقد عجب الأفغاني لهذه الظاهرة ، أو لهذا التناقض بين العاطفة والسلوك ، وهو أن المسلمين أشد ما يكون تمسكا بعقائدهم ، وخشية على إخوانهم أن يرتدوا عنها ، ثم هم لا يبدون حراكاً عند ما يفتك بهم السيف والنار . إن السبب في ذلك أنهم فصلوا بين العقيدة والعمل ، وظنوا أنه من الممكن أن يظل

المسلم مخلصاً لدينه ، وأن يكون ذليلاً جباناً في الوقت نفسه ، فلا يشعر بالأسى لما يحل به أو بأخيه ، ويحسب أنه يكفيه أن يقر بالشهادة . فلا يعمل عمل المسلم الحقيقي الذي تدفعه قوة عقيدته إلى أن يدفع عن نفسه ، وأن يحجر المستجير .

إن هناك تأثيراً متبادلاً بين العقيدة والعمل ؛ لأن العقيدة القوية تدفع إلى العمل . بينما يثبت العملُ العقيدة ، ويطبع النفس عليها حتى تترتب عليها الآثار التي تلائمها . وشيئ به ذلك صلة القرابة التي تقوى وتتأكد بالتعاطف والتراحم والتزاور ، وتزدوى وتضمحل بالإهمال والتقاطع . أما وقد رضى المسلمون بالذل ، ويئسوا من أنفسهم فإنهم يطمئنون إلى ما هم فيه ، ويتباطئون عن نصره إخوانهم جنباً وخوراً ، مع أنهم أثبت الناس في عقائدهم وأشدهم حرصاً عليها ، بدليل فشل المبشرين منذ قرون في صرفهم عنها . ومن العسير أن توجد بينهم رابطة سياسية واجتماعية قوية ، ما داموا متخاذلين متدابرين لا وحدة بينهم سوى عقيدة دينية أصبحت بمعزل عن حياتهم العملية . حقاً « إن لأبناء الملة الإسلامية يقيناً بما جاء في شرعهم . لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين ؟ أيجسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . . . » كل ذلك لأن الجبن قد ضرب سياجاً حول النفوس ، فرضى المسلمون أن يروا أعلامهم منكسة ، وأملأهم ممزقة ، والأجانب يتداولون أو يقتربون فيما بينهم على اقتسام ما بقي في أيديهم ، دون أن يبدوا ما يشعر أنهم غاضبون ، أو عازمون على

الدفاع عن حوزتهم ، أو يوهم في الأقل أنهم سيجمعون كلمتهم المفرقة ،
ليقفوا أمام عدوهم صفاً واحداً .

٤ - ضعف الأخلاق وتمجيد الرذيلة

١ - الخلاف والتقاطع بين المسلمين :

ومن مظاهر انحلال الرابطة الإسلامية ، ذلك التقاطع والتدابير بين عامة
المسلمين وخاصتهم ، حتى العلماء أنفسهم لم يسلموا من ذلك ، مع أنهم هم
المكلفون بحفظ العقائد وإرشاد الناس في أمر دينهم وشئون دنياهم ، وبحثهم
على التعارف والتشاور سعياً وراء الاتحاد والاتفاق والعمل المشترك فيما يدفع
عنهم بعض ما هم فيه من ضرر . فليس ثمة صلة بين أفراد هذه النخبة الممتازة ،
أو التي ينبغي أن تكون كذلك . وليست هناك مجامع تضم مختلف العلماء
المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم ، كما هو شأن المجامع والمؤتمرات
العلمية في أوروبا المسيحية . فالعالم التركي لا يعرف شيئاً عن زميله المصري
أو العراقي أو الحجازي أو الفارسي أو البني أو المراكشي ، وكل من هؤلاء
ليس أسعد حالاً من الآخرين في هذا الصدد . وليت الأمر وقف بهؤلاء
العلماء عند هذا الحد ، فقد يتقاطعون ويتدابرون ويتخاصمون على غير
معرفة ، بل إن أمرهم في القطر الواحد أشدّ عجباً : لا تجمعهم صلة مودة
أو محبة ، وكثيراً ما نراهم متحاسدين متباغضين يغتاب بعضهم بعضاً ،
ويكيد بعضهم لبعض ، لا تنافساً في العلم ، فإن مجال الدراسة والبحث
أكثر اتساعاً من أن يستوفوه جميعاً ، فضلاً عن أن يستأثر به واحد منهم .

ولكن ماذا تريد من نفوس درجت على ما درج عليه عامة المسلمين منذ قرون ، من التخاذل والتباغض والخلاف حياً في الشر ، ورغبة عن الخير . فكل إنسان ، عالماً كان أم جاهلاً ، يأبى إلا أن يهدم الآخرين ، أو يحاول الخط من أقدارهم بكل ما تواتيه به نزعة الشر التي كأنما غرست في قلبه ، وبكل ما يدفعه إليه المثل السيء ، الذي لقيه في بيئته الأولى ، ثم في مجتمعه . فلقد درّب منذ أن كان غض الإهاب سليم الفطرة على اغتياب الناس ، والنهش في أعراضهم ، وقذفهم بكل فرية ، حتى يبدو هو في ظنه ملاكاً طاهراً ، مع أننا نعلم أن هؤلاء الذين يلجأون إلى الغيبة ، ويجدون متعة دونها أية متعة في الإيقاع بالآخرين والدس عليهم هم أدنى الناس مولداً ، وأردأهم منبئاً . ولكن ماذا تتوقع من قوم ينظر كل واحد منهم إلى نفسه ، كما لو كان مركزاً للعالم ، فلا ذكاء ولا مهارة ، ولا شرف ولا جاه ، ولا أجداد ولا أنساب ، ولا شيء إلا له وحده .^(١) ولو أنت كشفت عن أمره لعلت أنه أقل الناس حظاً فيما يدعى . وهذا هو شأن الأفراد عادة في المجتمعات الرأكدة التي تحاول سد ما تشعر به من نقص ، فتتظاهر بما ليس عندها ، وتخضع على أفرادها الألقاب التي لا يعدم السوق بل المجرمون نصيبهم منها ، وتجهد نفسها في ستر جهلها بادعاء المعرفة ، وفي إخفاء فقرها وسوء حالها بالفخر بثراء الآباء والأجداد .

وليس هذا الخلاف والتنافر وقفاً على العلماء والعامة ، بل للملوك فيه جانب ليس باليسير . فكل منهم يعلم ، أو يوشك أن يعلم ، أنه دمية تحركها دولة أو عدة دول أجنبية ، وهو يوقن أنه يستبد بأمر بلد جاهل متأخر ، لا يستطيع أن يفاخر به الملوك الآخرون ، ومع هذا يكاد يقتله الكبر

(١) قال أبو العلاء : يظن بنفسه شرفاً وقدرًا كأن الله لم يخلق سواه

فى الوقت الذى يفتك فيه الجوع والعزى برعايا جلالتة !! وقد عجب جمال الدين الأفغانى كيف تفككت الروابط بين ملوك المسلمين على ضعفهم وحاجتهم إلى أن يشد بعضهم إزر بعض ، بدلا من أن يزهو كل منهم بنفسه فيما غير ما يوجب الزهو ، فتساءل : أليس بعجيب ألا تكون هناك سفارة للعثمانيين فى مرا كش ولا لمر اكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب ألا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق ؟

ولو عاش الأفغانى فى زماننا لكان أكثر عجبا لموقف بعض الدول الإسلامية تجاه البلاد العربية فى محنتها الخاضرة التى بدأت باغتصاب اليهود لفلسطين . فالخلاف قد « عم المسلمين حتى صبح أن يقال لعللاقة بين قوم منهم وقوم ، ولا بلد وبلد ، إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ، ويعتقدون مثل اعتقادهم ... وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر ، إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاونته . » (١)

لقد ضاق جمال الدين صدرأ بهذه القطيعة التى فرقت بين المسلمين وتساءل عن الوسيلة التى توقظ النائم من نومه ، والغافل من غفلته ، والسادى من غيه ، وما المصائب التى يجب أن تحل بهؤلاء النائمى الغافلى حتى يستيقظوا من نومهم وأحلامهم ، وحتى يذهب عنهم الوقر الذى أثقل أذانهم ؟ فأى كارثة يريدون أن تبحق بهم ، حتى تتآلف قلوب الأفراد فى هذه الأمة التى تنافرت آحادها ، وتباينت عاداتها وطباعها ؛ وحتى تتجمع الرغبات المتنافرة ، وتتقارب الآراء المتضاربة ؛ وحتى تنقشع سحائب الجهل التى حجبت آفاق الأمل

وسدت مسالك العمل ، فظن الناس أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعسر ؟ فلا بد إذن من معرفة أسباب الخلاف حتى يسهل القضاء عليها . وإذا كان من العسير أن نقف على مقدمات مرض عضال لدى فرد من الأفراد محدود العمر ، فما بالك بتحديد أسباب آفة الشقاق بين الأقطار الإسلامية التي استفحل أمرها ، خلال هذه العصور المتطاولة ؟ لقد كان المسلمون أمة واحدة ، قوية البنية . ثم اتتبتها الأمراض وتفرق شمل أبنائها ، فانقسمت إلى طوائف تعيش كل منها لنفسها وبمعزل عن غيرها . ويعتقد الأفغانى أن منشأ هذا الداء يرجع إلى أن خلفاء العباسيين تقاعسوا عن واجبهم ولم يجمعوا بين الزعامة الدينية والسياسة الزمنية في آن واحد ، كما كان يفعل الخلفاء الرشيدون ، كما يرجع من جانب آخر إلى كثرة المذاهب والفرق ، ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، مما أدى إلى انقسام الأمة إلى عدة دول في الشرق والغرب ، فانحطت منزلة الخلافة إلى وظيفة الملك ، وسقطت مكاتها في النفوس ، وتناحر طلاب الملك والرياسة ، كل يغير على صاحبه . ثم استمروا في شقاقهم وصراعهم حتى جاء جنكيز خان وخلفه فصرعوهم ، وتفرق الشمل كله ، وانقطعت روابط الأخوة بين ملوك المسلمين من جانب ، وبين رعاياهم من جانب آخر ، « وافترق الناس فرقا ، كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة . . . ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب ، عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ، ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفاتت ، كما يكون على الأموات من الأقارب ، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة . »

وكم ضاعت بعد جمال الدين من دويلات إسلامية ، فلم يؤد ضياعها إلا إلى حسرة عابرة ، جاءت بعد أوانها . أما حين كاد يجد الجدد ، ويتحتم العمل ، فقد اتجه زعماء البلاد الإسلامية وملوكها إلى الصياح ، وتهيج عواطف الجماهير ، يغرون بهم ، ويدفعونهم إلى الموت دون سلاح وعتاد . هذا إذا بلغت النخوة بهؤلاء الزعماء أو الملوك مبلغاً قد يدهشون له هم أنفسهم . ثم تتهى الكارثة بهم يمتهم ؛ لأنهم يتحمسون على دخل ، ويتعاونون على خيانة وخديعة . وعندئذ يصمت أساطين السياسة ودهاقين الحرب ، ينتظرون كعادتهم من سيكون منهم الفريسة التالية ، ليبدأوا صياحهم وحماستهم في غير ما يجدى . كل ذلك وهم لا يفكرون مطلقاً في البحث عن سبب خذلانهم ، وهو تفرق كلمتهم واختلافهم ، إلى جانب فتور همهم وديب الفساد إلى أخلاقهم .

ب — اختلال المعايير الأخلاقية :

وسدر الملوك المتقاطعون في غيهم ، واستبدوا بأمور رعائهم ، فزاد البلاء حدة ، وكاد الإصلاح يصبح أمراً مستحيلاً . على أنه ليس للرعايا أن يسبوا الدهر وصروفه ، أو يندبوا حظهم العاثر الذي رماهم بملوك يفرقون بينهم ، وليس لهم أن يبرئوا أنفسهم من الإثم . فإن انحطاطهم لم يأت عفواً ، وإنما جاءهم بسبب خضوعهم وقبولهم للذل . ذلك أن الملوك لا تستبد برعية إلا إذا آنست فيها غفلة وخورا ، وإلا إذا لمست أن فيها جماعة من المنافقين المرائين الذين يبيعون إخوانهم بثمان بخس ، فيتقربون إلى ذوى الأمر والسلطان يمجدون ظلمهم فيسمونه حزماً ، ويبررون طغيانهم فيصفونه بأنه حكمة ومعرفة بما يجب أن تساس به الرعية .

لقد قضى الإسلام على مظاهر ا رثنية وحرر النفوس من الخوف ، وأمر ألا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يتذلل إلا له وحده ، ولا يطيع إلا من أطاعه ؛ كما أوجب عليه أن يعصى من عصاه ، وأن يكون عزيزاً لا يعرف في الحق لومة لائم ، وأوجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كذلك أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعصيان . لكنهم آثروا أن يعكسوا هذه القيم الأخلاقية الكبرى التي قل أن حددها دين آخر بمثل الوضوح الذي حددها به دين الإسلام . فعبد المسلمون ملوكهم أو كادوا ، وعادوا إلى ما كان عليه أسلافهم في الشرق من الإقرار والتسليم بحكم الملوك المستبدين ، فتقربوا أذلاء منافقين إلى أمرائهم ، يمجدونهم ويؤلّهونهم ، ويخلعون عليهم أسماء الخالق ، وينعتونهم بما ليس فيهم من صفات الخير ، فيصفونهم بالصالح وهم الفساق ، وبالعدل وهم الطغاة ، وبالعلم وهم الجهلة ، وبالحياء وهم الخفي .

وكيف لا تنفق سرق الرياء في قوم انعكست في نفوسهم معايير الخلق ، فأصبحت المخازي عندهم موضعاً للفخر ؟ « فصاروا يسمون التصاغر أدباً ، والتذلل لطفاً ، والتملق فصاحة واللكنة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعاً ، والرضا بالظلم طاعة ، كما يسمون دعوى الاستحقاق غروراً ، والخروج عن الشأن الذاتي فضولاً ، وبعد النظر إلى الغد أملاً طويلاً ، والإقدام تهوراً ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول قحّة ، وحب الوطن جنوناً . »^(١) وما زلنا نرى آثار هذه العقلية حتى في زماننا ، على الرغم من تقدم المسلمين وإقبالهم على العلم والأخذ بأسباب الحضارة . فإن الناس ما برحوا يبدون إعجابهم بالرجل الشرير المخاتل ، ويمجدون له من الأوصاف

(١) عبد الرحمن السكواكي : أم القرى ص ١٣٤

التي تدل على تقديرهم له ورغبتهم في السمو إلى مرتبته - نقول يجدون له من هذه الأوصاف شيئاً كثيراً يدعو إلى خجل أقل الناس حياءً وتواضعاً . أما الرجل الذي لا يعرف الشر ، أو إذا عرفه صدفت نفسه عنه ، فليس بالرجل الجدير بالإعجاب ، وهو الرجل الذي لا يجدون له من وصف آخر سوى الطيبة ؛ لكنهم لا يريدون بهذه الكلمة معناها ، وما أجله من معنى ، وإنما يريدون بها الغفلة أو البله .

لذا كان من الطبيعي أن تصبح لهذه البيئة الاجتماعية الشاذة قوائنها الخاصة ، التي تختلف عن قوائن المجتمعات السليمة . فالأمانة والشرف والنزاهة والإخلاص والعدالة والطيبة وغير ذلك من الصفات الضرورية لنجاح أى امرئ في المجتمع العادى تنقلب وبالأعلى صاحبها في المجتمع الذي تنعكس فيه المعايير الأخلاقية ؛ لأنه مضطر إلى التكيف بقواعد شاذة تتناسب مع طبيعة البيئة التي يحيا فيها . فالأمين الشريف لا بد من أن يكتب له الفناء في مثل هذه البيئة غير الطبيعية ؛ لأنه يعجز عن التكيف بها ، وعن تحديد سلوكه وتفكيره وشعوره طبقاً لما تقضى به قوائنها . وإذن فليس أقرانه مخطئين كل الخطأ عند ما يصفونه بالغباء أو الغفلة أو السذاجة ؛ لأن تعريف الذكاء هو أن يكون المرء قادراً على التكيف بالوسط الذي يعيش فيه . وبمقدار مهارته في التكيف به ترتفع مرتبته في الذكاء . فالماهر إذن هو الذي يستطيع تطبيق هذه المعايير الأخلاقية المعكوسة تطبيقاً حريفاً ، وبدقة تشعر أنه يطبقها بصفة تلقائية لا تكلف فيها ؛ إذ التكلف في ذلك قد يثير الريبة في أمره ، فيجر عليه ذلك من النوائب ما لا قبل له به .

وهذا هو السبب في أن من يجيد النفاق والمخاتلة والخداع والنيمة

وسائر الرذائل يصبح موضع إعجاب وتقدير لدى الآخرين من أمثاله . فهم
يقدرّون لديه هذه المقدرة الفائقة في ارتكاب تلك الأفعال بمثل هذا اليسر ،
كما لو كانت تصدر عن طبعه وجبلته ، دون حاجة إلى مرانة أو تدريب .
أما الذي لا يجيد الملق ، أو لا يرغب فيه ، أو تُكب بعزة النفس ورقة
الإحساس ، أو أصيب بالميل إلى الخير ، أو ابتلى بالجرأة في الحق
أو النفور من قبول الضيم فهو الخاسر الخليق باللوم ؛ بل بالعقاب .
وهو الذي ينبغي له أن يخرج عن طبعه وخليقته أو يهلك ؛ لأنه عاجز
عن التكيف بالبيئة ، وهذه لا ترحم الضعيف ، ولا تسمح إلا ببقاء الأصحاء .
ولذلك حق لمثل هذا العاجز أن يكون موضعاً للسخرية والإشفاق ؛ لأنه يلقى
بنفسه إلى التهاكة برفضه الخضوع لقوانين مجتمعه الصارمة . لقد كان خليقاً
به أن يظهر الذل والضعفة ، بدلاً من أن يكون عزيزاً كريماً ؛ وأن يقابل القمر
والضعف باللين والخضوع ، بدلاً من أن يكون شديداً عنيداً في الصراع
من أجل الحق ؛ وأن يمدح طغيان المستبدين وعنفهم وينسب إليهم كل فضل ،
بدلاً من أن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويكشف لهم عن أخطائهم
بالنصح والإرشاد . لقد كان ينبغي له أيضاً أن يكون منافقاً ، وأن يكون ذليلاً
لا يطالب بحق ، ولا يظهر علماً أو شرفاً . لكنه أبى أن يفعل . وكفى بذلك
دليلاً على غفلته وعدم صلاحيته للحياة في مجتمعه . ومن هنا كان التسابق بين
الأفراد : كل يريد أن يظهر مهارته ؛ ومن هنا تنبع تلك اللذة التي يشعر
بها كل فرد منهم إذا انتهى إلى ما يريد بالخدعة والمكر والاحتيال وإلحاق
الضرر بالآخرين . وهذا ما يفسر لنا أحياناً ؛ بل في كثير من الأحيان ،
أن هناك قوماً من الأشرار يزهون بشؤونهم ، وهم آمنون من النقد والفضيحة ؛

لأنهم واثقون بأن الحق - وهم كثيرون - سيعجبون بهم إعجابهم
بالأبطال المغاوير .

وعندئذ ليس لك أن تتوقع خيراً من نصيح الناصحين أو إرشاد المرشدين
في مثل هذه البيئة التي تمجد الرذيلة بالفعل ؛ بل كثيراً ما يكون هؤلاء الناصحون
والمرشدون مرأئين ، يقولون بأفواههم ما تكذبه أفعالهم ، أى أنهم
لا يختلفون في شيء عن الجمهور الذي يتجهون إليه . ولذا يذهب النصيح
والوعظ مع الريح ؛ لأنه يجري على اللسان ولا ينبع من القلب . على أن
المستمعين إليهم لا يحملون كلامهم محمل الجد . حقاً إنهم يستمعون إليهم كل
يوم يحدثونهم عن الأمانة والشرف والصدق ، وكل ما يتصوره المرء من الفضائل
وجميل الخصال ؛ لكنهم يرونهم أيضاً في المناسبات الدنيوية الكبرى يسطرون
المقالات التي تنضح نفاقاً وكذباً وضعة يتقربون بها إلى الحكام المستبدين الطغاة ،
وهم أحق الناس بنصحهم وإرشادهم لو كان حقاً ما يفعلون . كذلك يراهم
الجمهور حلفاء وأولياء كل حاكم . فإذا اتفق الأمر ما أن دالت دولته لزموا
ججورهم إشفاقاً على أنفسهم ، وحتى يتبينوا إذا ما كان الحاكم الموصل قد ولى
لغير رجعة ، أم أن هناك أملاً في أن يسترد سلطته . فإذا جرى القدر بغير
ما يشتهون ، ورأوا أن الأمر قد استقر لمن جاء بعده انسابوا من مخابثهم يسعون
إلى الحاكم الجديد ، ويتقربون إليه بطريقة ممجوجة مرذولة ، وهى أن يشيعوا
الراحل بكل ما وعته ذاكرتهم من عبارات اللعن والسباب ، ويستقبلوا القادم
بكل ما كانوا يدبجونه من قصائد المدح والإطراء لسلفه .

هذا هو المجتمع الإسلامى الذى عاش فيه أمثال جمال الدين والكواكب
وغيرهما ، والذى أدرك فيه المصلحون أن لا أمل في نهضته طالما اختلت فيه

معايير الأخلاق، ففرقت بين أحاده، ومهدت بذلك لانهلال الأمة وغلبة الأجنبي عليها . وقد وصف الأفغانى هذا المجتمع أدق وصف مبینا سبب سقوطه تحت ضربات العدو ، فقال على لسان تلميذه : « وإن شئت فتخيل وقحين بذئین سفیهین جبانیین بخیلین ، « كل يمنع الآخر حقه » ، شرهین حاقدين حاسدين متكبرین ، « كل لا يستحسن إلا فعل نفسه » ، لجوجین خائنین غادرین كاذبین منافقین ، هل يمكن أن يجمعهما مقصد ، أو توحد بينهما غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بالتباز كل من صاحبه ، وإن لم تكن داعية ؟ ... هذه الرذائل إذا فشت في أمة . فنقضت بناءها ونشرت أعضائها ... واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعی أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها ، لتأخذها بالقهر وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر . فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف . فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة . » (١)

فإذا غلبهم الأجانب على أمرهم جميعا لم ينقطعوا عما هم فيه من فرقة وتخاذل وصراع ؛ بل يتسع لديهم مجال الاحتيال والإيقاع بالآخرین ؛ فيتقرب جماعة منهم إلى المستعمر ، يشرون بأخوانهم ويخونون وطنهم بل دينهم أيضا . أما الآخرون فتستحفل رذائلهم ، ويزيد ضعفهم ، ويشدد خذلان الله لهم ، فيحطون من قدر أنفسهم في كل شيء ، ويرمون بالعجز عن القيام بأي عمل من الأعمال ، وينظرون إلى غاصبي أرزاقهم من الأجانب نظرة الإعجاب ، ويقلدونهم ، فلا يحسنون ذلك أيضا ؛ لأنهم لا يعنون إلا بالمظهر لتفاهة تفكيرهم ، ولا يقع اختيارهم إلا على أعلى أحوال مظاهر

الحضارة الأوروبية ؛ لأنها تتفق مع اختلال معايير الخير في نفوسهم . ثم يظنون أنهم سوف يصلون إلى ما وصل إليه الأجانب إذا حاكوهم في زيهم وأساليب حياتهم العادية من مأكل ومشرب وهو . فهم يأخذون عنهم ما يتوهمون أنه دليل على التقدم . وقد لا يعدم الأجانب أن يموهوا عليهم ، فيتظاهرون أمامهم بكرهية التمسك بالدين والغلو في الاعتزاز به . فيغلو هؤلاء من جانبهم في تطبيق هذا المبدأ ، ويتحاشون كل ما قد يشعر أنهم يعتزون بدينهم ، وإي كانوا على حق . ولوفطنوا لعلوا أن المستعمرين أكثر تعصبا منهم لدينهم ، وأنهم أشد حرصا على نشره بينهم بكل وسيلة ، وأهمها أن يقوضوا عقائد المغلوبين على أمرهم ، حتى يأمنوا تمردهم .

كذلك رسم الأفغانى صورة صادقة تكشف عن طباع هؤلاء المغرورين بالأجانب ، والمعترفين لأنفسهم بالضعفة والعجز ، فهم في رأيه قوم أشداء فيما بينهم ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وهم ذوو بأس شديد بعضهم على بعض ؛ بينما يرمون على أقدام الأجانب ذلا وصغارا : « يفتخرون بالانتماء إليهم ، ويمهدون السبيل للغالبين إلى النكاية بهم ، ويمكنون محالب المقاتلين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا . وإذا نطق الأجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ، ونفائس الحكم . وإذا غاص أحدهم بحر الوجود ، واستخرج لهم درر الحقائق ، وكشف لهم دقائق الأسرار ، عدوه من سقط المتاع ، وقالوا بلسان جاهل ومقاهم : ليس في الإمكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد بيننا خبير . ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب . . . يرتابون في نصيح الناصحين ، وإن قامت على صدقهم أقطع البراهين . يسخرون بالواعظين ،

وإن كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين ؛ يبذلون جهدهم لحية من يسعى لإعلاء شأنهم وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سبيل ... تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لأعضائه حركة ... فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للضرر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب أول ما يبدأ يعض صاحبه قبل الأجنبي .

حقاً قد اختلفت حال المسلمين قليلاً عن هذه الحال التي شهدناها جيل مضى ، وأصبح الأجانب يحترمون المسلمين بعد أن احترم هؤلاء أنفسهم ، فأفسحوا للناهين منهم المراتب والمناصب التي كانت وقفاً على الأجانب من قبل . ولكن هذا لا يحول دون أن يكون الشوط أمامنا بعيداً . فإن الشرق ما زال يشعر بنوع من الزرارة بنفسه والإعجاب بالأجنبي في كل أموره . ويرجع هذا الشعور إلى ظاهرة واقعية ، وهي أننا ما زلنا نحيا في الأجانب في توافه الأمور ، ولا تنافسهم في جدهم وأخلاقهم التي كانت سبباً في تقدمهم . وربما أسرع المسلمون في خطاهم نحو العزة عندما يتقدم التعليم في بلادهم ، وعندما يتجهون إلى الناحية العملية التي تكتسب القوة والكرامة عن طريقها .

هـ — هل الإسلام سبب في انحطاط المسلمين ؟

١ — الحركة العقلية في بدء الإسلام :

يزعم كثير من الأوروبيين أن تأخر المسلمين إنما يرجع إلى دينهم ، في الوقت الذي يرى فيه علماء المسلمين أن النصرانية ، وإن امتزجت بأفكار

وثنية قديمة أهمها عقيدة التثليث، فهي خير من الوثنية المحضة، ولكنها ليست أصلح للحضارة الإنسانية لأنها تقوم على أساس الزهد والخضوع لذوى السلطان؛ في حين يتم العمران بالسيادة والثروة، والعمل من أجل الحياة الدنيا. من هذا يتبين لنا موقف التسامح الذى يقفه المسلمون من المسيحية، ومقدار ما يحبك في صدور بعض الغلاة من المسيحيين من كراهية للإسلام إلى حد أنهم يفضلون أن يبقى الوثنيون على وثنياتهم، بدلا من أن يعتنقوا ديننا يقول بالتوحيد المحض. على أنه ليس من هدفنا أن نثير دفائن الصدور، وكوامن الضغينة. لذلك اكتفينا بأن قلنا إن هذا رأى هو رأى بعض الغلاة من أهل الصليب؛ فإن المتدين منهم حقيقة أكثر تسامحا، وأميل إلى الوفاق من هؤلاء الذين يخلطون الدين بسياسة الاستعمار، ويريدون القضاء على كل مقاومة لدى الشعوب المغلوبة على أمرها بالطعن في عقائدها.

وقد رأينا كيف بنى هؤلاء الزاعمون رأيهم على ما لمسوه من فكرة المسلمين عن القضاء والقدر، وكيف أن هذه الفكرة ليست من الإسلام الحقيقى فى شيء؛ لأن هذا الدين قد شوّبه أهله على مر العصور، بانتقالهم من عهد الحماس الدينى والتفانى فى إعلاء شأن العقيدة إلى الدعة والترف والشقاق فيما بينهم؛ كل يتخذ النصوص الدينية ذريعة لتبرير آرائه، سواء كان ذلك فى السياسة أم فى أمور الحياة العادية. لكن الإسلام فى عهده الأول — وهو الإسلام الصحيح — كان عقيدة واضحة صريحة لا تعقيد فيها، ولا تميل إلى اتخاذ الأساطير والطقوس الغريبة سبيلا إلى السيطرة على

العقول ؛ بل كانت تهدف إلى تحرير الإنسان من عبوديته ، وتدعوه إلى النظر في هذا الكون واستخدام ما سخر الله له من كائناته ، والتمتع بالحياة الطيبة في الحدود أو اسعة التي رسمها الدين ، والتقرب إلى الله بالإيمان به وحده وبرسوله الذي جاء مصداقا للرسالات السابقة ، وأداء بعض الفرائض غير المعقدة من صلاة وصوم وزكاة وحج .

وكان الطابع العقلي للإسلام أكبر حافز إلى إيمان الناس به وحرصهم عليه ، والرغبة في تحرير الشعوب الأخرى من أوهامها وأساطيرها وعبوديتها . ويفسر لنا هذا الأمر كيف انتشر هذا الدين في حقبة قصيرة من الزمن ، فاعتنقه أكثر من مائة مليون نفس في أقل من مائة سنة . ذلك أنه حليف العقل والطبع ، لا يحارب الفكر الحر ولا يحقر من شأنه ؛ بل يبحث على استخدامه في قبول العقيدة ، وفي تحصيل العلم .

فلما امتدت فتوح العرب شرقا وغربا كان من الطبيعي أن يشهد العالم بعث الفلاسفات القديمة ، وبخاصة الفلسفة اليونانية التي كادت تنطمس معالمها بعد أن زالت دولة الأغريق . فأقبل العرب ورعاياهم من الشعوب الأخرى يعملون بجد للنهوض بالعلوم والفنون . واستعانوا في هذا الأمر ببعض العلماء من النصارى واليهود لتحقيق تلك النهضة العقلية الكبرى . ولم يكن اختلاف العقيدة حائلا دون المشاركة والتعاون ؛ بل حظى كثير من أطباء النصارى وغيرهم بمراكز كبرى في حاشية الخلفاء والملوك .

أما في الناحية الدينية فكانت طائفة المعتزلة أقرب الفرق إلى روح

الدين ؛ لأنها أدركت حقيقة الإسلام ، فتمسكت بفرائضه وعقائده ، ووقفت بقدر ما استطاعت بين هذه العقائد وبين العقل الذى جعلته مقياساً لكل شيء .
قد يقال : لكن هذا المسلك يوشك أن يوهن الدين ، وأن يجتث أصول العقيدة فى النفوس ؛ فإن للشرع حقيقة ، وللعقل حقيقة ، وقد تختلف الحقيقةتان ؛ فإذا جعلنا العقل مقياساً لكل شيء كان معنى ذلك أننا نضحى بالدين من أجل العقل أو العلم . وليست هذه الحجة حديثة العهد فقد وجدناها لدى أصحاب الديانات الأخرى ، ممن يقولون بوجود حقيقتين ، أو بمن يسلمون صراحة بأن الدين يحتوى على عقائد تناقض العقل ؛ ومع ذلك فمن الواجب فى رأيهم أن يضحى الإنسان بعقله من أجل عقيدته . غير أن الإسلام لا يخشى العقل ؛ فإن من شروط تكليف الناس بالإيمان به أن يكونوا عقلاء . وليس من حسن السياسة فى شيء أن ينصب دين من الأديان نفسه لنصرة العقل ، ثم يحاول الحجر عليه وتقييده بالأغلال ، أو التضحية به .

لكن جمهرة المسلمين أبت أن تستمع إلى دعاة العقل ، ورأت أن تنساق وراء بعض الفقهاء الذين قاروا بضرورة الاكتفاء بالسنة والروايات التى تناقلها الخلف عن السلف ، وبعدم الخوض فى تأويل النصوص التى تبدو فى مظهرها على غير وفاق مع العقل ، مع أننا نعلم مدى الدس فى الأحاديث ، ومقدار التشويه الذى لحق العقائد بدخول كثير من أساطير الأمم الأخرى .
إذ ليس لنا أن ننسى أن كثيراً من عامة المسلمين ، فى عصر الخلاف الدينى والسياسى ، لم يكونوا عرباً خالصاً ؛ بل كانوا من أبناء أمم أخرى نصرانية أو مجوسية أو يهودية ، دخلت فى الدين الجديد ، لكنها ما زالت مشربة

بروح دياناتها القديمة، وحرصة على تقليد الآباء والأجداد، وعلى جعل الرواية والنقل المنبع الأول لكل شيء في أمور الدين. وهذا هو السبب في أن كتب التفسير تفيض بالإسرائيليات، وبقصص وأساطير الديانات الأخرى.

فكان من الطبيعي، بعد هذا الخلط والتلفيق بين الإسلام والعقائد الأخرى، أن يتشكل هذا الدين بصورة جديدة لو اطلع عليها المسلمون الأول لما عرفوا فيها دينهم، وهى تلك الصورة التى يظن الأوروبيون أنها السبب فى تأخر المسلمين وانحطاطهم. وبهذا المعنى وحده يقوم زعمهم على أساس من الواقع. أما إذا أرادوا بذلك الإسلام الحقيقى المجرى عن أوهام وخرافات الشعوب التى اعتنقته فإن الواقع يكذبهم. فإن التاريخ لم يشهد، كما قلنا، ديناً آخر جذب القلوب بمثل ما فعل الإسلام، وما شهد أمبراطورية كبرى تنبعث من جوف الصحراء، دون أن تكون لها مقدمات تؤذن بظهورها واتساع رقعتها فى هذا الزمن القليل مثل الأمبراطورية الإسلامية. ولو أن المسلمين حرصوا من أول أمرهم على حماية دينهم من آراء الأمم التى دخلت فى حوزتهم لما نشأ هذا الخلاف الشديد بينهم فى أمور العقائد، ولما اشتد الصراع الدينى بين مفكريهم، ولما تعددت الفرق التى جاوزت السبعين عداً. لكن حدث ما كان ينبغى ألا يحدث، فغلب أهل التقليد، وبدأت الآراء السياسية تتخذ مسلكاً آخر؛ فبدلاً من حكم الشورى الذى سار عليه الخلفاء الراشدون شهدنا ظهور النظام الملكى الاستبدادى الذى رسخت أقدامه فى الشرق وفى الغرب، وفى الشرق على وجه الخصوص حيث ألف الناس تأليه ملوكهم فى قديم الزمن؛ بل فى حديثه أيضاً. ومتى غلب الاستبداد على أمة قضى على أهم مميزاتها، وعلى حرية التفكير قبل كل شيء.

ومن ثم نفهم لماذا حورب المعتزلة ، ولماذا تنسكركم خلفاء العباسيين ، بعد أن اخذوا بيدهم في عصر المأمون والمعتصم . ذلك أن المستبد لا يخشى شيئاً أكثر من العقل الحر ، الذي يأبى إلا أن يرقظ الشعوب التي غلبها الاستبداد على أمرها . ثم ما برح ملوك المسلمين وعامتهم يحاربون التفكير العقلي في كل مكان ، حتى صرعوه عند ما قضوا على فلسفة ابن رشد في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي . فكان مصرعها إيذاناً بالانتصار النهائي لأهل الجحود والتقليد . وهكذا بدأ النوم العميق الذي استغرقت فيه البلاد الإسلامية طيلة سبعة قرون ، والذي ما زال باسطاً ذراعيه على كثير من هذه البلاد حتى يومنا هذا ، على الرغم من أن أفكار المعتزلة وآراءهم أخذت تُبعث من جديد ، وعلى الرغم من أن العقل قد أطلق من إسهاره بفضل كثير من المصلحين .

فهذا الإسلام الذي يزعم فريق من الأوروبيين أنه كان سبباً في تدهور المسلمين ليس بالإسلام الصحيح ، وإنما كان مزيجاً من عقيدة التوحيد وأساطير الأمم الأخرى وأوهامها . وهذا المزيج الغريب الذي يظنه بعض الناس إسلاماً هو الذي انحدر بالمسلمين إلى نوع من الشرك الصريح أو الخفي الذي كان التصوف الخادع أكبر دعاته وحلفائه . ولو استطاع المصلحون أن يقنعوا الناس بضرورة تطهير عقائدهم مما شابها ، ولو أفلح هؤلاء في الرجوع إلى منابع الأولى التي تحجبها عنهم سحب من الأوهام والخرافات والبدع ، لعلوا أن دينهم لا يدعو إلى التواكل أو التقشف الكاذب ، وإنما هو دين وسط بين الأديان جميعها ، لأنه يدعو إلى ما فيه صلاح الروح والبدن ، وينادى بالجمع بين العمل للدنيا والآخرة .

ب — انتشار الإسلام على الرغم من تدهور المسلمين :

على أن ما دخل على هذا الدين من مسخ وتشويه ، لم يكن ليقاس بما طرأ على الأديان الأخرى ، لذلك لم يستطع القضاء عليه تماماً . فإن الإسلام الصحيح استمر حياً في قليل من النفوس . وهؤلاء القلة هم الذين يكشفون عن حقيقته بين حين وحين ، فيشق طريقه حتى في أشد عصوره ظلاماً وضعفاً . ذلك أنه دين يتجه إلى العقل . ويوافق الميول الطبيعية في الإنسان . وهذا أمر لا ينكره المبشرون أنفسهم ؛ فكثيراً ما وجدوه في طريقهم ، وكثيراً ما يلحقهم ثم يسبقهم في حملاتهم التبشيرية . فهم إذن أكثر الناس علماً بقوة ، وربما كانوا أكثر يقيناً بهذه القوة من بعض المسلمين ؛ فهم يعترفون منذ أكثر من مائتي سنة أن الإسلام ما تطرق إلى بلد من بلاد الوثنية إلا أسرع أهله إلى اعتناقه ، لأنه عقيدة بسيطة واضحة لا تقهرهم ولا تتطلب إليهم أن يتقبلوا أسراراً أو طقوساً يحار لها العقل أو يعجز عن فهمها ، ولأنه يحدّثهم عن إله واحد ، يؤمن به هؤلاء الوثنيون في أعماق نفوسهم ، ويطلقون عليه اسم الإله الأكبر ، ويتقربون إليه عن طريق أصنامهم أو آلهتهم المحلية ؛ وهم يقبلون عليه في يسر لأنه يخاطبهم كبشر ، ولأنهم يرون في مبادئه الأخلاقية أسمى المبادئ التي يمكن أن يدعو إليها دين من الأديان . ومن المسلم به أيضاً لديهم أن الإسلام يخطو خطوات هائلة في قلب القارة السوداء على الرغم من خضوعها لدول مسيحية ، تعمل ما في وسعها لمساعدة المبشرين على نشر العقيدة المسيحية بكل الوسائل ، ولا تضن من أجل ذلك ببذل الأموال الطائلة التي لا يفكر المسلمون عادة في جمع عشر معشارها للدعوة إلى دينهم . غير أن الإسلام الذي لا ينصره أحد من أهله ؛ بل يحاربه

المستعمرون ، قدر طاقتهم ، بمختلف الوسائل ، يتخطى الحواجز وينسف الحدود ولا تقف في طريقه سلطة دنيوية أو كهنوتية . وقد اعترف أحد المبشرين أن الإسلام لا ينظر إلى النصرانية التي تنازعه السيطرة في أفريقيا نظرة الكراهية أو الحقد أو العداء ؛ لذلك فهو جدير بالسبق والفوز ، وبأن يتسالم قوياً عارماً في جميع أرجاء أفريقية .

هذا هو ما يعترف به أحد المبشرين في أوائل هذا القرن ، وهالك ما تعترف به صحيفة للمبشرين في صيف هذا العام (١) : « إن التقدم الكاثوليكي في أفريقية يجد نفسه متخلفاً وراء خطوات العملاق التي يتقدم بها الإسلام ، الذي يحقق أيضاً تقدماً مشيراً في أندونيسيا والهند والباكستان ، » ثم تعزى هذه الصحيفة نفسها عن هذا التقدم المذهل ، الذي يتحقق دون حاجة إلى طلب التبرعات من المؤمنين أو الإلحاح في طلبها ، فنقول : « ومن يدري فلربما وقفت الشيوعية في طريق انتشار الإسلام . فإن هذا المذهب الإلحادي يعمل عمله في بلاد الشرق الأقصى ، وهو يسيطر على ثمانمائة مليون نفس ، أي ضعف العالم الكاثوليكي على وجه التقريب . » ثم تمنى الصحيفة نفسها فتقول : « إن العالم الإسلامي نفسه ، الذي ننظر إليه كحصن منيع لا تستطيع الكاثوليكية أن تتطرق إليه ، يخضع للدعاية الشيوعية التي لم تعتقد أبداً في مناعة الإسلام . » وتكشف لنا هذه الجملة الأخيرة عن عقلية المبشرين الذين يفضلون أن تكتسح الشيوعية البلاد الإسلامية على أن يعتنق الوثنيون الإسلام الذي يدعو إلى التوحيد ؛ كما تم لنا عن الأمل الذي يداعبهم في أن تقف الشيوعية في طريق انتشار الإسلام في الشرق الأقصى ، بعد أن عجزوا هم عن وقف زحفه في أفريقية .

يونيو سنة ١٩٥٥ ، العدد الثالث والعشرين : La Presse Missionnaire (١)

غير أننا نقرأ في الصحيفة نفسها أن بعض المسيحيين بدأ يسأم الصراع من أجل نشر المسيحية خارج أوروبا ، في الوقت الذي يغزو فيه الإسلام قلب أفريقيا وغيرها من البلاد ، على الرغم من آثار الضعف التي ما برحت ماثلة في أهله ، وعلى الرغم من أنه يقال إنه كان سبباً في انحطاطهم !! فمن هؤلاء الذين أخذوا يضيّقون بدعاية المبشرين وحرصهم على جمع التبرعات نذكر قسيساً فرنسياً في إحدى ضواحي باريس . لقد كتب هذا القسيس إلى صحيفة المبشرين يحتج على الطريقة التي تتبع في جمع الأموال من المؤمنين منهم للدعاية المسيحية في الخارج . ذلك لأن هؤلاء الدعاة وجهوا عنايتهم إلى البلاد الأخرى في مختلف أنحاء العالم ، لكنهم ينسون أن بلادهم في حاجة إلى التبشير لكثرة الخارجين على المسيحية من المسيحيين أنفسهم . لقد كتب هذا المحتج : « إن نشرتم للدعاية تشير قلبي أكثر من أن تغمرني بالحبور . . . اتركوا لعدة لحظات شواغلكم المالية التي أوحث إليكم بكتابة هذا التهديد المطمئن لضمائر الكاثوليكيين الأخيار عندنا . . . حقاً إنكم تتقبلون أموال المسيحيين الذين يريدون إنقاذ العالم كله ما عدا وطنهم ، الذي يفقدونه الآن بسبب بورجوازياتهم . إن هذا المال له رائحة غريبة بل رائحة كريهة . »

فكيف يقولون من جانب إن هذا الإسلام كان سبباً في انحطاط المسلمين ، ثم يعترفون من جانب آخر أنه ما زال ينتشر رغم كل هذه العقبات ؟ وما الذي يدعو كثيراً من الأمم الوثنية إلى اعتناق هذا الدين الذي يقال لها عنه إنه سبب في تدهور من يؤمن به ؟ وهل بلغت بهم فدامة العقل وفساد الفطرة إلى حد الإعراض عن دين الأقوياء لقبول دين الضعفاء المتأخرين ؟ أليس أولى بنا إن نقول إن هؤلاء الراغبين في الإسلام ، لا يعرفون الحق

بالرجال ؛ بل يعرفون الرجال بالحق ، أى أنهم يؤمنون بدين من الأديان لأنه يوافق العقل والطبيعة البشرية ، ولا يقبلون على دين آخر مجرد أن أهله أكثر مالا وأعز نفراً ؟ فهم يؤمنون بالإسلام دون أن يكونوا فى حاجة إلى رؤية أحوال أهله ؛ ولو أنهم رأوا نخبة ممتازة منهم لكانوا أكثر إقبالا على الإيمان به .

لقد أخبرنى صديقى الدكتور محمد الفحام أنه لما ذهب إلى نيجيريا منذ عدة سنوات استقبله المسلمون والوثنيون فيها ؛ بل المسيحيون من أهل البلاد ، بخير ما يستقبل به زائر . وكان فرح المسلمين به عظيماً ؛ إذ طالما سمعوا من إخوانهم المسيحيين أنهم يؤمنون بدين لا يعلمون شيئاً عن أهله ولا زارهم أحد من علمائه ، ولم تكن الهيئات الإسلامية قط بأمرهم . وقال بعضهم لو أن الأقطار الإسلامية عنيت بالدعاية لدينها لما دخل إلى المسيحية — أو لما بقي على الوثنية — إلا عدد ضئيل . فهل يقال بعد ذلك إن الإسلام سبب فى تأخر المسلمين ؟ أو ليس الحق أن يقال إن تأخرهم لا يرجع إلى دينهم بل إلى أسباب أخرى ، وإنهم لو كانوا أكثر قوة ؛ وأشد رغبة فى نشر عقيدتهم ، لكان دينهم أسرع خطأ من خطواته الحالية التى يصفها المبشرون مع ذلك بأنها خطوات العملاق ؟

ح — الإسلام والنصرانية :

على أن هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام كان سبباً فى تأخر المسلمين ينسون التاريخ وعظاته ، ويبنون حكمهم على بعض المظاهر العارضة التى لاتمس جوهر الإسلام ، والتى ترجع إلى أسباب أخرى سنفصلها فيما بعد تفصيلاً .

ولو نحن جاريناهم في استدلالهم الخاطيء، ونهجننا نهجهم في محاولة النيل من أحد الأديان السماوية، لانتهينا مثلهم إلى القول بأن النصرانية كانت وبالا على الحضارتين اليونانية والرومانية. فقد اندثرت معالم الحضارة الأولى منذ بدء التاريخ المسيحي، وساهم آباء الكنيسة الأول في القضاء عليها، فانطمست معالمها منذ ذلك الحين. ولولا أن العرب حملوا أمانة العقل والعلم كاملة، وزادوا عليها، لما أخذها عنهم الغرب، ابتداء من القرن التاسع الميلادي، ولما تحركت الهمم في أوروبا للاطلاع على فلسفة أرسطو ومنطقه، ولما قام نفر من أبنائها للبحث عن الأصول الأولى للحضارة اليونانية، ولما زها أهل أوروبا الآن بأنهم خلف اليونان وحملوا حضارتهم وفنهم وفلسفتهم أكثر من زهوهم بمسيحياتهم.

ونستطيع أيضاً أن نترك مجال الفروض إلى مجال الحقائق فنقرر في غير خيال ولا تجن أن الثقافة اليونانية لم تنتقل إلى أوروبا بمثل اليسر بل الحاس الذي لقيته عند المسلمين في عصر المأمون، وإنما وجدت في دخولها إلى بلاد المسيحية عناء ما بعده عناء؛ إذ حاربتها الكنيسة دون هوادة طيلة قرنين من الزمان، أى في أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وقضت بحرمان كثير من المشتغلين بالفلسفة، ووصمتهم بأنهم المارقون المملحدون. فلما رأت أن الفلسفة اليونانية الملونة بلون عربى إسلامى أعز من أن تقهر لم تجد بداً من اقتباس ما يلائمها منها، أى لتأكيد العقيدة وتثبيتها. وكان ذلك فى القرن الثالث عشر الذى نقل فيه مفكرو المسيحية، وعلى رأسهم ألبرت الأكبر وتوماس الأكويني، شيئاً كثيراً من آراء المسلمين والإغريق.^(١)

(١) أنظر كتابنا « الفيلسوف المقتدى عليه ابن رشد » .

وليس لأحد أن يسارع إلى القول بأن الدين المسيحي أصبح منذ ذلك الحين حليفاً العلم ؛ بل ظلاً عدوين لدودين ، وظل العلم مرادفاً للكفر والإلحاد حتى القرن السابع عشر . فلقد ارتضى آباء الكنيسة فلسفة أرسطو وأخذوا منها ما يحلو لهم ، ثم تحجر الفكر مرة أخرى ، وحارب العلم الحديث باسم الدين وباسم أرسطو . وكُم عذب العلماء وقتلوا وشرسوا في العصور الأخيرة ، قبل أن تعترف الكنيسة بالهزيمة ، وتتجه إلى التبشير والدعاية في الخارج بعد أن فقدت السيطرة على العقول في الداخل .

هذا ما كان من شأن فلسفة اليونان . أما ما حل بالأمبراطورية الرومانية بعد انتشار المسيحية فيها فأمر لا يجهله المسيحيون والمسلمون على حد سواء . ذلك أن سلطان روما أخذ يتقلص ، مع مرور الحقب ، حتى وصلت روما إلى أشد درجات الانحطاط ، مع أنها كانت مركز البابوية . ثم اجتمعت لها أسباب أخرى في القرن الماضي فاستردت بعض عزتها ومجدها ، فلعب الزهو والكبر برؤوس أبنائها ، وأرادوا إعادة مجد روما الوثنية . لكنهم فقدوا ما كانوا قد استولوا عليه من بعض بلاد أفريقيا .

فهل لنا أن نعتمد نحن أيضاً على هذه المظاهر الخادعة لنقول إن المسيحية كانت سبباً في انحطاط الرومان والقضاء على حضارة اليونان ، وإن الوثنية كانت خيراً منها ؟ إن مثل هذا الحكم لا يصدر إلا من متعصب أو جاهل . فإننا نعلم أن العقيدة الدينية ، سواء أكانت سماوية أم غير سماوية ، ضرورة في بناء المجتمعات والحضارات ، وأن المجتمعات البدائية التي يتقدم فيها السحر والشعوذة ، على حساب العاطفة الدينية ، تجمد وتتحجر ، ثم تتدهور وتختفي دون رجعة ؛ في حين أن المجتمعات المتدينة التي ترتبط فيها الأخلاق بالدين

تسلك سبيل التطور، فتتقدم أو تتأخر لأسباب شتى، ولكنها لا تمر أبداً. (١) ذلك لأن الدين حاجز تتحطم عليه موجات الإلحاد التي نطغى بين آونة وأخرى، وبخاصة عند انتقال المجتمع من مرحلة إلى أخرى، ثم تعود فتتجسر، متى انتهت فترة الانتقال. فالدين، إسلامياً كان أم مسيحياً أم يهودياً أم بوذياً أم مجوسياً، أساس واقعي لكل حضارة، ولكل حياة اجتماعية؛ لأنه عماد الأخلاق التي لا حياة للأمم دونها. فإذا تدهورت العقائد الدينية في مجتمع ما، ولسبب ما، ظهرت طوائف الدهريين الذين يرون أن انهيار العقائد والأخلاق نذير أو بشير بفتح الباب على مصراعيه أمام الإباحية التي يندشونها ويغرون الناس بقبولها، زاعمين أنها نداء الطبيعة، وقانونها الأسبي.

ف هناك إذن أسباب أخرى لضعف اليونان، وأهمها انتشار المذاهب الإلحادية فيها، كذهب الأبيقوريين والكلبيين. أما سقوط روما فيرجع إلى أن المسيحية جاءت متأخرة، بعد أن هرمت الأمبراطورية، وأتى عليها الترف والمجون والإباحية، وبدأت تغير عليها قبائل أوروبا المتبربرة. وكما أننا لا نرجع تدهور أوروبا بعد ظهور المسيح إلى أسباب دينية؛ كذلك سنظل منطقيين مع أنفسنا، فلا نقول إن تقدم هذه القارة في القرون الأخيرة يرجع إلى أن الدين المسيحي أفضل الأديان في النهوض بالأمم؛ فإن الأوروبيين أنفسهم يعترفون معنا أن الكنيسة لم تفقد مطلقاً من سلطانها وسيطرتها على النفوس مثل ما فقدت في هذه العصور الأخيرة. فللتقدم والانحطاط أسباب عديدة متشابكة. فكما يكون التقدم مثلاً نتيجة للتمسك

(١) راجع هذه الفكرة مفصلة في كتاب مبادئ علم الاجتماع الديني الذي نقلناه إلى العربية.

بالعقيدة الصحيحة ، يكون الانحطاط نتيجة لتشويه العقائد ومسخها . وكما يكون الاستبداد سبباً في موت الأمم أو انهيارها تكون العوامل الاقتصادية والسياسية سبباً في التخلص من عسف رجال الكهنوت الذى يقفون دائماً فى سبيل التطور ، ويدافعون دائماً عن حكم المستبدين ؛ لأن فى هذا الدفاع إبقاء على حياتهم . وربما يفسر لنا هذا كيف يضيق علماء الدين الرسميون برجال الإصلاح ، وكيف يحاربونهم باسم الدين ، حتى يطمئنونوا إلى سيطرتهم على نفوس العامة .

وربما عجب المرء كيف تبدلت حال المسلمين والمسيحيين ، وربما تسأل عن الأسباب التى أدت إلى تدهور الأولين وورقى الآخرين . لقد كان المسلمون فى أول عهدهم أقوىاء غزوا العالم ، وكان دينهم يحثهم على أن يكونوا أقوىاء أعزاء ، فلبوا دعوته ، وأقاموا حضارة زاهرة ؛ فى حين أن الدين المسيحى بدأ بدء الضعيف الذى يدعو إلى المسالمة والزهد من إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فهل معنى ذلك أن كلاً من الفريقين ترك عقائده منذ أجيال ، وهل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدرى ولا يدرى إلى الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين أو ألقى شئ منها فى أمانى معلمهم وناشرى شريعتهم عند ما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ ، وربما أمكن تفسير تقدم الأوروبيين فى العصور الأخيرة بأن الدين المسيحى انتشر فى الغرب لى أمم لها عاداتها وتقاليدها القديمة ، فلم يغير كثيراً من طباعها ، وعقائدها المتوارثة . فتسلل إليهم الدين خفية . ومعنى هذا أن دعوة الزهد والتقشف التى جاء بها الدين المسيحى ظلت تؤثر فى الأسماع والقلوب طالما تحكم رجال

الكهنوت في عقول أهل أوروبا طيلة العصور الوسطى، فلما تقلصت سلطتهم عادت الطبائع إلى حقيقتها .

والحق عندنا أن طبائع الأوروبيين بقيت على حالها تحت الطلاء المسيحي الذي سترها، والذي كانت كشافته تختلف رقة أو سُمكا تبعاً للأحوال والأعصار، حتى إذا حزب الأمر تشقق هذا الطلاء، وتكشف عن الحصل الحقيقية التي ظلمت راكدة في النفوس دون أن تندثر، وعندئذ تتجلى القسوة والعنف والرغبة الجامحة في الانتقام . وإن في عنف الحروب والثورات الأوروبية، وفي حنقهم الرهيب على الخارجين عليهم من الأمم المستعمرة دليلاً واضحاً على أن الطبائع القديمة لدى قبائل الجرمان والرومان لم تتبدل كثيراً، وأنها إن اختلفت زمنياً فإنها لا تخبو جذوتها ولا تخف حدتها ؛ بل تندلع جامحة عاصفة .

وقد جرى لي حديث مع فرنسي عاش في مصر أيام ثورتها الأخيرة، فأظهر لي عجبه من أن هذه الثورة قد نجحت فيما أرادت، دون أن تراق الدماء أنهاراً، كما جرت في فرنسا في أيام ثورتها الكبرى . ثم عاد يقول إن هذا التضاد لا يذهله ولا يفجأه، فقد أتاحت له المقارنة بين طبائع الشرقيين والأوروبيين؛ فلمس ما يتصف به الأولون من السباحة والسكرم والميل إلى العفو، وما يتجلى لدى الآخرين من شدة الطبائع والميل إلى الانتقام والغلو فيه . وضرب لذلك مثلاً بما حدث في فرنسا عندما حررها الحلفاء من قبضة ألمانيا، فقال : لقد انتهز كثير من الفرنسيين هذه الفرصة لكي يسوّوا أمورهم فيما بينهم، فسفكت دماء عشرات الألوف تحت ستار الانتقام منهم للتعاون مع العدو، ولكن كثيراً من هؤلاء كانوا أبرياء قتلوا لأسباب

أخرى . وظننت أن محدثي يغلو بعض الشيء . غير أن أحد القسس في الريف هناك أكد لي هذه الرواية ، وحدّد عدد الضحايا بما يربو على مائة ألف نسمة ، أى أكثر مما قتل في ميادين القتال بيد الأعداء . وما رواه لي أن القتلة كانوا يأمرّون ضحاياهم أن يحفروا قبورهم بأيديهم ، فإذا انتهوا من إعدادها رهوهم بالرصاص . وبديهي أن مثل هذا العدوان لا يتفق مع دينهم المسيحى الذى يوصيهم ، إذا ضرب أحدهم على خده الأيسر بأن يدير خده الأيمن ، والذى يحثهم على محبة أعدائهم . ولن نطنب في بيان القسوة الأصيلة في الطباع الغربية ، فإن حديث القنابل الذرية التى فتكت في لحظات قليلة بمئات الآلاف في اليابان منذ أكثر من عشر سنوات ما زال يدور على الألسنة .

هذا هو شأن الأوروبيين الذين لم تتشبع قلوبهم بمبادئ التسامح والسلام والمحبة التى نادى بها المسيحية . حقا استطاع هذا الدين في أول عهده أن يصقل النفوس ، وأن يذهب بعيداً في صقلها ، فغلب على أهله الزهد والتصوف وكرهية الحياة وزخرفها ، وساهم رجال الكهنوت في ترغيب الناس في هذا المسلك إلى حد كبير . فجمعت دول أوروبا عدة عصور ، ثم اجتمعت أسباب أخرى ، فغلب الطبع على التطبع ، « وعاد ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما » ، واتجهوا إلى الفنون الحربية فبلغوا فيها مبلغاً لا يجاريهم فيه أحد .

أما المسلمون فظلوا أقوياء ، حتى دب بينهم الصراع السياسى والدينى . وعندئذ ظهر فيهم أدعياء يتظاهرون بالورع ، فشوهوا الدين وحرفوه ، وأضافوا إليه كثيراً من العناصر الغربية ، وظنوا أنها من جوهر الدين ، ففسدت طبائعهم الأولى ، وكفت

أيديهم عن العمل . ثم قام الزنادقة يجتثون أصول العقيدة من النفوس ، ويدعون إلى الشيوعية في المال والنساء ، ولم يكن أذعياء رجال الدين أقل خطراً ، فقد وضعوا الأحاديث ونسبوها إلى الرسول ، واتخذوا التظاهر بالتقوى سبيلاً إلى تهوين الدين وجعله لعباً ولهواً ، ففترت الهمم وخارت العزائم ، وانحسرت موجة العلم ، وقصر العلماء في إرشاد العامة ، وأصبحت دراسة الدين محصورة في طائفة خاصة . فتشويه دينهم وجهلهم إياه هو السبب في تدهورهم ، بعد أن كانت عقائدهم السليمة هي التي خلقتهم خلقاً ، وأخرجتهم عما يشبه العدم ، وخلعت عليه القوة التي لم تخرجهم قط عن إنسانيتهم وتساحلهم وميلهم إلى العفو ، حتى قيل إن العالم لم يشهد حروباً أكثر إنسانية من حروب المسلمين .

و — مسئولية المسلمين :

فالمسلمون أولى الناس بأن ينسبوا انحطاطهم إلى أنفسهم ، وليس الذنب ذنب دينهم ؛ بل هم منبع هذا الشر العميم الذي حل بهم ، فأذهب نخوتهم وحميتهم ، وطبعهم بطابع الذل والصغار ، حتى أصبحوا هملاً لا راعي لهم ، تتخطفهم الدول الأجنبية .

حقاً إن بعض كتابهم يحاول أن يعزو تدهورهم إلى ضربات القدر ، فيقول إن الأيام دول ، وإن من سره زمن ساءته أزمان ، وإن الأمة الواحدة تتدهور وتنحدر ، وتتشلت عزائمها ، وتفسد أخلاقها ، ثم تسترد أنفاسها ، وتبدأ في التقدم مرة أخرى ، ويكتب لها من النصر ما أراد الله لها ، ثم يدب إليها الهرم والضعف فترتد خاسئة ، حتى يقيض لها من يأخذ بيدها .

وفي رأينا أن هذا الرأي لا يفسر شيئاً ، وإنما يحيل مشكلة انحطاط أمة من الأمم على القدرة الإلهية ، كأن الناس ليسوا مسؤولين عن أعمالهم ، وكأن الأسباب لا تؤدي إلى نتائجها ، وكأن القوم قد خلقوا ليساقوا رغماً عنهم إما إلى النصر والعزة ، وإما إلى الهزيمة والهوان !!

كذلك يرجع بعضهم انحطاط الأمة الإسلامية إلى أسباب سياسية وتاريخية كحروب الصليبيين ، وهجوم التتار ، مع أننا نرى في عصرنا الراهن ، كيف تندحر الأمم القوية في الحروب ، فيظن أنها ماتت إلى الأبد ، فلا تنقضي سنوات قليلة حتى نراها قد استعادت قوتها ، وبدأت الأمم التي ألحقت بها الهزيمة تخطب ودها . أما المسلمون فلم ينهضوا بعد هزيمة التتار لهم وإنما زادوا تدهوراً . فالحق أن منبع الداء أقرب من هذا كله ، أي أنه يكمن في النفوس . وليست العوامل السياسية والتاريخية إلا شروطاً مساعدة . أما العامل الأساسي فهو ضعف الأخلاق وانحلالها وفصلها عن العقيدة والفرائض الدينية ، حتى ليحسب الواحد من هؤلاء أنه يكفي أن يتقرب إلى الله بصيغ لا روح لها ، ثم هو في حل من أن يرتكب ما يشاء من الموبقات ، وأن يوقع الضرر بمن يشاء . وقد اهتدى جمال الدين ، في رسالته في الرد على الدهريين ، إلى مكن الداء ، وهو أن المسلمين مسئولون عما هم فيه من ضعف وهوان وما نزل بالمسلمين من هذه المذللات والإهانات ولا رزؤوا بالتخريب في بلادهم والفناء في أرواحهم إلا بعد أن كلت بصائرهم ونغلت نياتهم ، ومازج الدغل قلوبهم ، وخربت أماناتهم ، وفشا الغش والأدهان بينهم ، ودار كل منهم حول نفسه ، لا يعرف أمة ، ولا ينظر إلى ملة ، فأصبحوا بقناة خوارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز ولهذا ذهب المؤرخون إلى أن بداية

الانحطاط في سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) في صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة في نفوس أهل الدين الإسلامي .^(١) وكانت هذه الآراء والعقائد مقدمة لفساد الأخلاق ، فراجت سوق التفاف والملق ، واستحب المسلمون الخيانة والحقد والضغينة ، وعافوا الأمانة والمحبة والتأخي . ذلك أنهم ألفوا الخلاف ، ثم انصرفوا عن التفكير في حاضرهم ومستقبلهم ، لا يبحثون عما عساه أن يحقق لهم خيراً ، ولا يفكرون فيما قد يدفع عنهم ضرراً ؛ بل قنعوا ، لعجزهم وتخاذلهم ، بحياة خادمة راكدة ، تنحصر في طلب المأكل والمشرب ، ولو كان المأكل لا يقيم أوداً ، ولا المشرب يحلو طعاماً . ولا يدور بخلدكم أن المرء لا يجيا لياً كل ويشرب وينام . وإنما ليعمل ويجد وينافس الآخرين في الفضيلة والعلم والقوة . هذا إلى أنه قد يأخذهم الشوق إلى العمل ، وعندئذ بشس ما يعملون ؛ لأنهم يجدون في الكيد بعضهم لبعض أقصى لذة يشعر بها المرء . إنهم يريدون أن يشعروا الناس بوجودهم . لكنهم لا يدرون كيف يفرضون أنفسهم على الآخرين بخلقهم وعملهم . فلا بأس إذن أن يشعروهم بوجودهم عن طريق إلحاق الضرر بهم ؛ لأن سبيل الشر أسهل مورداً وأقرب منالاً ؛ وفيه يمتاز الآثمون ، ويسبق فيه من لا ضمير له . وقدماً قال أبو العلاء في معاصريه :

أما إذا دعا الداعي لمكرمة فهم قليل ولكن في الأذى حشد
فإذا هم عجزوا عن الخير والشر معاً لم يجدوا مفراً من أن يقرؤا في دورهم
أو يلزموا مجالسهم للمشاكسة والمهاترة أو الغيبة والنميمة . تلك هي الأخلاق
التي كانت منبع الضعف والتدهور ، ومن الأكيد أنها ليست بأخلاق إسلامية .

الفصل الثاني

أسباب التدهور

١ - فساد الملوك واستبدادهم

٢ - تنافس طلاب الملك وترفعهم :

لم تقم الدولة الإسلامية على العصبية ، كما هي الحال في دول العصور الغابرة ؛ بل إن صاحب الدعوة حارب من أهله وقبيلته ، ولم يؤمن بدعوته في مكة إلا عدد قليل من الضعفاء الذين أخفوا إيمانهم حتى أعزهم الله بإيمان عمر بن الخطاب . ثم لاحت بشائر النصر بدخول كثير من أهل المدينة في الإسلام ، طوعاً لا كرهاً . كذلك لم تكن دولة المسلمين دولة استبداد وعسف ؛ فإن محمداً لم يكن إلا رسولاً يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة ، ويجادل القوم بالتي هي أحسن . ومع مقام النبوة ومكانتها في القلوب لم يكن أصحاب الرسول نفرأ من العبيد المستضعفين المرائين ؛ بل كانوا أحراراً أقوياء أشداء في الحق لا يكتفون رئيسهم رأيهم وشوراهم ، وكان الرسول يستمع إليهم ، ويأخذ برأيهم في أمور دنياهم متى وجدها حقاً . وهكذا شهد العالم كيف حقق الإسلام أسنى نظم الحكم ، ونعنى به حكم الشورى ، ذلك الحكم الذي لم يتحقق في أمم العالم إلا في عصور متأخرة ، وبعد ثورات رهيبية مدمرة ، أريقَت فيها دماء الأبرياء وغير الأبرياء .

ولم يكن قيام هذا النظام الجديد ممكناً إلا بعد القضاء على روح العصبية

التي طالما فرقت بين القبائل ، وحالت دون قيام حكم سياسي مستقر .
وبالفعل حطم الإسلام هذه العصبية ، فأصبح الطريق ممهداً أمام نشأة
أمبراطورية كبرى لم يشهد أحد قط أنها تنشأ في أقاليم جرداء ، وبين ملك
عريض للفرس في الشرق ، وأمبراطورية عظمى للرومان في الغرب ؛ ثم شهد
بعد ذلك أنها تستطيع القضاء على هذين العملاقين في حروب خاطفة .
ولنما نجح الإسلام هذا النجاح الذي يشبه ما تدبجه أقلام أصحاب الأساطير
لأنه محاً النعرة الجاهلية ، وسخر من هؤلاء الذين يتفاخرون بالأنساب
والألقاب ، وجعل الناس سواسية لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ،
فأصبحت الإخوة الإسلامية تغني عن رابطة العصب والجنس .

لقد جاء المسيح ينشر وينادي بالإخاء والمساواة ، ولكن محمداً هو الذي
حقق ذلك بالفعل . ثم درج خلفاؤه الراشدون على سنته ، فاختر الخليفة
الأول بالشورى ورفض الخليفة الثاني أن يعين خلفه على غرار ما فعله معه
سلفه ؛ بل أحب أن يختار المسلمون أفضل أهل الحل والعقد من بينهم .
ثم أطلت الفتنة برأسها ، في ثوب العصبية التي تريد استرداد مكانتها . فمال
الخليفة الثالث إلى بني أمية ؛ فثار المسلمون لهذا الميل ، فقتل عثمان . لكن
لم تجتمع الكلمة بعد حدوث هذا الصدع ، ونشبت الحروب الأهلية بين
المسلمين ؛ فريق منهم يريد نصر الخليفة الرابع ، وفريق يطالب بدم
ابن عفان ، ويتخذ ذريعة للاستئثار بالملك . وكتب النصر لهذا الفريق
الآخر . فاسترد المسلمون هدوءهم إلى حين واستأنفوا الفتوح ، فسارت
الجيش ، حتى بلغت حدود البرانس وبحر الظلمات .

غير أن هذه القوة العارمة كانت تخفي وراءها جرثومة الانحلال . فقد

تقبل المسلمون نظام الملكية الفردية، طوعاً أو كرهاً، فأتجهوا قُدماً نحو حكم المستبدين . ولم ينظروا بعين البغض إلى العصية التي محاهها دينهم ، وأحياها شقاقهم . فاحتد الصراع بين طوائفهم ، من يمينين وقيسين . ثم تطرق الوهن إلى أصحاب الملك نفسه ، فهب نفر من طلاب السلطان يدعون لآل البيت ؛ وحتى هؤلاء لم يكنوا على وفاق فيما بينهم . ثم انتهى الأمر بأن قفز بنو العباس إلى عرش الخلافة . حقا كان أمراء هذه الأسرة يسمون خلفاء المسلمين ، لكنهم كانوا في الحقيقة ملوكا ، وملوكا مستبدين ، أكثر منهم خلفاء راشدين . وعجز هؤلاء الملوك بدورهم عن جمع الكلمة ، فخرجت من أيديهم بلاد الأندلس ، واستوى الملك فيها لبني أمية ، ولم يكن هذا الانقسام خيراً ل هؤلاء ولا هؤلاء ؛ بل مهد لضعف المسلمين جميعاً ، ملوكاً ورعايا . فانقسمت الأمة الكبرى إلى دويلات أكثر عدداً ، وأشد وهناً ، يسيطر على كل دويلة منها ملك مستبد يملك حق الحياة والموت في رعيته ، ولم يعد لدى المسلمين عن حكم الشورى والإخاء والمساواة سوى صدى بعيد خافت ، لا يشير لديهم نخوة ، ولا يحفزهم إلى الرغبة في العودة إلى ما كانوا عليه من عزة وبأس شديد .

وليت هؤلاء الملوك اتفقوا فيما بينهم على تقسيم الأمة الإسلامية ، على أن يكونوا يداً واحدة ، مع استبداد كل واحد منهم بإقليمه ! وليتهم أبقوا على الفكرة الإسلامية الكبرى ، وهي أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ! لكن جرى الأمر على غير ما كان ينبغي ؛ فملك الزهو عليهم أنفسهم . وظن كل واحد منهم أنه أحق بالملك من سواه . فبدأت الغارات من جانب وآخر . فإذا عجز أحدهم عن أن ينال من صاحبه ، أو أن يدفع عن نفسه

استعدى عليه الأجنبي . ذلك أن هؤلاء الأمراء كانوا يرون في الملك والاستبداد مطمحاً دونه أى مطمح ، ويلمسون في أنفسهم وفي ضمائرهم أن لقب الملك أو الأمير أعز عليهم من وحدة المسلمين وقوتهم . وتاريخ المسلمين حافل بأمثال هؤلاء الملوك الذين احتفظوا بلقب الإمارة على أسنة رماح الأجانب . ويستطيع كل مسلم أن يعثر في تاريخ بلده على مثال أو أكثر من هذا القبيل . وهذا هو الذى قضى على ملك المسلمين فى الأندلس ، وقوض سلطانهم فى الهند ، وألحق بهم الوهن فى جميع بقاع الأرض . فقد لهما الملوك بشهواتهم عن أمر رعاياهم ، فخربت الديار ، وبطلت الصناعات واندثر العلم وساء الخلق . ومن قبل شكوا أرباب العلاء من ظلم الملوك وترفعهم ، وضاق باستخذاء الأمة لهم :

مُلِّىَ الْمَقَامُ فَكَمْ أَعَاشِرَ أُمَّةٍ . أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا أَمْرَآؤَهَا
ظَلَمُوا الرِّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدُوا مَصَالِحَهَا وَهَمَّ أَجْرَآؤَهَا

فهم كل ملك أو أمير منهم أن يحيا حياة الدعة والترف ، وأن ينعم باللهو واللعب ، وأن يحيط نفسه بمظاهر العظمة التى يظنها فى كثرة الخدم والحشم ، والقصور التى تتطامن أمامها قصور ملوك الأمم الضافرة المستعمرة . ويحسب الأمير أو الملك منهم أن عمله ينحصر فى استنزاف قوى شعبه وفى تسخيرهم واسترقاقه ، مع أن مجال العمل الذى يعود على أمة بالخير أوسع من أن تكفى حياته وحياة سلسلة من أحفاده فى القيام به . وكم سمعنا ورأينا من بذخ ملوك الشرق ، وخاصة ملوك المسلمين ، حينما تأخذهم لوثة التشبه بملوك الغرب ، فإذا دعوا أحداً من هؤلاء إلى زيارة بلادهم لم يدخروا

قليلا ولا كثيراً في التظاهر بالأبهة والعظمة ، ولم يدعوا منفذا إلى الإنفاق والإسراف إلا هرعوا إليه . مع أن نظرة واحدة إلى بؤس رعيّتهم وعريها تكفي في اطلاع الأجنبي على حقيقة أمر هؤلاء الملوك وتفاهة شعريهم الذين تصرف مقاديرهم وتستلب أرزاقهم ، وهم قانعون راضون بالذل والهوان . فالبذخ والإسراف غاية هؤلاء الملوك ، لكنهم أكثر الناس شحاً عند ما ينبغي لهم أن ينفقوا شيئاً يعود على أمتهم بالخير ، أو يكسبها شيئاً من احترام الآخرين . وهكذا حرص هؤلاء الملوك على الدنيا ، واختلفوا فيما بينهم ، وكان عليهم أن يتحدوا حتى ينهضوا بأمتهم .

ومن قبل شهد الأفغانى بذخ إسماعيل ، وإسراف ناصر الدين شاه ، ولمس القطيعة بين الأتراك والأفغان ، فأخذ الغضب لموقف ملوك المسلمين الذين نسوا أوطانهم ، ولم ينسوا أنفسهم : « أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأفسدهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العالمين منهم لتعارفت أرواحهم ، واثقلت آحاديهم . ولكن وآسفاه تخلفهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية ، لا أمر فيها ولا نهى . . وما ردّ الأفكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض إلا أولئك المترفون ؛ يحرصون على طيب في المطعم ولين في المضجع ، وتطاول في البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ، ولا يراعون في حرصهم على ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم بالمواسم والأعياد ، وهز الرؤوس وثنى الأعطاف تعظيماً وتبجيلاً ، ثم تذيل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . . . أولئك صاروا

في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للشعالب . » (١)

ب — جهل الملوك وغرورهم :

وبما ضاعف بلاء المسلمين أن ملوكهم ليسوا في الأعم الأغلب على شيء من العلم الذي ربما هذب الطبع ، وأوحى بفكرة الإصلاح ، ونأى بصاحبه عن الكبر والزهو ، وصرفه عن المباهاة بالعظمة وسط قوم من البؤساء الجياع . وإذا اجتمع الميل إلى الترف مع تأصل الجهل لم يكن لأحد أن يتوقع خيرا من ملوك يضللون أنفسهم قبل كل شيء ، ثم يضللون الناس من بعدهم . ولو أن ملكا من هؤلاء غنى بتربية خلفه ، ورغب في تنشئته على الخير والعلم فلربما أحسن إليه أجل الإحسان . لكن هذا مالا يتفق مع ما جرت عليه عادة ملوك المسلمين الذين لا يقرّبون عالما ، ولا يحفلون بنبوغ ، ولا تقسع صدورهم لسماع نصيحة من مفكر رشيد ، ولا يرتضون لأبنائهم أن يكونوا خيرا منهم ؛ إذ يحسبون أنهم أقدر الناس على تصريف أمور الملك ، وأن الدم الذي يجري في عروقهم ، وهو في ظنهم دم من نوع آخر ، يغنيهم ويغني ذريتهم عن العلم الذي قد يسمو ببعض أبناء الشعب مع كثرة الجهد والصبر ، ولكنه لا يعدل ما يمتاز به الملوك عن الدهماء من إصالة المجد ، ولطف العناية الإلهية التي أرادت لهم أن يكونوا ملوكا . لقد بنى لهم آباؤهم مجداً — عريضا أو غير عريض — وليس بعزيز عليهم أن يحتفظوا به ، ولا سيما إذا كان محكوموهم جماعة من الأرقاء المتخاذلين الذين ورثوهم فيما ورثوا أيضاً .

(١) العروة الوثقى ١٥٢ — ١٥٥

ويؤدى الجهل والغرور كل إلى غايته ، وقد تتحد هذه الغاية فى أكثر الأحيان ؛ إذ تتراكم الأخطاء ، وتشح موارد المال ، وتضجر الرعية ، ويتربص العدو فرصة سانحة ، ويدب الطمع فى قلوب طلاب الملك . غير أن ما يقلقهم من بين هذا كله إنما هو المال الذى يريدونه لإشباع نزواتهم التى لا تعرف حداً . وليس تحصيل المال بالأمر العسير ، إذ يكفى أن تفرض الضرائب الجديدة ، أو تمنح الامتيازات لدولة أجنبية طامعة ، أو تباع أسهم شركة من الشركات ، أو تقتصب ضياع كبير من السكبراء . وماذا عليهم أن يفعلوا هذا أو أكثر منه ، طالما لا يجدون من يقف أمامهم ليقول لهم رفقا بالعباد .

وأكثر خطراً من هؤلاء الملوك الجهلاء ، الذين ينزلون الضر بأنفسهم كما ينزلونه بأوطانهم ، جماعة من الملوك الذين يضلون عن علم ، ولا يشغلهم أن يستقر الملك من بعدهم لأبنائهم ، وإنما يعينهم أن ينعموا ما استطاعوا فى أثناء حياتهم ، وأن يلهوا بمقادير أمتهم والسخرية منها . وكثيراً ما يغرر هؤلاء برعاياهم ، ويحاولون القضاء على روح المقاومة عندهم ، فيتظاهرون ، أول الأمر ، بأنهم ملوك مصلحون ، لا يريدون شيئاً سوى العمل على رفعة الوطن والنهوض به ، والإسراع بإدخال النظم السياسية الحديثة التى تخفف من أعبائهم ، وتشرك الشعب معهم لى يحكم نفسه بنفسه ، عن طريق اختيار من يمثلونه لتصرف شئون الدولة . وتنخدع الرعية بما يلقى فى روعها ، فتسلم قيادها ، وتختار ممثليها ثم تركز إلى الدعة ؛ بينما ينصرف صاحب الملك إلى حبك المؤامرات لتمزيق وحدتها ، وبث الضغينة بين أحزابها . وكثيراً ما ينجح فى خديعة رؤساء هذه الأحزاب ، ولو كانت معارضة لطغيانه ،

فيفقر بهم حيناً ، ويبيدهم حيناً ، ويلوِّح لهم بالحكم ، ثم يُبدِّل به عليهم ، فيتطامن
الآبى ، وينساق مع غيره ، لكى يترامى على أقدام المستبد يؤكد له ولاءه
وطاعته ، حتى ينال شيئاً من الغنائم بعد طول الحرمان .

فإذا استطاع الأمير أو الملك أن يحطم كبرياء المتكبرين من المستوزرين
أخذ يضرب بعضهم ببعض ، يوليههم ويعزلهم متى شاء ، وتحزن الأمة
وتفرح ، وتشقى وتسعد ، لذهاب مستوزر أو مجيء آخر ، وهى لا تدرى
أن وزراءها جميعاً قد نسوها ، وأنهم ليسوا إلا قطعاً من الدمى التى تحركها يد
يتظاهر صاحبها بالإصلاح ، وبالتلطف على النهوض بالأمة والسير بها إلى مدارج
العلا ! ويقهقه هذا المستبد بين حاشيته طرباً لنجاح حيلته ، مع أنه يسوق
نفسه إلى الهاوية ؛ فهو يظن أنه أكثر الناس ذكاء ، وأطرهم باعاً ، وأقدرهم
على اللعب بمصير أمته ، لكنه لا يفعل فى الحقيقة سوى أن يجعل بهدم ملكه
ودنياه ، ولا يدفعه إلى ذلك المصير الرهيب سوى الغرور ، وهو داء عز
أن يرجى له شفاء .

ومن مظاهر الجهل والغرور أن الأمير الشرقى يعبد الألقاب ويحرص عليها
أكثر من حرصه على ملكه . وقد عرف المنافقون تقدير الملوك لهؤلاء الذين
يخلعون عليهم صفات العظمة والشرف فافتنوا فى اختراع الألقاب لهم .
وإذا أنت قرأت صحيفة من صحف البلاد الإسلامية واطلعت على الجمل الطويلة
التي تفيض ملقاً ، والتي تسبق صغائر الأمور التي يقوم بها الملوك ، لمثلت عجباً .
ولو ترجمت هذه العبارات إلى لغة أجنبية لجار الناس فى فهمها ؛ إذ ليس من
عادتهم أن يروا مثل هذا البذخ فى جمع ألقاب الشرف والجلالة والعصمة

والمجد والنبيل لو صف ملك ، أو شبه ملك ، يعلم الناس جميعاً خيائته وسفه رأيه ، وحمقه وخسته ، وبعده عن الشرف والنبيل .

كذلك عرف المستعمرون غرور أمراء المسلمين ، فسلبوهم ملكهم ، وأبقوا لهم مظاهر الملك وألقابه فقرسبها هؤلاء عينا . ومن قبل عجب الأفغانى لسذاجة هؤلاء الملوك وجهلهم فقال : إنه « إذا سلب الأمير الشرقى ملكه وماله وجرد من جميع حقوقه ، وبقى له لقبه ولو احق لقبه فهو فى سكرة من لذة ما بقى له ؛ وفى ذهول عما سلب منه . هذه خلة عرفها الإنكليز فى كل أمير شرقى . فلم لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء ، بعد ما جردت من حقائقها ، وأى داع يدعو رجال الإنكليز لإزعاج قلوب الأمراء بنزع هذه الألقاب ؟ إن اللقب الضخم حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقى ، وجب عميق يلقى فيه ، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض . »

وقد سرت عدوى الغرور إلى الخاصة والعامة ؛ بل إلى نفر من العلماء الذين لا يحترمون عليهم ، أو يتجاهلون أن الحياء أهم صفات العالم . فأصبح القوم جميعاً يتنافسون فى الحصول على الألقاب ؛ وإن لم تمنح لهم منحوها هم لأنفسهم ؛ إذ يظنون أنهم يزدادون بها شرفاً ومكانة فى أعين الناس ، مع أنهم لا يخدمون أحداً ، ولا سيما إذا حمل اللقب الغريض ذو الجهد أو الشرف الهزيل . لكن ما دام الشرف يمنح دون استحقاق ، وما دام المجد ينال عفواً ودون جهد ، فلا ضير إذن من أن تباع الألقاب وتشتري . فإن أعوز المال فلا أقل من أن يراق ماء الوجه ، وأن تدبج مدائح الملق والنفاق . فالطامح إلى اللقب إما غنى يستطيع أن يشتريه ، وإما رجل لا حياء له ، يقبل على الملوك يطريهم بما ليس فيهم أو بضد ما هم عليهم ،

فيصفهم بأنهم المصلحون العادلون المشفقون على رعاياهم ، مع أنه يعلم في قرارة نفسه ، كما يعلم الناس جميعاً ، أنه أول المنافقين .

ح — خيانة الملوك :

لقد عاش الأفغانى فى عصر تألبت فيه الدول الأوروبية على الأقطار الإسلامية ، وبدأت تعد العدة فيه لاقتسام الدولة العثمانية . ولم يكن جمال الدين بعيداً عن مجال الحوادث التى اهتز لها الشرق فى ذلك الحين ؛ فإنه شهد فى بلاده كيف اختلف الأمراء فيما بينهم ، وكيف نجح شير على خان فى اغتصاب الملك بعون الإنجليز . ثم اضطر إلى مغادرة البلاد الأفغانية إلى قطر إسلامى آخر كان الإنجليز يعدون العدة للاستيلاء عليه ، وهو مصر . وهناك رأى رأى العين إسراف إسماعيل وبذخه وغروره . ثم اشترك فى إثارة رأى العام ، ضد هذا الملك الذى كان يقود بلاده إلى الهاوية . وكان له نصيب فى خلعه وتولية توفيق باشا الذى تعاهد معه من قبل على الإصلاح السياسى والاجتماعى والوقوف فى سبيل أطماع إنجلترا وفرنسا . لكن توفيق خان العهد ، وغدر بصاحبه ونفاه من مصر . كذلك وجد الأفغانى فى إيران نموذجاً آخر من السفه والخيانة جمع بين صفات إسماعيل وتوفيق ، ونعنى به ناصر الدين شاه ، الذى أغرق بلاده فى الدين ، ثم أخذ بمنح الإمتيازات لكل من إنجلترا ولروسيا ، لولا أن أوقفه الأفغانى عند حده بإثارة رجال الدين عليه أولاً ، ثم بالحض على قتله فيما بعد .^(١)

فإذا تحدث الأفغانى عن سفه ملوك المسلمين وخيانتهم فإنه لا يعالج الأمر

(١) إرجع إلى كتابنا جمال الدين الأفغانى ، حياته وفلسفته .

من الوجهة النظرية ، وإنما يتحدث حديث الخبير المطلع الذى يرجع النتائج إلى أسبابها ، والذى يستنبط من التاريخ عظمته ودروسه . لقد وصف بعضهم جمال الدين بأنه ثائر لا يرضى سوى أن يهيج النفوس ويبعث الفتنة فى كل مكان حل به ؛ وهذا هو ما وصفه به الأجانب الذى لقوا من عدائه أكثر مما لقوه من أى رجل آخر . لكنه لم يكن إلا رجلاً صادق الحديث بعيد النظر ، فطن إلى ما تبيته الدول الأوروبية للأقطار الإسلامية ، فقام يناهضها وحده فى عصر استسلم فيه المسلمون ؛ بل سارع فيه ملوكهم إلى تصفية ملكهم ، إما خوراً وإما سفهاً وخيانة ، كأنما قد ورثوا الأرض ومن عليها ، وكأنما كان لهم حق هبة رعاياهم وثروات بلادهم لأول طارق أو أول طامع .

إن هؤلاء الذين ينتحبون للمجد الزائل ، ويصبون لعناتهم على الدول الاستعمارية ويسبون الدهر الذى جعلهم أذلة ، ورماهم بهذه الدول الجشعة التى تنكل بهم هم أولى الناس أن يبدأوا بالختل من أنفسهم ، وبصب لعناتهم عليها . وهم أجدرهم بالألا يتوقعوا من عدوهم أن يعاملهم معاملة الكرام الذين كبا الدهر بهم ؛ ذلك أنهم كانوا جبناءً رضخوا للملوك من الخزنة ، وتركوا أمرهم لجماعة من الوزراء الذين لا خلاق لهم ، فحق لهم إذن أن يصبحوا سباع تباع أو توهب أو تمنح دون عرض . وليس على الدول الاستعمارية بعد ذلك من حرج ، ولها أن تغتصب ما تشاء ، وتذل وتعز من تشاء . فإن من سنة الحياة والعمر أن من يقبل الذل والظلم جدير بأن يكون ذليلاً مدحوراً .

ولم يخف على الدول الأجنبية ما انحدرت إليه حال المسلمين من ذل رعاياهم ، وخيانة ملوكهم وجبنهم ، فلم تجدد مشقة فى استعمار بلادهم بعد .

أن كانت هذه البلاد حصناً منيعاً تخرج منه الجيوش تلقى الرعب في قلب العدو . وهكذا تبدل الأمر ، وأصبح من اليسير على أى دولة أجنبية، ولو من دول الدرجة الثالثة أو الرابعة فى القوة أن تغير على أى قطر إسلامى، وتدفع بجيوشها إليه، وهى آمنة ألا تضطر إلى القيام بحرب حقيقية تخشى نتائجها . ذلك أنها كانت على يقين من أن أمراء هذه الأقطار أو ملوكها ليسوا ممن يُخشى خطره، أو يُحفل بأمره .

فالأمر المسلم أحد رجلين : إما حاكم تدين له الرعية بالولاء والطاعة وتحف به القلوب محبة ، وإما حاكم مستبد خائن . فإذا كان الأمير على وفاق مع رعيته—وقل أن يوجد مثل هذا الأمير—لم تعد الدولة الطامعة فى ملكه سبيلاً إلى بعث الرعب فى قلبه ، أو فى أن تحيك له الشباك ، فتخدعه بالآمان وتعلمه بالآمال ، وترغبه فى الاستسلام ، فيرضخ لما تقضى به . فإذا وقع فى حبالها كان من الهين أن تتبعه الأمة بأسرها . وهذا هو الطريق الذى اختاره الإنجليز مع السلطان التيمورى فى الهند . فقد أوهموه أنهم لا يريدون به شراً ، وأنهم لا يبغيون سوى تنمية علاقات الصداقة والتجارة مع بلاده ، وأنه يستطيع أن يطمئن إليهم فى استغلال هذه الموارد الهائلة التى عجز الهنود عن استغلالها . وما زال الإنجليز يتقدمون بخطاً بطيئاً وأكيدة حتى وضعوا أيديهم على مختلف مرافق الدولة ، وتبع ذلك أن سقطت بلاد الهند فى حوزتهم . «ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيمورى وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية أحقاباً طويلة.»^(١)

وقد أراد الإنجليز أن يكرروا الحيلة نفسها في البلاد الأفغانية مع تعديل بعض تفاصيلها فأوقعوا بين الأمراء ، وتحالفوا مع أحدهم على أن يمنحهم بعض الإمتيازات الاقتصادية ، ونجحوا أول الأمر في أن ينصبوا صاحبهم على العرش . لكن رجال الأفغان كانوا أصلب عوداً من جيرانهم ، وأكثر منهم حمية ، وقدرة على القتال ، ففتكوا بالإنجليز فتكا ، واضطر هؤلاء أن يتركوا البلاد لأهلها .

أما إذا كان الأمير سفيهاً خائناً لا تربطه بشعبه رابطة مودة ومحبة فإن الاستيلاء على بلده لأكثر يسراً ، إذ ليس للغاصب أن يجند الجيوش الضخمة وأن يحشد الأساطيل . وفيه هذا العناء كله إذا كانت نتيجة الغزو محققة قبل البدء فيه ؟

لقد كانت فكرة فتح بلاد المسلمين منذ عدة قرون لا تراود الدول الأوروبية . لكنها بدأت تتحقق في القرن الثاني عشر أيام الحروب الصليبية ، غير أن بقية من الأخلاق الإسلامية ألهمت حماس الملوك والأمراء فاستطاعوا أن يطردوا العدو من الأراضي المقدسة ، ثم بدأ الفتح الإسلامي يتجه نحو الغرب من جديد . أما ملوك المسلمين وأمرائهم في العصر الأخير فلم يكونوا على شيء من خصال أسلافهم الذين دوخوا الغرب ، وأخضعوه لسلطانهم ، واستولوا على كثير من ممالكه حتى بلغت جيوشهم أسوار فينّا . ولا ريب في أن التضاد بين هذين النوعين من الأمراء والملوك هو السبب في هذا الفارق الكبير الذي نراه بين الدول الإسلامية في عصرنا الراهن وبينها في الزمن الماضي . فإن « الأمراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنفوها وعلوها . . . كذلك يكونون في بعض أدوارها علة فاعلة

في سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنما نخاف - ولا حول ولا قوة إلا بالله - أن يكون أمرؤنا والأعلون فينا آلة في اضمحلالنا وفنائنا ، لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات ، مع سقوط الهمة ، وتغلب الجبن والحرص والطمع في طباعهم . . . » (١)

ومما دفع الأمراء إلى الخيانة والتفريط في أمانة الملك التي في أعناقهم أنهم وثقوا بالأجانب ، وعهدوا إليهم بكثير من أعمال الدولة ومناصبها من وزارة أو سفارة ؛ بل اتخذوا منهم حاشية وبطانة ، وفضلوهم على النابيين من رعاياهم . ثم غلوا في الثقة بهم ، حتى أفسحوا لهم مكاناً في قصورهم ، وندبواهم لخدمتهم الخاصة ، ظناً منهم أن ذلك يتيح لهم أن ينافسوا الملوك الآخرين في الجرى على أساليب الحياة الأوروبية ، وفي اتباع تقاليد الملوك من الأجانب ؛ وذلك أمر يعلو في تقديرهم على كل أمر ، وهو بما لا خيرة لبنى ملتهم به . وغاب عن هؤلاء الأمراء والملوك المفتونين بقشور الحضارة الغربية وزخرفها أن العظمة والمجد لا يكونان بكثرة الخدم والحشم ، وإنما بالجد والسعى للنهوض بأممهم المتأخرة ؛ وغفلوا عن أن الأجانب الذين يصطفونهم لا ينسون أوطانهم ولا يعنيههم ، في كثير أو قليل ، أن يخلصوا من اضطرتهم ، ولا يشغلهم هم سوى أن يقفزوا إلى أرفع المراتب سعياً وراء المال والجاه والنفوذ ، ولا يكثر ثون إن أحسنوا أو أسأوا في النصيحة ؛ إذ ما الذي يربطهم بمصير هذا البلد وأهله ، وهم على غير ملتة وعقيدته ؟ إنهم لو استطاعوا إلحاق الضرر بولي نعمتهم ، وهو آمنون على أنفسهم ، لرأوا من الحق والسفه ألا يفعلوا

كل ذلك والملوك في غفلة عن هذا السوس الذى ينخر فى عروشهم ويهدم فى ملكهم ، ولا ينى يوسع الثغرة التى تترقبها دولة طامعة للتدخل فى شئون بلادهم أو لوضع يدها عليها . ويعلم المرء مم تتألف حاشية كثير من ملوك المسلمين ، وكيف أن هؤلاء الأجانب يصرفون أمور الدولة ، يقيمون الوزارات ويسقطونها ، ويعملون لحساب بعض الدولة الأجنبية لقاء أجر معلوم . فهم قوم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا كرموا طغوا ، وإذا قوبلوا بالإحسان أجابوا بالإساءة . ثم إذا انهار العرش الذى كانوا يزعمون أنهم من المخلصين له أسرعوا بالفرار كالجرذان يحاولون تبرئة أنفسهم من طيش الملوك ونزقهم ، ويتطوعون إلى التشهير بسلوكهم ، ويبدون حسرتهم على عناد الملوك الذين يركبون رؤسهم ، ولا يستمعون إلى ما بذلوا لهم من نصيح صادق !!

و — أعوان المستبد :

وليس وزراء المستبد أقل خطراً من حاشيته الأجنبية ؛ فإن التاريخ يشهد بأن الأمير المستبد لا يصطنع من الوزراء سوى الأذلاء اللئام ممن يكونون أطوع له من بنائه ، ومن يحسنون الملق والنفاق ، ويجيدون استنزاف أموال الرعية ، ويلهونها عن المطالبة بحقوقها ، ويفتون فى عضدها ، حتى تظل خامدة راكدة . غير أن هؤلاء الأعوان يأبون إلا أن يتشبهوا بسيدهم ، فيتخذون رجالهم ممن هم على شاكلتهم لئوما وذلة . ذلك أن الوزير الأكبر الذى يعرف كيف يخنى هامته ، وكيف يقبل يد الأمير التى قد تصفعه ، يهمله أن يجد من ينحنى له ، ويقدم فروض الطاعة بين يديه ، ويتقبل سخطه بالرضا ، وعسفه

بالخنوع ، كذلك يحلو له أن يبدو في نظر العامة في مظهر المستبد الذي يقبض على مقاديرها بيد لا تعرف شفقة ولا رحمة . فهو اللئيم الأعظم من بين قومه ، ثم يأتي من بعده الوزراء ممن هم دونه لوّما .

ويتدرج اللّوم والاستبداد في المناصب ، وتستبد كل طبقة بالتي هي أدنى منها ، حتى ينتهي الأمر إلى أدنى الطبقات ، دون أن ينمحي اللّوم أبداً . وكل طبقة من هذه تدين بالطاعة لأكثر أفرادها لوّماً ؛ إذ من عادة الأسافل ألا يشغلوا أنفسهم بالسعى وراء محبة الناس ، إنما الذي يهمهم هو أن يكتسبوا ثقة من يستبد منهم ، ممن هو أسمى منهم مرتبة في الحسنة والدناءة . وكيف تتصور أن ينمحي اللّوم جملة إذا كان أصغر موظف في الدولة يحرص على الاحتفاظ بشيء من الميل إلى الاستبداد بحاجات الناس ، لكن يبرهن لهم ، في كل لحظة ، أنهم أمام مثل المستبد الأكبر ؟ فدولة الاستبداد هي دولة الأوغاد ، على حد تعبير الكواكبي . وتكفي المقارنة بين مسلك رجل الشرطة في هذه الدولة ومسلك قرينه في دولة حرة لمعرفة إلى أي مدى يشوه الاستبداد النفوس ، وإلى أي حد ينعكس لوّم الوزراء واستبدادهم في طباع أدنى رؤسهم . فكل في هذه الأمة مستبدٌ ومستبدٌ به ، وكل ذليلٌ وطاغية : ذليل لمن يرأسه ، وطاغية على من هو دونه . وقد يعجب الإنسان لماذا لا يترك الناس أنفسهم على طبيعتها في هذا المجتمع ، ولماذا لا يتجهون إلى الحق والخير بفطرتهم الأولى ، دون أن يضطربوا بين النذل والقهر ، والضعفة والكبر ، والتظاهر بالرغبة في الإصلاح مع الأصرار على الاحتفاظ بالأوضاع القديمة ، مع ما فيها من جور وعسف . لكن ليس هناك في الحق ما يدعو إلى هذا العجب ؛ فإن النفاق هو القانون الأكبر في دولة الاستبداد .

وكثيرا ما يزعم وزراء المستبد أنهم من أبناء الشعب ، وأنهم لا يهدفون إلا إلى الإصلاح والنهوض بالامة العائرة ، وأنهم يبذلون قدر طاقتهم لحمايتها من الطغيان . غير أنه ينبغي للمرء ألا يُخدع بهؤلاء الوزراء الذين ينافقون ، ويقولون مالا يفعلون ؛ فقد بيتوا أمرهم سرا مع سيدهم على أن يعلموا الناس بالآمال والأمانى ، وأن يخدعهم بالحديث المستمر عن الحرية وحقوق الشعب ، حتى يصرفوهم عما يدور في الخفاء من اتفاق على تقسيم الغنائم والأسلاب ، وتوزيع الثورة بين نفر معدود من حاشية المستبد وأهله وأعوانه وزبانيته . والحق أن هؤلاء الوزراء أكثر فطنة من أن يصدقوا الوعد ، أو يؤدوا الأمانة ؛ فإنهم يعلمون أن الخير كل الخير لهم في البقاء إلى جانب المستبد . وقل أن يسقط الستار ليكشف عما يدور في الخفاء بين الملك المستبد ووزرائه ! وإذن فكيف للشعب الجاهل أن يفيق من غفلته ؟ وكيف له أن ينقطع عن الهتاف بحياة فريق من المستوزرين الذين يجيدون النفاق ، ويستغلونه باسم الوطنية والحرية والتظاهر بالوقوف أمام الطغاة أو العدو ؟

وقد لا نعدم أن نجد ، في بعض الأقطار الإسلامية التي تتبع في حكمها ما يظن أنه الحكم النيابي الغربي ، حزبا قويا من الأغنياء الذين يمثلون الشعب الفقير ، وينادون بأنهم لسان الأمة المعبر عن إرادتها ، مع ما في هذا من التناقض الذي يفجأ النظر ، والذي لا نجد له مثيلا في أمة متحضرة ؛ إذ لم نر في بلد من البلاد جماعة الأغنياء ينادون بإنصاف الفقراء . إن ذلك أمر ليس في طبيعة الإنسان ! ولكن هذا ما قد يحدث في الشرق ، وهو موطن السحر والمتناقضات ! فإذا اتفق أن طالب فريق ممن لم يفسد الاستبداد طبعه بنشر التعليم ثارت ثائرة هؤلاء الأوصياء على الشعب ، وفزعوا أن يفقدوا أعز حليف من حلفائهم وهو جهل الأمة ، فلا يفتأون

يضعون العراقيل ، لأنهم لا يخشون عدواً أشد خطر أمن العلم الذى يزيح الغشاوة عن العيون ، ويهتك ستار المنافقين الذين يحرصون على أن يظل الشعب فى جهله حرصهم على أن تبقى الثروة فى أيديهم . وإذا ثارت نفس امرئ للظلم الاجتماعى فى مثل هذه الأمة ، فأخذ ينسأدى بضرورة توزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، وسن القوانين التى تضع حداً لما يمتلكه الأغنياء من الأراضى الزراعية التى لا حياة لأغلبية الشعوب دون ملكيتها ، رأيت هؤلاء الأغنياء الذين يمثلون الطبقة العاملة الفقيرة أشد إصراراً على إبقاء القديم على قدمه ؛ إذ أن كل تعديل أو تغيير فى طريقة توزيع الأراضى سوف يقود البلاد حتماً إلى الخراب والدمار ، وهم أحرص الناس على رخائها !

وربما وجد هؤلاء الوزراء فى مثل هذه الأزمات عوناً من بعض رجال الدين ؛ بل كثيراً ما يجدون هذا العون دون أن يلتمسوه . وعندئذ ينبرى نفر من رجال السكهنوت يرغبون الناس فى الفقر ، ويذمون لهم الطموح والرغبة فى النهوض مما انحدروا إليه ، فيقولون لهم إنما الدنيا متاع الغرور ، وإن المؤمن مصاب ، وإن ما يجدونه من سوء حالهم ليس إلا بقضاء من الله ، ولا مرد لهذا القضاء إلا بالصبر والرضا . فإذا لمسوا أن تحسين الفقر وذم الغنى لا يخدع أحداً ، وأن الميل إلى الثروة والتمرد يضطرم فى نفوسهم جعلوا يحذرونهم مما هم مقبلون عليه ، وينصحونهم ألا يخالفوا أوامر هؤلاء الذين تجب طاعتهم ، ولو كانوا طغاة مستبدين^(١) ثم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويستشهدون لما يقولون ، ساء فعلهم ، آيات من القرآن كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » كأن

(١) ألم يكن رجال الدين فى تركيا يقولون فى أيام السلطان عبد الحميد : سلطان غشوم

طاعة الله في معصية أمره يوجبها الدين . ويلقى رؤساء الكهنوت جزاء ما صنعوا ، فيقربهم الوزراء ، ويفسحون لهم في الرزق ، ويطلبون لهم الكسوة ، ويزيدون في رواتبهم ويكثرون لهم من مجاملاتهم ولفقاتهم . فإذا تعددت الأحزاب في قطرهم تفتحت لهم آفاق الرجاء ؛ إذ يسرع كبارهم كل يلوذ بفريق أو حزب يعقد أمله عليه ، ولا يدخر جهداً في عونه بنفوذه وسلطانه على نفوس الدهماء . وقد يفتن بعض هؤلاء المقامرين أنه قد أساء اختيار فريقه ، وعندئذ لا يتردد في البحث عن الفريق الرابع الذي يعتقد أن الفوز معقود بنواصيه ، وأنه أقرب إلى منصب الحكم من غيره .

فهناك إذن نوع من التحالف بين الوزراء ورؤساء الكهنوت ، ولهذا التحالف ثمنه ، والشعب المخدوع هو الخاسر في كل حال . أما الثمن فهو تلك القوانين التي توضع وتسب لمصلحة الأغنياء ولنزع ما قد يبقى من قوت في أيدي العامة . ولذا فليس بغريب أن اتجهت البلاد الإسلامية ، وبخاصة في العصور الأخيرة ، نحو نظام عتيق شهده أوروبا في عصور تدهورها ، ونعني به نظام الإقطاع . فإن المستبد يبدأ عادة بجمع ما في أيدي رعيته من أراض زراعية ، بحجة أنهم لا يحسنون القيام عليها ، ويستخدمهم عمالاً بأجر لا يقيم لهم أوداً . فإذا أخلص له أحد من خدمه أو من وزرائه أقطعه الأراضى الواسعة . ومنحه عبيدها في الوقت نفسه . فطريق الإثراء في الشرق ليس هو العمل أو الجد أو الذكاء ؛ وإنما هو التملق والحظوة لدى الملوك . وهذه هي أهم وسائل الإثراء . ثم يأتي بعدها الاتجار بالدين . ومن الطبيعي أن تنحصر الثورة القومية كلها في عدد قليل من العائلات التي تدور في فلك الأمير المستبد . وربما كانت أكثر العائلات ثروة

أطولها باعاً في الخيانة ، أو في البطش بالشعب . وعندئذ لا تجد هذه القلة من العائلات أو البيوتات حرجاً في أن تصف نفسها بأنها صاحبة المصالح الحقيقية في البلاد . غير أنها لا تستحي بعد ذلك من أن تتقدم إلى الفقراء الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً تطلب إليهم أن يختاروها ممثلة لمصالحهم في المجالس النيابية ، وهي لا تطلب إليهم ذلك بالرفق والحسنى ، وإنما بالسياط ، أو بالرشوة ، إن لم يكن هناك مجال لاستخدام السياط .

وإذا ثبتت قدم الخيانة والاستبداد بهذه الطريقة أو بغيرها زادت ثروة الأغنياء ، وعظمت مصالحهم التي يدافعون عنها ، وهبط مستوى الحياة لبقية الشعب ، واستشرى الفساد . وكلما زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء عظم خوف الناس من أولياء الأمر فيهم . وهم يخافونهم خوف دناءة ونذالة . وربما فسدت طبائعهم إلى حد أنهم يتفانون في خدمة ونصرة فريق من الحكام الذين يستبدون بأمرهم . وقد يسخر هؤلاء في أعماق أنفسهم من مثل هؤلاء الأنصار المستعبدين الذين تبجح أصواتهم بالهتاف بهم .

٣ — تحالف الملوك مع رجال الدين

١ — اتحاد الهدف :

وربما فاق الملوك وزراءهم في التماس العون من رجال الدين . ومن النادر أن يرفض هؤلاء عونهم ، اللهم إلا في بعض حالات شاذة ؛ ونعني بها تلك التي يبقى فيها لدى علماء المسلمين نصيب من الأخلاق التي غرسها الدين في ضمائرهم ، ومن الغلو أن نسكر وجود هذا النوع من العلماء الذين يقفون في وجه

الاستبداد والظلم، ويشتركون آخرتهم بدينهم. لكن هؤلاء قلة، وهم قد لا يوجدون في كل عصر أو عند الحاجة إليهم؛ وإنما يشهد التاريخ، في أكثر حوادثه ونوازله، أن الملكية الاستبدادية كانت على وفاق دائماً مع رجال الدين أو أكثرهم في أغلب العصور. ذلك أن رجال الدين محافظون بطبيعتهم. وقد يغفلون في هذه المحافظة إلى حد الجور والإصرار على الدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه، من الأساطير والبدع التي لا يقبلها العقل ولا الدين. ولهذا يرون في كل فكرة جديدة بدعة توشك أن تفسد العقائد، أو تهدم صرح الدين، أو تأتي على سلطانهم ونفوذهم. مع أن الأفكار الجديدة تهدف أكثر ما تهدف إلى تحرير العقول من الأوهام والخرافات التي تراكت على العقائد حتى حجبتهما، واحتلت مكانها في النفوس.

ذلك أن الحياة الاجتماعية في تطور مستمر. ومن الطبيعي أن يتردد صدق هذا التطور في الأمور الدينية لميل الناس إلى الانحدار من التوحيد إلى الشرك، ومن البساطة إلى التعقيد. فتبتكر الطقوس والتقاليد لإشباع هذا الميل الاجتماعي، وتسكث النوافل حتى تنسى الفرائض. ويتسلل هذا التبديل هيناً لا يفزع أحداً من رجال الدين، ثم يكسبه مرور الزمن جلالاً وقدسيتاً دونهما جلال العقائد الأولى وقدسيتها. ثم تندمج آثار هذا التطور في العقائد والطقوس الدينية، فيصبح مجرد التفكير في العودة إلى الأصول الأولى نوعاً من المروق والخروج على الدين. وكما من بدع حدثت في الإسلام، ثم ارتضاها رجال الدين، وجعلوا أنفسهم حفظة عليها، بحيث لو جاء أحد ينادي بترك بدعة من هذه البدع لنظر إليه القوم شذراً، وقالوا إنه جاء يفسد عليهم دينهم!

فإبقاء القديم على قدمه، ولو كان باطلاً، هو شعار هؤلاء الذين

ينصبون أنفسهم حماة للتقاليد ، ويفرضون على الآخرين آراءهم التي قد تبتعد قليلا أو كثيرا عن روح الدين . إنهم قلة ممن يظنون بأنفسهم أنهم قادة الفكر وحملة العلم ، ومن يرون ضرورة فرض أنفسهم على الناس ، أرادوا أم لم يريدوا . فالاستبداد بالأرواح هدفهم ، والحجر على العقول غايتهم؛ يظنون أن العلوم الدينية والكونية قد ألفت إليهم مقاليدها . فلامطمح لباحث يحاول التجديد ، ولا سبيل إلى معرفة غير تلك التي يقررونها ، والتي يفخرون في الوقت نفسه بأنهم ليسوا بأصحابها ؛ بل جاءتهم بالرواية عن هؤلاء العلماء السابقين المحققين المدققين الذين لم يتركوا لمن جاء بعدهم شيئا يجتهدون فيه ! فليس للعامة - ويعنون بها كل من ليس من طبقتهم - إلا أن تلتزم السمع والطاعة ، وليس لها أن تبحث عن الحق بنفسها ؛ بل ليس لها أن تتصل بربها إلا عن طريق الأوصياء من رجال الكهنوت أو أرباب الطرق الصوفية . وليس لأحد من العامة أن يعالج أمرا من أمور دنياه ، كعلاج مريض ، أو اختيار حرفة لابنه إلا إذا أجاز الشيخ رأيَه .

وهذا نوع من الاستبداد شبيه بما عرفه أهل أوروبا المسيحية في العصور الوسطى وما تلاها من القرون . فقد كان الباباوات الحكام الحقيقيين فيها . وما كان للملك من ملوكها أن يجرؤ على عصيانهم ، وسلاح الطرد من حظيرة الكنيسة مرفف على عنقه وأعناق رعاياه . وما زلنا نسمع في عصرنا الحاضر أن الكنيسة الكاثوليكية تستخدم هذا السلاح ضد رؤساء الدول التي لم يتحرر أهلها بعد من سلطان رجال الكهنوت .

ونحن لا نرغم أن لرجال الكهنوت في الإسلام ما لقرنائهم في المسيحية من السطو والبطش ، ولا ندعى أنهم بلغوا ، أو سيلغون ، مبلغهم في الاستبداد

بالأرواح. ومع هذا نعتزف أنهم لو استطاعوا أن يكونوا مثلهم لفعّلوا ، ولو أنهم وجدوا في الدين الإسلامي منفذاً كسهم الخياط يلجئون منه إلى تكفير الناس وطردهم من الدين لما قصرُوا في اللحاق بإخوانهم من كهنة الملل الأخرى . لكنهم يفعلون ما يستطيعون ، أى يستبدون على قدر طاقتهم ، وهم يستطيعون شيئاً كثيراً كلما خيمت سحب الجهل على أمة من الأمم الإسلامية ؛ إذ نراهم يخرجون من صمتهم وعزلتهم يسعون إلى المستبد أو يسعى هو إليهم ؛ لأن التعاون بين الفريقين كفيل بالسيطرة الشاملة على الأرواح والأجساد . وقد لا ندرى أى الفريقين أكثر حاجة إلى عون صاحبه ؛ غير أننا نعلم أنه لا بقاء لأحدهما دون الآخر .

وربما كان استبداد رجال الكهنوت أشد خطراً وأعمق أثراً ؛ لأن الآراء والمعتقدات الدينية أشد تحريكاً للنفوس أو أكثر فتكاً بحيويتها . كذلك نعلم أن رجال الدين يجدون في هذا التحالف خيراً عموماً ورزقاً واسعاً ؛ فإن الحاكم يعترف لهم بأنهم قوامون على الدين وحفظة تقاليده ، مع علمه وعلمهم أيضاً ، أن هذا الدين براء منهم ؛ لأنه لا يعترف بمثل مكانتهم لنفر من الجبناء الذين ينصرون الظلم ، وينافقون الملوك ، ولا يأمرّون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يشبهون في شيء أهل الحل والعقد من أفاضل المسلمين وأئمتهم في أيام العزة الإسلامية الحقيقية . لكن ماذا عليهم لو خدعوا أنفسهم ، وخدعوا العامة معهم ، وادعوا مكانة ليست لهم ؟ أليست تلك هى السبيل إلى الاتجار بالدين ، والتظاهر بالتقوى والتشف والزهّد ؟ أوليس ذلك هو الطريق إلى نصب حبايل التصوف والشعوذة للسطو على ما في أيدي الجبهة والسندج باسم النذور والأوقاف لأضرحة

الأولياء ، وللملء البطون والجيوب تحت ستار العمل لرفع شأن الدين .
ومن قبل فضح أبو العلاء أمثال هؤلاء الأذعياء فقال :

ويعجبني دأبُ الذين ترهبوا سوى أكلهم كدَّ النفوس الشحاح
وأطيب منهم مطعماً في حياته ساعة حلال بين غاد وراح
فما حبس النفس المسيحُ تعبداً ولكن مشى في الأرض مشية سائح
أما الملوك فهم في حاجة إلى من يبرر استبدادهم وبطشهم ، وإلى من
يدخل في أذهان العامة أن لها ملوكا يكادون يشاركون الله سبحانه في صفاته
وأفعاله : فهم لا يسألون عما يفعلون ، ولا يخضعون لقانون ، ولا توصف
أعمالهم بأنها عدل أو جور ؛ بل هي العدل كله ولو كانت ظلماً مبیناً ، ولهم
حق الحياة والموت في رعاياهم ، وهم أولياء النعم ، مع أنهم لا يفتأون يأكلون
أموال الناس بالباطل ، وهم أصحاب الجلالة والإكرام . . . وغير ذلك من
الأوصاف التي لا يوصف بها إلا الله وحده . وليس هناك قط من يفضل
رجال الكهنوت في خلع هذه الصفات على ملوكهم . وهل من المعقول
أن يجد هؤلاء حليفاً لهم أفضل من هؤلاء الذين يدفعونهم إلى الاستبداد
بالناس باسم الدين ؟

يدعون في جمعاتهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبيكى المنبر
وقد أدى التحالف بين الملوك ورجال الدين ، في بعض البلاد الإسلامية ،
إلى نتائج عجيبة ، وربما كان أكثرها غرابة أن ظهرت أرستقراطية من نوع
جديد ، ونعني بها أرستقراطية رجال الكهنوت التي يغدق عليها المستبد العطايا
ويخلع عليها الألقاب العلمية ، ويرفع من رواتبها ، ويطلق يدها في أوقاف

المسلمين لتديرها كيفما تشاء ، أو تستعين بها على تنمية ثروتها الخاصة ، وعلى اصطناع الاتباع الذين قد تختلف رواتبهم ودرجاتهم ؛ لكن لا تختلف غايتهم من الركون إلى البطالة ، والاستعانة بالدروشة والشعوذة في السيطرة على قلوب العامة وأرزاقها . غير أن طبيعة الدين الإسلامي ما كانت لتتفق مع ازدهار هذه الارستقراطية المزعومة التي تنسب نفسها ظلما إلى دين جاء يمحى الاستبداد أيا كان نوعه ، ويزيل الوسائط أو العوائق بين العبد وربّه . هذا إلى أن بقية من الأخلاق الإسلامية كانت تدفع بعض المجتهدين ، بين عصر وآخر ، إلى كشف الستار عن أباطيل وأوهام هؤلاء الأدعياء الذين لا يمتد سلطانهم ، ولا يعم شرهم ، إلا في عصور الاستبداد والتدهور العقلي .

ب — اتحاد الوسائل :

كذلك يتحد الملوك ورجال الكهنوت في الاستعانة بالوسائل التي تكفل لهم استمرار السيطرة على الأرواح والأجساد . وأهم هذه الوسائل محاربة العلم الجدير بهذا الاسم ، وهو العلم الذي يحرر العبيد ، ويدفعهم إلى المطالبة بحقوقهم السياسية والاجتماعية التي نالتها الشعوب المتحضرة والمتحررة . وأما العلم الذي يحتكره رجال الدين ، ويظنون أنهم حفظته والقوامون عليه ، فإنه علم قد مسخوه ، وأخرجوه عن أصوله ، حتى كادت تختفي معالمه ، وكاد ينسكه بعض أهله :

أَجْهَلَ بِسَادَاتِهِمْ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِي عُلُومِهِمْ رَسَخُوا
قَدْ نَسِخَ الشَّرْعَ فِي عَصُورِهِمْ فَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِثْلَ شَرْعِهِمْ نَسَخُوا (١)

(١) من لزوميات أبي العلاء .

إنهم يجردون العلوم الدينية من روحها ، ثم يجعلونها مطية للاستبداد ،
ووسيلة إلى الحجر على العقول ، مع أن الحرية هي روح الدين الذي ينسبون
أنفسهم إليه . إنهم يريدون علماً يشغل الإنسان عن حاضره ، ويصرفه عن
التفكير في سوء ما انتهى إليه ، ويعزّيه عن حاله الحاضرة الخاسرة بحياة
مستقبلية تعوضه خيراً عما ليس لأحد قدرة على احتماله في هذه الحياة . وهم
يريدون علماً يلهي الناس عن ملوكهم ، أو يدعوهم إلى الرضا بظلمهم ، وإلى اعتقاد
أن ما ينزل بهم من الأهوال والنوائب إنما هو خير لهم ، لأنه بقضاء الله وقدره :

كذب يقال على المنابر دائماً أفلا يميز لما يقال المنبر ؟

وهم يريدون ، في جملة القول ، أن يضحى الآخرون بديناهم من أجل آخرتهم ،
لكأنهم يحرصون على ألا يعملوا بالنصح الذي يسدونه إلى غيرهم ، ويفضلون
أن ينعموا بهذه الحياة أولاً ، وعلى حساب الآخرين بصفة خاصة .

إنهم يخشون أن تغلت الفريسة من أيديهم ، ويسوؤهم ألا تظل العامة
على جهلها وهوانها . فإن في هذا الجهل والهوان ضمانة أكيدة باستمرار نعيمهم
وبقاء تحالفهم مع ذوى الأمر . إذن فكل وسيلة في محاربة العلم الحقيقي مشروعة
بحجة الدفاع عن النفس . ولا يعدم الخليفان أن يجدا من الوسائل ما يقف
زحف المعرفة ، التي تزعم أنها جاءت تحرر الأسرى وتفك الأغلال ! فمن
الممكن أن تسن القوانين التي تحول دون ظهور طبقة متوسطة تتجه إلى تعليم
أبنائها علماً يكفل لهم حياة أفضل من حياة آبائهم ، ومن الممكن أن تُوصد
أبواب الرزق أمام العلماء الحقيقيين الذين ينادون بالإصلاح ؛ بل من المستطاع
أن يضطهد هؤلاء وأن يلتقي بهم في أعماق السجون ، أو ينفوا من الأرض ،

أو تُسبِّحُك دماؤهم ، إذا تبين ألا سبيل إلى رجوعهم عما هم فيه من إثارة النفوس بالدعوة إلى الإصلاح والحرية .

أما رجال الكهنوت الرسميون ، الذين يحسبون أن كل معرفة لا تأتي عن سبيلهم لا بد أن تكون على خلاف مع التقاليد والدين ، فيرون في فكرة الإصلاح الاجتماعي والسياسي خطراً يهدّد كيانهم ؛ إذ أن كل خطوة يخطوها المجتمع نحو الحرية تدنو بهم من الهزيمة . ولذلك لا يتردد بعض هؤلاء ممن لا خلاق له في الحكم بمروق المصلحين ، وقد يكون هؤلاء أفضل منهم منزلة عند الله والناس ؛ بل كثيراً ما يحاربون أهل الفضل والعلم باسم الدين ، ويقفون في طريق تحرير الشعوب بما ينفقونه في قلوب الأمراء من أن إشراك الأمة في تدبير أمرها مضاد لما جرت به تقاليد الأمة الإسلامية من أفراد الملوك بالسلطان ؛ حتى تدخل في روع هؤلاء أن الدين لا يتفق مع بعض النظم السياسية الحديثة التي تطالب بها شعوبهم للنهوض من كبوتها ، وأن الخير كله في أن ينفردوا بالحكم ، حفظاً للأمة من أن تنزلق إلى الثورات والفتن الداخلية .

وفي دولة الجهل والاستبداد ترجح كفة العلماء الأدعياء ؛ لأنهم أقل الناس حياء ، ولأن العلماء الحقيقيين لا يرون في النفاق أو التملق سبيلاً إلى فرض أنفسهم أو علمهم ؛ بل يؤثرون أن يظاؤوا في غمار الناس ، بدلاً من أن ينافسوا من يزعمون العلم لأنفسهم حتى يتقربوا به إلى ملوكهم الطغاة :

وخفَّ بالجهل أقوامٌ فبَلَّغهم منازلاً بسناء العزِّ تلتفع
أما رأيت جبال الأرض لازمة قرارها وغبار الأرض يرتفع ؟

ح - نهاية التحالف :

وعلى الرغم من وقوف رجال الدين الرسميين في طريق الإصلاح ومعاضدتهم للمستبدين ، فمن الحق أن يقال إن المسلمين سيقعون بخير ما داموا على ذكر من أصول دينهم التي توجب عليهم الاتجاه إلى الخالق وحده ، دون حاجة إلى وساطة فريق منهم . ولذلك لم تخل بلاد المسلمين من علماء دينيين يتبعون الحق ، ويأبون الاستكانة للملوك . وهؤلاء هم الأحرار الذين يحملون المشاعل أمام هذه الأمم المنسكوبة بملوكها وعلمائها الأذعياء ، وهم الذين إن كتب لهم النصر عاد المسلمون إلى عزتهم ، وتحرروا من أوهام المشعوذين وطغيان المستبدين . ووجود هؤلاء العلماء الحقيقيين صمام أمن للعقيدة الإسلامية التي لم تخمد جذوتها ، والتي توجد على صفائها في بعض النفوس ، رغم ما لحقها من مسخ وتشويه في نفوس الآخرين . ولذلك نجد أن تحالف الملوك ورجال الكهنوت ، وإن أضر كثيراً ، إلا أنه لم يقض تماماً على كل أمل ، وأن دعوة صادقة إلى الإصلاح كفيلة بأن ترفع نير الذل عن رقاب الناس ، وأن تحررهم من الطغاة ومن المدعين للعلم .

وهذا هو السبب أيضاً في أننا إذا استثنينا الفترة التي استفحل فيها أمر فرقة الباطنية وجدنا أن الإسلام لا يعرف الجمعيات السرية التي تحاول تغيير الأوضاع باتباع أية وسيلة ، ولو كانت الغدروا لاغتيال ؛ لأن من حق كل مسلم أن يقول ما يعتقد خيراً ، وعنده من الآيات والنصوص التي تدعو إلى العدل والإحسان والرفق والرحمة بالرعايا ما لا يستطيع رجال الكهنوت أن يخرجوها عن معانيها ، أو أن يؤاخذوه على الاستشهاد بها ، وإلا أثاروا الناس كافة عليهم . ونقول بعبارة أخرى إن تحالف الملوك ورجال الدين

على ظلم الأمة لا يجد له سند آمن قرآن ولا سنة ، فهو يقوم على غير أساس ، وهو أقل خطراً من التحالف بين هذين الفريقين في بعض الأمم الأخرى .

فالتحالف بين المسيحية والملكية أشد قوة وأعمق أثراً بكثير من التحالف بين الملكية والعلماء الأدعياء عندنا . وفي حين أن النصوص الإسلامية الصريحة التي لا يمكن إخراجها عن مواضعها تقرر أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق نجد أن أقوال كبار الرسل لدى المسيحيين تنص على ضرورة الخضوع للحاكم : فمثلاً يقول الرسول بولس للرومانيين : « لتخضع كل نفس للسلطين العالية ، فإنه لا سلطان إلا من الله ، والسلطين الكائنة إنما رتبها الله فمن يقاوم السلطان يعاند ترتيب الله : » وقد ظن الناس في أوروبا ، حتى قبيل الثورة الفرنسية ، أن ملوكهم ظل الله على الأرض ، وأنهم نواب سلطته ، وكانوا إذا وجدوا فيهم خللاً أو نقصاً رضوا به خوفاً من شر أعظم يحل بهم إذا خلعوا نير طاعتهم ، وذلك كله بفضل رجال الكهنوت عندهم .

وقد أثار تحالف الملوك ورجال الكهنوت نفوس الأحرار من الأوروبيين ، فاتفق هؤلاء على أن ينازلوا هذا العدو المشترك ليجهزوا عليه . غير أن القوة لما كانت في جانب هذا الخصم الرهيب أجمع الأحرار أمرهم على أن يعملوا سراً ، وأن يهيئوا العقول شيئاً فشيئاً للثورة على الاستبداد والمستبدين . فنشأت الجمعيات السرية التي ما زالت تنمو شيئاً فشيئاً ، حتى استطاعت أن تدفع الجماهير إلى الثورات التاريخية الكبرى . ومن أشهر هذه الجمعيات جماعة البنائين الأحرار أو الماسونية . ولم تكن هذه الجماعة حديثة العهد ؛ بل ترجع إلى أصول بعيدة ليس من هدفنا أن نتبعها في مختلف

المراحل التاريخية . وقد نجحت هذه الجماعة في الاستكثار من الاتباع في البلاد المسيحية ؛ لكنها لم تصب نجاحاً كبيراً في بلاد المسلمين ، ذلك أن الإسلام لا يعترف بالكهنوت ، ولا يشهد مساعد هؤلاء إلا في عصور الجهل كما قلنا .

وإن من يطلع على ما كتبه أعداء الماسونية وأنصارها ليفجأه اتفاق الفريقين على أن هذه الجماعة تهدف إلى القضاء على كل من الملكية والكاثوليكية ، وأنها إذا أفسحت صدرها لبعض الملوك ورجال الدين فذلك لأنها تحرص على إرضاء غرورهم بالاشتراك في طقوسها واجتماعاتها ، دون أن تكشف لهم النقاب عن أسرارها التي لا يطلع عليها المنتسب إلى الماسونية إلا في الدرجات الأخيرة منها .

ونحن لا ندعي الإحاطة بكل شيء عن هذه الجماعة . حقاً قرأنا كثيراً مما كتب عنها ، وربما كانت المبادئ الإنسانية التي تنادي بها تخفى وراءها شيئاً لا يعرفه إلا الماسون أنفسهم ، ممن بلغوا أرفع الدرجات في طائفتهم . غير أن من يقف عند ظاهر عباراتهم ومبادئهم يجب عليه أن يعترف بأنهم يمجدون العقل ، ويعملون على تحرير النفوس من طغيان الملوك ورجال الدين . ويكفي أن يقرأ المرء الأقسام التي يحلفها الماسوني عند التحاقه بهذه الجماعة ، أو عند انتقاله في مراتبها ، وبخاصة المراتب الأخيرة — أي من المرتبة الثلاثين إلى المرتبة الثالثة والثلاثين — ليعلم إلى أي حد تهيمن عليهم روح العداة للاستبداد الملكي والكهنوتي . فمن ذلك قسم الدرجة الثلاثين ، وفيه يتعهد من يرتقي إلى هذه المرتبة أن يدوس بقدميه التاج الملكي ، لا على أنه رمز لنوع خاص من الحكومات ، أو لنوع من أنواع استغلال السلطة ؛

لكن على أنه شعار للاستبداد أياً كان نوعه ومظهره ؛ وأن يطأ بقدميه تاج البابا ، لا على أنه رمز لعقيدة أو لدين أو لهيئة كهنوتية ، ولكن على أنه شعار للطموح والتجبر والشعوذة التي تخضع الرقاب لنيروها عن طريق القسوة ، وتقضى على الذكاء عن سبيل الأوهام والأباطيل التي تترعرع في ظلال الجهل ، والتي تعد حليفاً مخلصاً للطغيان . كذلك يصرح الماسوني أكثر من هذا بأنه عدو لاستبداد الحماكين والقسس الذين يقضون على حرية الإنسان ، وحرية الفكر ، وحرية الضمير ، ويعلم أن يكره الظلم ، ويحترم الحرية المطلقة للضمير احتراماً غير مشروط بشرط ، وحرية الفكر ، وحرية الكلام ، وأنه يبغض التعصب والنفاق والزهو واستغلال رجال الكهنوت ؛ وأنه يحتقر الشعوذة وخرافات المتبشرين والسكينة والديماجوجيين .

وفي الدرجتين الأخيرتين يغلظ الماسوني الإيمان على أنه سيحارب الملكية والكاثوليكية حتى الموت ، وأنه لا يؤمن إلا بالله واحد حي هو المهندس الأكبر للكون . ومما يدل صراحة على أن العدو الأول للماسونية هو الملكية الاستبدادية والكاثوليكية أن « ديدرو » ، أحد رجال دائرة المعارف الفرنسية قبيل الثورة ، لخص شعار الماسونية بهذه العبارة ، وهي : « ينبغي أن يشنق آخر الملوك بمصران آخر السكينة . » ^(١) ومن المؤكد أن الماسونية لا تؤمن بالتثليث ؛ بل إنها تذهب في بعض طقوسها إلى تدنيس بعض العقائد المسيحية فتأمر أعضائها بأن يدوسوا الصليب بأقدامهم عند انتقالهم إلى إحدى درجاتها ، كما أنها تمسخ بعض طقوسها : مثال ذلك أنها تقيم ما يشبه العشاء الرباني لدى المسيحيين ، فتقدم لأعضائها حملاً قد ثبتت أطرافه ورأسه بالمسامير ؛ وعند

(١) الأب لويس شيخو في كتابه « المرادفون في شريعة الفريسيين »

البدء في أكله تُرمى هذه الأجزاء على أنها مدنسة. ^(١) وهذا وغيره يفسر لنا العداء الشديد بينهم وبين رجال الكنيسة . وقد نجح الماسون في كثير من البلاد الأوروبية ، واستولوا على مقاليد الحكم ، ونفذوا مبادئهم ، وبخاصة في فرنسا ، ابتداء من الثورة الفرنسية حتى العصر الراهن . ومن أهم مظاهر غلبتهم أنهم فصلوا الكنيسة عن الدولة ، وجعلوا التعليم الحكومي علمانياً ، أى مدنياً بحتاً .

أما ما يرميهم به أعداؤهم من الإلحاد أو عبادة الشيطان بدلاً من الخالق ، فليس لدينا ما يدعو إلى تأكيده أو نفيه . ومن الممكن أن توجد محافل ماسونية ملحدة وأخرى مؤمنة . غير أننا رأينا أعداء الماسونية من رجال الكهنوت يحترفون بأن خصي مهم يقولون بوجود سبب أول منظم للكون ، وإن اختلفوا في تحديد هذه العلة الأولى التي يصفونها ، على كل حال ، بأنها ليست ذلك الإله المستبد الذي يكره كهنة الكاثوليك أتباعهم من الجمللة على الإيمان به . وإذا كنا قد أبجنا لأنفسنا أن نستطرد قليلاً في الكلام عن موقف الماسونية من الدين ، ومن المسيحية بصفة خاصة ؛ فذلك لنبين ، في طريقنا ، أن انضمام أمثال جمال الدين ومحمد عبده إلى هذه الجماعة في فترة من حياتهما ، كان انضماماً صورياً ، بدليل خروج الأول والثاني عليها . حقاً ذهب جمال الدين إلى أن التفرقة بين الأديان إنما ترجع إلى موقف رجال الكهنوت في مختلف الملل ؛ إذ لم يحرص هؤلاء على بقاء الخلاف بين أتباعهم ، وبينهم هم أنفسهم ، إلا لكي يحتفظوا بمكائنتهم ، ويتجروا بالدين لتحقيق مصالحهم . ومع ذلك فإنه يؤكد دائماً أن الدين ضروري لكل مجتمع ، سواء كان هذا الدين إسلامياً

(١) أخذنا هذا المثال من كتاب « ليوتاسكيل » عن الماسونية .

أم مسيحياً أم يهودياً أم ديناً غير موحى به . (١) أما محمد عبده فقد انضم إلى الماسونية، لأنه كان يظن أنه ربما يستطيع بذلك خدمة الإسلام والمسلمين . غير أنه لما عاد من منفاه لم يذهب إلى المحافل الماسونية ولا مرة واحدة . (٢)

٣ — مسئولية رجال الدين

١ — جنناء أو مراءون :

لقد رسخت قدم الاستبداد في الشرق ، وألفه الناس حتى نسوا معنى الحرية ، وأصبحوا يرون أن الطغيان السياسي هو النظام الطبيعي الذي يجب التسليم به والرضوخ له ؛ بل السعى إليه إذا اتفق أن ولي أمر المسلمين كان حاكماً عادلاً رحماً . وسرت عدوى اليأس إلى ذوى الفكر والرأى فرضوا لأنفسهم مكانة لا تختلف عن مكانة العامة ؛ إذ ثببت لهم ، وزهد الناس في العلم ، وخلوا الجو لنفر من المتملقين الذين يجيدون التكيف دائماً بمثل هذه البيئة الاجتماعية المعتلة ، ويعلمون من أين يكتسب الجاه ، وكيف تقتنى الثروة من غير جهد أو عناء ، وبأية وسيلة يدنو المرء إلى مجالس الملوك . أما علومهم الدينية فلا يعرفون عنها شيئاً ذا قيمة ، لأنهم انصرفوا عن فهمها حق الفهم ، ولو أنهم فطنوا إلى روحها لسلكوا مسلكاً غير الذى ارتضوه لأنفسهم . غير أن ذلك لا يمنعهم أن يكونوا غاية في الصرامة إذا طلب إليهم إصدار حكمهم في أحد أفراد الرعية ، ولا سيما إذا كان ممن لا يرتضى مسلكهم في التقرب أو الخضوع للمستبد ؛ وكأن هؤلاء هم الذين قال فيهم أبو العلاء :

(١) أنظر في هذه المسألة كتابنا عن جمال الدين الأفغانى : صفحة ١٣٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر من صفحة ٤٠ إلى ٤٣ .

نادت على الدين في الآفاق طائفة يا قوم من يشتري ديناً بدينار
جنوا كبائر آثام وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد في النار
فإذا دنوا من مجالس الملوك ، اصطنعوا المداجاة والنفاق ، وأخذوا
يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وتسابقوا إلى الحاكم المستبد يسبحون
بحمده ، ويظهرون له ولاءهم ويعلمون عن استعدادهم للسير في ركابه . فكان
من الطبيعي أن تتسع أرزاقهم ، ويمتد نفوذهم لقاء نصيحة السوء يزجونها
في غير تكلف لولى أمرهم السادر في غيه .

أما الآخرون ممن منعهم الحياء من بيع أرواحهم للشياطين فقد قعد بهم
الجهن والخوف عن الاشتراك في الحياة العامة للتخفيف من وطأة الظلم التي
يشعر بها المستضعفون في الأرض . لقد شهدوا كيف ترتفع قواعد الظلم
والعسف ، وتنتصر دولة الباطل فلم تطاوعهم ألسنتهم على الدعوة إلى الحق
والعدل . إنهم يرهبون بطش الحاكم ، ويخشون نزق وسفه الأعداء ممن
ينتسبون إلى طبقتهم ، فيؤثرون الصمت وهو نوع من الرضا ؛ ويحتجون
على الإثم والعدوان بقلوبهم وهو أضعف الإيمان ؛ ويرغبون عن النصيح
وإسداءه لأنهم موقنون أنه سيذهب أدراج الرياح ، ولأنهم يعلمون
أو يحسبون أن الناس فقدوا ثقتهم بكل ناصح وداع إلى الحق لكثرة
ما سمعوا وخدعوا ، وغرر بهم باسم الدين ، حتى اشتبه الأمر عليهم ،
وعسرت عليهم التفرقة بين أنصار الحق ودعاة الباطل ، فرضوا آخر الأمر
أن يصموا آذانهم عن سماع النصيح أياً كان مصدره .

فكيف لذوى الحل والعقد من المسلمين الذين تتقطع أنفسهم حسرات على
ما انحدر إليه أبناء ملتهم أن يتطوعوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

إنهم يرون المنافقين المداحين هم السابقون الأولون ، وهم الأخيار المقربون ؛
فيملاً عليهم الجبن أنفسهم ، ولا يخطر لهم خاطر أن يكشفوا عن ادعاء هؤلاء
المهرجين حتى يعلم الخاصة والكافة نفاقهم واتجارهم بالدين . ولو جال بخیال
أحد منهم أن يهب لمقاومة هؤلاء العلماء المتملقين لما لبث هذا الخيال في
خاطره لحظتين : إنه يظن أنه من الحق والطيش أن يقف وحيداً في طريق
الباطل ، وأن يدعو إلى الهدى في أمة من الضالين ؛ إنه لو فعل لأصبح هدفاً
لكل سهم يأتيه من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى ، وضحية تقدم على
مذبح مطامع ذوى الخطوة لدى الحاكم المستبد ؛ إنه يحسب أنه لو قام يدعو
إلى الحق لمرب به الناس غير حافلين ؛ بل ربما وجدوا أن ما قد ينزل به من
أشد النوازل والمصائب جزاء عادل لتهوره وتهجمه على مقام من يجب أن
تحنى له الجباه حتى تقبل الرغام .

ثم قد لا يعدم ذو الضمير الحى من يسخر منه لضيق عقله ، وفساد بصيرته ؛
إذ كيف لعامل يعيش في دولة البغي والملق أن يجاهر برأيه الحر ، وأن يطلب
الإصلاح بعد أن أنسدت مسالكه ، وانقطعت وسائله ؟ أما كان أولى به ،
لو كان عاقلاً أن يرتضى لنفسه ما ارتضى رفاقه لأنفسهم ، وألا يجرؤ على نصيح
من لا يجدى النصيح فيه ؟ أو لم يكن من حسن السياسة ألا يلقي بنفسه إلى
التهلكة ، وقد كان الطريق أمامه معبداً نحو ما ينعم به أقرانه ممن عرفوا كيف
تكتسب ثقة المستبد ، وكيف تستنزع لقمة العيش من أفواه الجاعين ! لقد كان
له أن يتبع سبيلاً سهلاً مُعبداً ، فأثر أن يسلك طريقاً وعراً تكتشفه الصعاب
من كل جانب ، وتغشاه ظلمات بعضها فوق بعض ؟ أو لم يكن من الخير له

أن يخذل الحق ، وأن يسلك سبل الباطل ، وأن يدع نصيح الملوك جانباً ،
وأن يتملقهم وينال أجره على ذلك ؟

تلك هى الهواجس التى تعتمل فى نفس العالم الجبان الذى يأبى النفاق
ويكره الظلم ، ويشعر بالرحمة للبؤساء من بنى ملته . ولكنها هواجس تمر
بالخاطر وتسبح للخيال ، ثم تنقشع ويرضى صاحبها بأن يدع العلم لهؤلاء
الخذاق من المتعممين الذين كتبت لهم الحياة الطيبة فى كثير من البلاد
الإسلامية عندما ارتضوا أن يتحالفوا مع المستبد ، وأن يتخذوه ولياً
لنعمتهم يمنحهم المال بيد ، والدرجات العلمية بيد أخرى ، ولا يطلب إليهم
شيئاً إلا أن يخالفوا ضمائرهم ، إذا اتفق أن تردد فيها صدى من أصداى الحق ،
وإلا أن يكونوا له أبواقاً تمجد أعماله وتحبب إلى الرعية الرضا بنقائصه .
وهل لمن يدعى العلم مطمح أسمى من هذا المطمح : علم ومال بغير عناء ؟
لقد ساهم رجال الدين من الأتراك بمثل هذه الوسائل فى تحطيم أركان الخلافة
الإسلامية ، وساعدتهم على ذلك أنهم وجدوا فى أحلك عصور الاستبداد ،
وعرفوا كيف ينالون مكائدهم فى قلوب السلاطين بملقهم ووسواسهم . وكانت
نتائج هذا المسلك هو ما نراد من تفكك الدولة الإسلامية وسقوط كثير من
أجزائها فى قبضة دول الاستعمار . كل ذلك لأن رجال الكهنوت كانوا لا يعنون
بمستقبل المسلمين عشر معشار ما يعنون بأنفسهم . إنهم يفضلون أن تتمزق
الأمبراطورية العثمانية بسبب ضعفها واستبداد خلفائها وجبن أو نفاق علمائها ،
بدلاً من أن يفقدوا ما اكتسبوه من سلطان ونفوذ .

لقد كان شيخ الإسلام هناك يحرض السلطان عبد الحميد فى أواخر القرن
الماضى على عدم الاستماع إلى دعاة الحرية ، والمنادين بإدخال النظام النيابى ،

وكان يحضه على الوقوف موقف الحازم من هؤلاء المتمردين ، بحجة أن هذا النظام الذى يطلبونه لا يصلح للمسلمين الذين لا يستقيم لهم ملك إلا إذا كان على رأسهم مستبد عادل ، مع الاستبداد والعدل لا يجتمعان مطلقاً . كذلك كان ينظر بعين الرضا إلى جيوش الجواسيس التى أحاط بها السلطان نفسه ، ويطرب عندما يعمل هذا الأخير سيف الغدر فى رقاب الأحرار ؛ ذلك لأن شيخ الإسلام هناك كان يود البقاء دائماً بجوار عبد الحميد يفسر له أحلامه ، ويشير عليه بالأساليب التى يجب أن تتخذ لإنقاذ الدولة المشرقة على الفناء ؛ كل ذلك لأنه كان يرى فى مجيء الحرية نذيراً بالقضاء على منزلته لدى سلطان تركيا . (١)

ومن قبل ، أى منذ قرنين من الزمان ، لم يجد علماء الدين فى تركيا غضاضة فى أن يعفوا أنفسهم من مهمة تقويم الملوك ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد ؛ بل نجحوا فى أن يضعوا مقاديرهم فى يد السلطان ؛ لأن ذلك كان خيراً فى ظنهم من أن يؤدوا للدين أمانته . وقد اتخذوا لأنفسهم — كما يذكر لنا عبد الرحمن السكواكى — قانوناً سموه طريق العلماء ، وهو القانون الذى يجعل الدرجة العلمية منحة يناها من ليس لها أهلاً ؛ بل قد يناها الجهلة والأطفال والأميون . « فإنه يكون طفلاً فى المهد وينعت ، فى منشوره الرسمى من قبل حضرة السلطان ، بأنه أعلم العلماء المحققين ، ثم يكون فطياً فيخاطب بأنه أفضل الفضلاء المدققين ، ثم يصير مراهقاً فيعطى المولوية ويشهد له بأنه أفضى قضاة المسلمين ، معدن الفضل واليقين ، رافع أعلام الشريعة والدين ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، ثم وشم حتى يصعد ، فيوصف بأعلم العلماء

(١) أنظر كتابنا : جمال الدين الأفغانى صفحة ٨١ ، ٨٢ .

المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ، ينبوع الفضل واليقين ، إلى آخر ما في تلك المناشير من الكذب المشين .»

فإذا ربيع هؤلاء الجهال على عروش العلم ردّوا إلى السلطان أكثر مما خلعه عليهم ، فوصفوه بأنه « المولى المقدس ذو القدرة ، صاحب العظمة والجلال ، المنزه عن النظر والمثال ، واهب الحياة ، ظل الله ، خليفة رسول الله ، مهبط الإلهامات ، مصدر الكرامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين ، ولي نعمة الثقلين ، ملجأ أهل الخافقين إلى غير ذلك من مصارع الشرك والكبرياء والمهالك . »

وعلى هذا النحو يتبادل الخليفان العون ، وتضيع مصالح العباد وتركز ربح الدين وسط مظاهر النفاق والملق . « ثم إن هؤلاء المتعممين ما كفاهم هذا القانون ، فألحقوه بقانون آخر سموه : « توجيه الجهات » ، جعلوا فيه التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية ، كالعروض تباع وتشترى ، وتوهب وتورث ، وما ينحل منها نادراً عن غير وارث يبيعها القضاة لمن يريدون ويتكرمون بها على المتملقين . وبهذا القانون انحصرت الخدم الدينية في الجهلاء والمنافقين . »^(١)

فبفضل العلماء الجبناء والأدعياء المنافقين ، مسخّ الدين في نفوس أهله ، وضاع العامة بين ملوكهم وعلمائهم ، وخسر الناس دينهم ودنياهم ، إلا نفرأ قليلاً ضحوا بآخرتهم من أجل عاجلتهم . وبمثل هذا الخسران تتدهور الأمم ، وترسف في قيود الذل ، وتتطلع بآمالها فلا تجد منفذاً لإصلاح ، فتقلب

(١) أم القرى ص ٤٠ ، ٤١ .

إلى الوراء لترى مُلكاً زائلاً ومجداً ضائعاً ، فلا تجد سوى عن مصابها
سوى البكاء على ما لا سبيل إلى رده ، لا بالآئين ولا بالنجيب ، ثم تتوالى
البطون وتتابع الأجيال ، فيستفحل الداء ، ويعظم الفساد ، وينقطع الأمل ،
ويتعذر العلاج ، ولكن يستمر البكاء حيناً من الدهر ثم تجف الدموع ،
وقد نسي الباكي سبب بكائه ، ورضى بما رماه به القضاء والقدر فلا يحزن
لما يحل به من مصاب لكثرة ما أصيب . وساعد جبن العلماء على فتور الطمعم
ففسد العلم ، وقل أهله ، وسيطر الجهل غير منازع ، وأصبح الناس يعتقدون
أن الاهتمام بالأمور العامة نوع من الفضول والتطفل . فغداً كل فرد من
أفراد الأمة لا يشغله شغل سوى نفسه وحفظ حياته ليومه ، لا يعنيه
في قليل أو كثير أن تضل هذه الأمة أو تهتدى .

ب — محاربة الإصلاح :

وإذا كتبت الغلبة في الأمة لجماعة المنافقين من العلماء ومن يتبعهم
من السذج والجهلة — وكثيراً ما جرت الأمور على هذا النحو — حورب
الإصلاح ، وانقطع الأمل في التجديد والتحرر من قيود الجمود والتقليد .
وقد شهدنا كيف حارب الناس طائفة المعتزلة ورموها بالكفر . وقد سمعنا
كيف ضاق الأزهر في القرن الماضي بآراء جمال الدين ورماء بالإلحاد ،
وكيف هاجت نفوس أهله عندما جاء محمد عبده ينادى بضرورة التجديد
في دراسة العلوم الإسلامية ووجوب العناية بالعلوم النظرية والعملية التي
كانت سبباً في تقدم الغرب .

وليست محاربة الإصلاح في مثل هذه الحال أو تلك بالأمر العسير ؛

إذ يكفي أن ينطق أحد المتعممين أن الجغرافيا والرياضة والطبيعة والفلسفة علوم كفر وزندقة ، وأن يقرر أن الداعين إلى دراستها من المارقين واخوارج ، حتى يهرع المستبد إلى نجدة ، وتهب العامة لندائه ، وتصدق طبول الحرب ، فتخترع التهم ، وتكال الشتائم ، وتبتكر ألوان جديدة من السباب وتقوم دنيا الجهل وتقعده ، ولا تهدأ نائرة القوم ، إلا إذا ركبت ريح الإصلاح . وعندئذ ينقلب كل إلى أهله فرحاً مسروراً ، يزهو بما فعل : ألم يقف في وجه الإلحاد ؟ ألم يساهم قدر طاقته في القضاء على شرذمة الخونة المتفرنجين الذين أرادوا تغيير الأوضاع ومسح الدين ، وفتح باب الزيغ والبدعة ؟ وما الدين عند هؤلاء إلا الرضا بالمصائب والصبر على المكاره ، والسير الدليل على آثار السابقين المدققين المحققين من العلماء الذين أفنوا عصارة عقولهم في وضع أسس العلم النهائي الذي لا علم بعده ، ويريدون بهم هؤلاء الذين ألفوا كتبهم في العقائد والنحو والتفسير ، وبخاصة من ألف منهم في عصور التدهور والجهل كتباً تبدو في أعين علماء العصور الأخيرة كما لو كانت أسس ما أنتجه العقل البشري ، مع ما تمتلئ به من مشا كل مزعومة وحلول واهية وما تفيض به من خرافات والإسرائيليات التي تحجب الحقائق البديهية التي جاء بها الكتاب والسنة . (١)

ولو نبغ من بين هؤلاء العلماء المقلدين رجل أبي أن ينكر عقله وأن يردد ما قاله السابقون ، فرأى أن العلماء يجتهدون في ضلال ، وأنهم يفنون العمر في دراسة علوم قد تحجرت وذهبت روحها فلم تبق فيها إلا عبارات معقدة ، وصيغ مكررة - نقول لو فطن أحدهم إلى ضرورة مسابقة الزمن والاقتباس من العلوم الحديثة ، والعودة إلى المنابع الإسلامية الأولى ،

(١) بيننا في مقدمتنا الكتاب مناهج الأدلة مقدار اعتماد علماء الكلام عن روح القرآن .

فقام ينادى بالإصلاح ، لعجبوا لأمره ، وأنكروا عليه غرابة تفكيره ،
وتوجسوا منه شرآ . فإذا ألح في طلب الإصلاح استمعوا إليه قليلا ، ليروا
ماذا يكون من شأنه : فإن هو طالب بتحقيق شيء من الكرامة لهم بأن رأى
ضرورة زيادة رواتبهم قالوا حبا وكرامة ؛ فإذا نصح بإدخال نظم الامتحانات
كما هي الحال في المدارس أو الجامعات الأوروبية بدأ الريب يدب إلى قلوبهم ،
فقالوا : « أهذا هو الإصلاح الذي كادت آذاننا تصم من صخب الدعاء له ؟
وما جدوى هذه النظم وما عسى أن تحققه من خير ؟ ألم تخلد معاهدنا على
الزمن ؟ فقيم التجديد وتقليد الأجانب ؟ لقد كانت نظمنا القديمة أفضل النظم ،
وقد تخرج في ظلها مئات العلماء الأفاضل الأجلاء . إن هذا الإصلاح
ما هو إلا خدعة يراد بها القضاء على التقاليد الإسلامية التي ورثناها جيلا
بعد جيل . » ومع ذلك فر بما قبلوا هذه النظم بعد كثير أو قليل من المساومة
لكسب بعض المزايا الجديدة ، أو بعد أن رأوا أنها ترتبط ، من قريب
أو بعيد ، بإصلاح حالهم ، وزيادة رواتبهم .

فإذا قيل لهم بعد ذلك إن الإصلاح ينبغي ألا يقف عند المظهر والشكل ،
وإنه لابد من أن يتطرق إلى الموضوع واللب ، أى إلى العلوم التي تدرس في
معاهدهم ، بحيث يفسح المجال للجديد ، وبحيث يهذب وينقى القديم للتخلص
مما لا جدوى منه ، دون القضاء على الأصول الأولى التي لا يندأ أحد عن
الاعتراف بها ، والتي لا تتطلب من الباحثين أن يثيروا بصدها مشاكل
لا حصر لها ، تنبت عادة من خلاف لفظي أو ترتب على سوء الفهم ، ولكنها
تزدهر وتتفرع وتؤدي إلى مشاكل وعقائد جديدة في ظل الجمود والجهل -
نقول إذا دعاهم إلى إصلاح اللب والعودة إلى المصادر الأولى اضطربت

خواطرهم ، واثارت ثأرتهم ، وعلاضجيجهم ، وهبوا جميعاً لمحاربة هذا العدو الذى يلبس ثياب الصديق ، وهذا المارق الذى خرج على الإجماع ، وهذا الملاحد الذى يدعو إلى الاجتهاد ، لا شىء إلا للقضاء على التراث القديم بحجة الإصلاح والتطور !

هذا هو موقف العلماء الرسميين من فكرة الإصلاح منذ أن ارتضى المسلمون أن ينصروا أهل الرواية والتقليد على أهل الفكر ، وأن يسدوا باب الاجتهاد ، وأن يقنعوا بما يردده الأولون ، أى منذ أن كتب لأتباع الأشعرى أن يغلبوا المعتزلة على أمرهم . وهذا هو ما حدث فى أغلب الأقطار الإسلامية منذ أن تفرق الشمل ، وتصدع الصرح ، وتششت الفكر ، ودبت مظاهر الانحلال فى هذه الأمة الكبيرة .

ومن قبل رفض جمال الدين ما زعمه الفقهاء من أن باب الاجتهاد قد أوصد عند أهل السنة ؛ فلا مجال لمجتهد أو باحث . فقد ذكروا يوماً فى مجلسه رأياً للقاضى عياض ، ورأوا فيه أنه غاية ما يمكن أن ينتهى إليه الاجتهاد ، واشتد تمسكهم به حتى أنزلوه منزلة الوحى بأنه لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقال جمال الدين : « يا سبحان الله ، إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب إلى الحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة ؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم . ^(١) قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا

(١) قال كلود برنارد قولاً شبيهاً بذلك : إن احترام الآراء المتوارثة احتراماً يقوم على

المخاكة ، وسوء الفهم معناه اتباع سبيل الأوهام والأباطيل . وقد يكون ذلك عقبة حقيقية =

وقالوا . . . وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتبدل
الأحكام بتبدل الزمان . ، ولما اعترض عليه بعض جلسائه بسد باب الاجتهاد
قال : « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أى
إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ؟ أو أن
يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهوه منهما ؟ . . .
نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ، ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا . .
ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن أو تمكنوا
من تدوينها فى كتبهم . » (١)

وهذا العداء للاجتهاد والإصلاح هو ما حدث ، ويحدث فى عصرنا الراهن ،
وهذا هو ما وصفه الأستاذ أحمد أمين عندما عرض لموقف رجال الأزهر
منذ خمسين عاماً من دعوة الإمام محمد عبده إلى إصلاح هذه الجامعة الإسلامية
الكبرى حتى تسير الزمن ، وحتى لا يضطر الناس إلى ترك الدراسات
الدينية التى لم تعد تسير جنباً إلى جنب مع الدراسات العلمية الحديثة « يا لله
وإصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد من قبل ونجح ، ولو لا الشيخ محمد عبده ، لأن
كل المحاولات كانت تنتج إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت
عن سبيل استرضاء أهله ، والخوف من أى قلق واضطراب ، والأزهريون

== فى سبيل تقدم العلم ، وهو فى الوقت نفسه مضاد للمثلة التى ضربها لنا عظماء الرجال فى
جميع العصور ، فليس عظماء الرجال فى الحقيقة سوى هؤلاء الذين جاؤا بأراء جديدة ، وهدموا
الأخطاء ، دهم لم يحترموا شهرة سابقيهم . وهم لا يفهمون كيف يسلك الآخرون تجاههم مسلكاً
مخالفاً لـ . أنظر كتابنا المنطق الحديث ومناهج البحث ، ط ٢ ، ص ٢٤ .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

كان يتزعهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته
كفراً ، وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً ، وأفنت عمرها في فهم لفظ ،
وتخريج جملة ، وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا . فإذا أتى مصلح سمى أهله
الجوَّ حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة
الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين إلى التجديد ، وحرصوا
على مراكزهم أن يكتسحها الإصلاح وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ،
وبجانهم طائفة أخرى تؤمن القديم عن صدق وإخلاص ، ولكن عن
ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ؛ هم من جنس ما قال أهل الحديث عن بعضهم
« تتطلب دعوتهم ولا تقبل شهادتهم » . فتتجمع كل هذه العوامل فيضطر
المصلح - أخيراً - إلى الانسحاب إن غضب ، أو المداراة والمسامحة والرضا
بالموجود إن لم يغضب ، وتضطّر الحكومة أن تتخلى عن إصلاح
الأزهر حياً في السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضاً ، وتنشئ بجانبه المعاهد
لمعالي اللغة العربية والقضاء الشرعي ، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها ؛
إذ أبجزها الإشراف على الأزهر .. (١) .

وهذا مثال نذكره ، ولا نريد به طائفة خاصة ؛ إذ من الممكن أن يجد
المرء أمثلة شبيهة به في البلاد الإسلامية الأخرى ، وإنما سقناه لكي نستنبط
العلة منه ، وهي أن ثورة علماء الدين على فكرة الإصلاح قد تبلغ حدّاً
يجعلنا لانصف خروج بعض تلاميذهم عليهم بأنه مروق أو جحود ؛ بل يحفزنا
إلى النظر إليه على أنه غضبة للحق ونوع من الوفاء للدراسات الإسلامية

الحققة ؛ إذ يتجلى في مثل هذا النقد المرير الذى يسوقه الأستاذ أحمد أمين لون من الحسرة على ما وصلت إليه المعاهد الإسلامية عندما تشبثت بعلوم أو شبه علوم كانت تدرس فى عصور الانحطاط والتدهور ^(١) ، ولم تفتن إلى أن العلوم الحديثة التى تحاربها بكل هذا العنف ربما كانت أكثر عوناً لها من علومها العتيقة على إظهار الدين الإسلامى فى مظهره الحق ، وهو الدين الذى لا يحارب العلم ، ولا يناهض العقل ؛ بل يجد فيهما خير أعوانه .

هذا إلى أن العلماء الرسميين لا يريدون الإصلاح لا لأنفسهم ولا لغيرهم . وبقدر ما ينشطون إلى الدفاع عن مصالحهم الخاصة يرى المرء مع كثير من المصلحين أنهم لا يؤدون واجبهم الأول على النحو الذى كان ينبغى لهم أن يفعلوا . فهم مقصرون فى الدعوة إلى التمسك بأصول الدين والأخلاق ، وترويض النفوس للقيام بحمليل العمل ، وهم بعيدون عن الغاية التى من أجلها وجدت طائفتهم . وهم لا يحيون رابطة دينية ، ولا يفكرون فى القضاء على أسباب الخلاف بين أمراء المسلمين أو ملوكهم ، ولا يتخذون المساجد والمعاهد سبيلاً إلى بث روح الوحدة الإسلامية ، مع أن كل مدرسة وكل مسجد يجب أن يكون « مهبطاً لروح حياة الوحدة . » ثم لا يخطر لهم خاطر ، كما يقول جمال الدين فى أن يخلقوا لهم مراكز فى مختلف الأقطار « يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، يأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشد التنزيل وصحيح الأثر . »

فهل فكروا فى أن تكون أيام الجمع موسماً للتعارف والتآلف وتذاكر

(١) قال أبو العلاء : وقالوا فقيهه والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كاوم
أتوك بأصناف الخبال وإنما لهم غرض فى أن يقال علوم

ما حل ببني ملتهم ، والتدبر في وسائل النهوض والإصلاح ، والعمل على نشر التعليم ، وتصحيح الآراء ، وتطهير الدين مما شابه من البدع ، والوقوف في طريق الآراء الإلحادية التي تنتشر في البلاد الإسلامية لعدم وجود ثقافة دينية كافية بها ؟ إنهم لو تشاوروا وصرخوا جانباً يسيراً من جهودهم لخبر المسلمين ، بدلاً من أن يبذلوا جميعها لنصرة المستبدين ونصرة أنفسهم لفعلا شيئاً كثيراً ، أو لأدوا في الأقل واجباً هو أمانة في أعناقهم « إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة ، وهي أقرب الوسائل ؛ وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة . » (١) وهي في أغلب الأمر جماعة ليست من العلماء الرسميين ؛ بل من هؤلاء الذين يدفعون هؤلاء العلماء دفعاً إلى حضور المؤتمرات الإسلامية .

ولو أصر العلماء على ألا يشغلوا أنفسهم بأمور السياسة الإسلامية العامة ، وعجز الدافعون عن دفعهم إليها قسراً ، ولو قعدت بهم هممهم واختلاف آرائهم عن الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين في مختلف أقطارهم وإلى القضاء على الخلافات التي فرقت بينهم فجعلتهم أهل سنة أو شيعة - نقول لو رفضوا أن يقودوا الجماهير من أوجهة السياسية لبقى مجال العمل واسعاً أمامهم لو شأوا ؛ إذ يجدون أمامهم حقلاً بكرّاً ، وهو النهوض بالناحية الأخلاقية ، ولو بذروا في هذا المجال بذرة صالحة لالتفت حولهم القلوب ، ولارتفعت مكانتهم في نفوس الكافة ، وللحقوا في هذه الناحية برجال الدين في الملل الأخرى ممن قد يجتهدون في ضلال من ناحية العقيدة ، ولكن يأتون بالعجب العجاب من الوجهة الاجتماعية الإنسانية . فإن هؤلاء

لما رأوا أن أبواب النفوذ والسلطان قد أوصدت في وجوههم اتجهوا إلى العامة يرشدونها إلى أمور دينها ، ويهذبون أخلاقها وطباعها قدر طاقتهم ، مما ينهض بها ، وينتهي آخر الأمر بنهضتها السياسية والاجتماعية . ولقد فطن أصحاب العروة الوثقى ، إلى « أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البنائية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به . . . إلا إذا قام رؤساء الدين وحماته وحفظته بأداء وظائفهم من تبين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ، ودعوة الناس إلى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها . . . أما إذا أهمل خدمة الدين ووظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالهم ضعف اليقين في النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة ، وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلمت الحاجات المعيشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى . » (١)

ح - روح العداء للعلم :

وقد ظن العلماء الرسمىون أن العلم يجب ألا يخرج عن دائرة الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل في العقائد ، وهو ما يسمونه علم الكلام ، وربما أباحوا قليلا من معرفة الحساب للاستعانة بها في علم الميراث . أما العلوم الأخرى من جبر وهندسة وعلم طبيعة وكيمياء فإنها تبدو لهم غير جديرة بأن تسمى علوماً . وإذا عرِضت عليهم نتائج البحوث العلمية حاولوا إرجاعها إلى بعض ما اهتدى إليه السابقون من أئمتهم ، كما أنما وقفت عجلة

الزمن عند عصر معين كمل فيه العلم ، ولم يترك الباحثون فيه شيئاً إلا وسبقوا إليه اللاحقين . حقاً كان العرب قد أخذوا بأطراف هذه العلوم ، واخترعوا بعضها كعلم الكيمياء والجبر ، لكنهم لم يفعلوا سوى أن بدأوا بدءاً هيئياً ، ومع ذلك كان هذا البدء يبشر بالخير ، لولا أن زحفت موجة الجمود ، فوقفت في طريق هذه العلوم وحارب أصحابها فيما بعد على أنهم مارقون ومشعوذون ، فماتت روح البحث ، وقضى على الحقول ألا تعلم شيئاً آخر سوى العلوم الدينية وبعض العلوم التي تعد وسائل لها كعلم النحو والصرف والبلاغة والعروض . هذا إلى أن هذه العلوم الأخيرة قد تطرق إليها الفساد والخلل في أثناء عصور الجمود ؛ إذ اختلطت بآراء منطقية وفلسفية فوقفت في طريق نموها ، ودعت إلى تحجرها منذ عدة قرون ، حتى انقطعت الصلة بينها وبين الحياة الاجتماعية والعملية التي كان يجب أن تظل دائماً أداة جيدة للتعبير عن جميع دقائقها . وهكذا أصبحت الثقافة الإسلامية العربية التي يحرص عليها هؤلاء العلماء ، والتي يرفضون كل إصلاح بحجة المحافظة عليها ، ثقافة مزيلة لا تعتمد على الأصول الإسلامية الأولى ، ولا تتصل بالحركة العلمية ، فلا تشبع عاطفة ولا تروى غلة ؛ وإنما هي خليط من المناقشات والجدل الذي لا جدوى فيه ، وهي لا تزيد المرء علماً ؛ بل ربما قضت على ما لديه من استعداد جيد . وهذا هو السبب في هبوط المستوى العلمي في بلادنا على الرغم من طول مدة الدراسة ؛ وفي أن هؤلاء الذين لا تنجح مثل هذه الثقافة في تشويه عقولهم قد ينبغون نبوغاً باهر أمتي أتيح لهم أن يتصلوا بثقافات أكثر حيوية وأغزر مادة وأقوم منهجاً .

أما العلوم الأخرى التي قضى الفقهاء أنها لا تدخل في نطاق الثقافة الدينية

فقد أحاطت بها هالة من كراهية القوم ونفورهم ؛ إذ المرء عدو ما يجهل .
ثم أصبح الاهتمام بتحصيلها موضع نقمتهم ، كما أصبح المشتغلون بها هدفا
للقصد والتجريح الذى ينتهى عادة بالرمى بالكفر أو الفسوق . لكن هذه
العلوم التى ضاق بها فقهاء المسلمين انتقلت غصنة الإهاب إلى أوروبا ، وفطن
إليها بعض رجال الفكر هناك ابتداء من القرن الثالث عشر ، ونخص بالذكر
من هؤلاء روجر بيكون الذى يعد أمير الفكر الحقيقى فى القرون الوسطى ؛
فهو الذى وضع البذرة الأولى للتفكير القائم على الملاحظة والتجربة هناك ،
بعد أن اطلع على الثقافة العربية ، واهتدى إلى أهم ما تنطوى عليه هذه
الثقافة من الأصول التى يمكن أن تعتمد عليها العلوم التى تدرس الظواهر
الطبيعية . ذلك أنه لم يهتم بفلسفة أرسطو التى نقلها العرب ، ولا بالمنطق
الذى ظن الأوروبيون فى عصره أنه العلم النهائى الكامل ؛ وإنما وجه عنايته
إلى المحاولات التجريبية الأولى التى قام بها بعض علماء العرب فى علم الكيمياء
وفى فنونهم الأخرى . فقام ينادى فى أشد عصور الجهل حاسكة فى أوروبا
بأن الحقائق العلمية لا يمكن أن تأتى من مصدر آخر سوى الملاحظة
والتجربة ؛ لأن التجربة تكفى نفسها بنفسها ، فى حين أنه لا قيمة للحقائق
المنطقية إلا إذا كانت مطابقة للواقع ، ولا للآراء الدينية إلا إذا كانت على
وفاق مع العقل .

وقد اختمرت فكرته هذه عدة قرون فى عقول أهل أوروبا ، ثم
ازدهرت فجأة بعد طور اختارها ، فكانت تلك النهضة العلمية الكبرى التى
حمل لواءها فرنسوا بيكون وجاليلى ونيوتن وآخرون كثيرون ، والتى آتت
ثمارها فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، والتى تنبئ بأن أمامها أفقا بكل

الخيال عن الإحاطة بها ؛ فإن الكشف العلمية التي اهتدى إليها العلماء منذ القرن السادس عشر حتى الآن توحى إلينا أن العلم لم يدرك بعد غاية تطوره . وقد نمت هذه العلوم في أوروبا وأدت إلى نتائجها العظيمة التي نلناها في الفارق الكبير بين حضارتهم وتأخرنا ، وقوتهم وضعفنا ، وعلمهم وجهلنا . ومع أننا ننتلذذ الآن على الغرب في كل شيء يتصل بالحياة العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية فإن علماء الدين عندنا ظلوا ، حتى أواخر القرن الماضي ، يحاربون العلوم الرياضية والطبيعية ، ويصفون الداعي إلى دراستها بالكفر والزندقة . ومن يدري فلعل بقية من علماء هذا العصر تصر على عداوة هذه العلوم ، وترى فيها خطراً على الدين ، فإذا هي أكرهت على تدريسها في معاهدها شوهتها أو اكتفت بفشورها اعتزازاً بالقديم وأهله ، أو عجزاً عن فهم الجديد ومتابعته ؟

إنهم يخافون العلم الحديث ، ويقولون إنه قد يوشك أن يفسد على الناس عقائدهم . غير أن هذا ليس بمسلك الدفاع عن العقيدة الحقة ؛ لأن العقيدة التي تؤثر الحياة في ظلام الجهل والجمود ، وتخشى أضواء العلم ، لا يمكن أن يقول أصحابها إنها أسلم العقائد وأقربها إلى العقل . إنهم يسيئون الدفاع عن عقائدهم ويرمون دينهم بما ليس فيه ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم حفظته وحماته ، ولو أنهم فطنوا إلى حقيقة دينهم لعلموا ، كما يقول جمال الدين : « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية . فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون ، والقرآن يحب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيقي خصوصاً في الكليات . »

هذا إلى أن محاربة العلم دليل قاطع على جهل هؤلاء العلماء . فإن تقدم العلوم الحديثة في أوروبا صرف كثيرا من الطبقة المتعلمة فيها عن عقائدها ، فأصبحوا أقرب إلى الإيمان بالله واحد . وأكثر استعداداً لقبول دين عقلى يحض على البحث النظرى ويتسع صدره للدراسات العلمية والفلسفية . فإذا ألقوا ببصرهم نحو الإسلام فجأهم الطابع العقلى الذى تتسم به عقائده البديهية ، فظنوا أنه الدين الذى يبحثون عنه . لكنهم متى رأوا حال أهله وخاصة علماء الدين منهم ، وعرفوا عن هؤلاء موقفهم من العلم ، لم يجدوا ما يحفزهم إلى الإيمان بهذا الدين الذى يحارب أتباعه العلوم باسمه ؛ بل ذهب رينان إلى القول بأن أوروبا لم تفد شيئاً من الثقافة الإسلامية وما حملته إليها من فلسفة اليونان ؛ فإنهم نقلوا إليها هذه الفلسفة مشوهة ومحرقة . ومع ذلك فإنه يعترف بأن دينهم يحتوى على مثل عليا رفيعة كثيرأ ما حُببت إليه التفكير فى اعتناق الإسلام ، غير أن أهله يعتقدون أن البحث فى العلم نوع من الكفر . وهذا هو ماصرفه عن اعتناق هذا الدين لما حسب أنه يناهض العلم والفكر . ونرى من جانبنا أن مسلك علماء المسلمين الجهال تجاه العلم فى عصور التدهور ربما كان أحد الأسباب التى دفعت رينان إلى هذا الغلو .

والعلماء المتأخرون أكثر وزراً من سابقهم الذين يقلدونهم فى عداوتهم للمعرفة العلمية الدنيوية ؛ لأنهم يعيشون فى عصر النهضة العلمية الكبرى ، ثم لا يرون ضرورة الاطلاع عليها فضلاً عن المساهمة بنصيب فيها . وكان من اليسير عليهم ، لو شاؤوا ، ألا يقابلوا هذه النهضة بروح الريب ، وألا يقفوا منها موقف الحذر ؛ بل كان أولى بهم أن يتخذوا منها فى الأقل موقف الحياد المشرب بروح المودة أولاً ، لى يفقهوا بعد قليل أنها لا تعارض الدين ؛ بل تؤكد عقائده .

ولقد عرف جمال الدين ذلك من رجال الدين الرسميين ، فنصيح السلطان عبد الحميد ألا يثق بهم ، فيرسل نفرأ منهم إلى اليابان لنشر الإسلام فيه ؛ إذ كان يخشى ، وربما كان محقاً في خشيته ، أن يعطى هؤلاء العلماء فكرة مشوهة عن دينهم لليابانيين ، ومع ذلك يصّر علماء الدين على أنهم يفهمون دينهم حق الفهم ، ويرون أن الخير كل الخير في أن يظل طلبة العلوم الدينية بمعزل عن الحركة العلمية . وغاب عنهم أنهم كلما أعرضوا عن معرفة العلوم الدنيوية كانوا أبعد عن معرفة علوم الدين معرفة صادقة ؛ كذلك خفى عنهم أنهم لو فهموا الدين فهماً حقاً لتوسعوا في العلوم الكونية .

وهذا هو ما فعله علماء المسلمين في العصور الأولى ، وهذا هو ما ألح في بيانهم أكبر فلاسفتهم ، ونعني به ابن رشد ، عندما بسّين أن الشريعة والفلسفة أختان رضيعتان متحابتان بالطبع ، وأن الحقيقة واحدة يأتي بها الوحي بحجة ويعمل العلم على تفصيلها ، وأن من يحارب العلم والفلسفة باسم الدين رجل يجهل الدين ، ومن يناهض الدين تحت ستار الفلسفة رجل يجهل حقيقة الفلسفة . كذلك غاب عن أعين المتأخرين أن مما يختلف به دينهم عن الأديان الأخرى أنه لا يتضح في أذهان معتقيه إلا إذا تقدموا في معرفة الحقائق العلمية ؛ في حين أن أتباع بعض الديانات يتعدون من العلم بمقدار احترامهم وحرصهم على عقائدهم ، ويقتربون منه بمقدار انصرافهم عن الإيمان بهذه العقائد .

غير أن المسلمين انتهى بهم انحطاطهم إلى أن كرهوا العلم عندما تولى شؤونهم جهاهم ، وتصدر للوعظ فيهم ضالاهم . وفي أثناء ذلك حدث الغلو في الدين واستعرت نيران العداوات بين النظاريه ، وسهل على كل منهم ، لجهله بدينه ، أن يرمى الآخر بالمروق لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا

منه غلوا فيه بالباطل، ودخل العلم والفكر والنظر في جملة ما كرهوه، وانقلب
عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه . (١)

و — يجملون الدين أيضاً :

هذا هو موقف العلماء الرسميين من العلوم السكونية . أما العاوم
الشرعية التي يزعمون بأنها وقف عليهم ، وأنها ميدانهم الذي يجولون فيه
ويصولون ، فلم تكن أسعد حظاً من العلوم الأخرى . ذلك أن هؤلاء
العلماء لم يكونوا على وفاق فيما بينهم ، ولا سيما بعد أن تسربت إليهم روح
الجدل التي فرقت بين علماء الكلام من قبل . فذهب القوم إلى أن كثرة
التفريع والتقسيم وتخيل جميع الحالات الممكنة وغير الممكنة دليل على عمق
المعرفة وطول الباع في الإحاطة بكل شيء .

ولم يكن هذا التفريع والتقسيم ليطم دون صراع وجدال بين أنصار
مدارس الفقه المختلفة . ومن الحق أن نعترف أن الفقهاء بذلوا جهوداً
كبيرة ، غير أنها جهود بذلت في غير وجهها ، وفي غير ما يعود على أصحابها
وعلى الناس بالخير . ولو أنها صرفت في توضيح أصول الدين ، وتقريبها
إلى أذهان العامة في صورة هينة يسيرة تخلو من الجدل والخلاف لثبتت
العقائد السليمة، ولساعدت على نشر الأخلاق والآداب ، ولما اضطرب الناس
إلى مخالفة الدين بسبب جهلهم لأحكامهم ، واختلاف علمائهم في تقرير
هذه الأحكام . وربما أمكن تلمس العذر للرجل العادي الذي يخالف الشرع
بسبب عجزه عن فهم نصوص كتب أهل الجدل من الفقهاء ، وذلك لصعوبة

(١) الإسلام والنصرانية لمحمد عبده ص ١٥٠ .

عباراتها وكثرة الخلاف فيها - نقول لو بذلت هذه الجهود في وجهها الحق لما انحدر المسلمون إلى ما انحدروا إليه بفضل هؤلاء العلماء الذين يظنون أن العلم معناه تكفير الخصم ؛ لأنه لا يرى رأيهم فيما اعتادوه من التشدد في الدين وجعله عبئاً ثقيلاً مع أن الدين يسر في أصله ومنبعه . ولو أطلعت على بعض كتب المتأخرين من الفقهاء لوجدت فيها شيئاً كثيراً من مطاعن بعضهم في بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذين يُنسبون إليه : يضلّل بعضهم بعضاً ، ويرمى بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ، ولكنه الجمود قد يؤدي إلى الجحود. (١)

وهل لأحد أن يلوم العامة، إذا رأت هذا الخلاف ومثل هذا السباب ، على أنها تتلبس لنفسها الأعذار في مخالفة أحكام الشريعة ما دام العلماء على غير وفاق فيما بينهم ؟ إنها تنحدر نحو الحلول التي تتفق مع أهوائها معللة النفس بأنه من الممكن أن يكون هناك من الفقهاء من يرى رأيها .

على أن علماء العصر قد لا يكونون أحسن حالا من العامة في فهم الأحكام الدينية ؛ إذ لو اطلع الواحد منهم على الكتب التي ألّفت في عصور التقليد والجمود والشقاق والجدل، ليعلم حكم الشريعة في مسألة من المسائل، لضلّت به السبل ، لكثرة ما يلقى في طريقه من اعتراضات وردود وتسفيه آراء وطعن في عقيدة المخالف . أما الحكم نفسه فقد يجد له احتمالات عديدة لا يدري أيها يختار ؛ هذا إلى أنه قد يعجز عن تمييز الحلول بعضها من بعض . ويضرب لنا الإمام محمد عبده مثالا لهذه الفوضى في كتب المتقدمين فيقول إنه قرأ أكثر من عشرين شرحاً ليعرف رأي القوم في التيمم فوجدها كلها

(١) المصدر السابق ١١٩ .

غامضة مشوهة ، وأن النص القرآني واضح ليس في حاجة إلى كل هذه الشروح . وسنضرب نحن أمثلة عديدة سيعجب المرء كيف كانت موضع تفكير المحققين من رجال الفقه . فما بالك إذن بعامة الشعب ممن لا يستطيعون الخروج بشيء من مثل هذا الاختلافات التي لا تقف عند حد ؟ إنهم يريدون حكم الدين في أمر من أمورهم فلا يجدون أمامهم سوى علمائهم . وربما لم يكن المسئول بأعلم من السائل ؛ إذ يتفق لبعض ، أو لكثير من هؤلاء الذين يتصدون لتطبيق أحكام الشريعة أن يعجز عن تقرير الحكم الصحيح : إما جهلاً ، وإما عجزاً عن تفهيم من يسأله ؛ وربما كان له في ذلك بعض العذر ؛ لأنه يعتمد على مراجع ومصادر متناقضة متنافرة يكاد يعد الوصول إلى وجه الحق فيها أمراً مستحيلاً .

ويمكن إرجاع فساد أخلاق العامة في القرى والساكنة الإسلامية إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس ، أو يميزون لهم بين الحق والباطل والحرام والحلال . إنهم حسنوا النية من غير شك ، ولكنهم ضحية التقليد والجمود ؛ وهم يفتنون بقدر ما يعلمون ، وربما كانوا لا يعلمون شيئاً كثيراً . على أنه يتفق لحسن النية أن ينزلق إلى الشر عفواً أو قصداً ، وأن يتخذ الدين وسيلة إلى طلب السعة في الرزق بدلاً من أن يكون سبيله إلى تقويم الخلق وبذل العون والنصح ؛ ويتفق أيضاً أن يشغل فقهاء القرى أنفسهم بأعمال السحر والشعوذة ، يفرقون بين المرء وزوجه ، ويسعون بين الناس بالباطل ، ويضلون العامة بدلاً من أن يتركوها تتبع فطرتها السليمة . ويسيطر هؤلاء الفقهاء على النفوس ويقومون سدّاً بينها وبين أهل العلم الصحيح ممن يستطيعون إرشادها إلى أمور دينها ،

ويعشون فيها أخلاقه ويرتفعون بها عن هذا المستوى الذى نزل بها إليه جماعة ممن لا علم لهم بالدين والأخلاق ، ومن يغرسون فى عقول النشء أسوأ الغرس ، أو يصرفونهم عن الدين بسبب مسالكهم الذى يتنافى مع أبسط قواعده ، وهى الرغبة فى الخير ، والدعوة إليه فى رفق وغير عنف .

وقد اضطربت معايير الأخلاق بسبب هؤلاء العلماء الجهال حتى أصبح إرشاد الناس إلى الفضيلة والحق ، وزجرهم عن الرذيلة والباطل ، من أشق الأمور وأقلها ثمرة . (١) وكيف يجدى النصيح فى قوم نكبوا بجماعة من المضللين الذين يثبطون الهمة ، ويصرفون الناس عن الشكوى من الظلم ؛ بل يدفعونهم إلى قبوله دفعاً بحجة التسليم للقضاء والقدر ، ويشوهون عقولهم بسيل من الخرافات والأوهام التى تسرى مسرى السم فى خيالهم لجهالهم وسذاجتهم .

وهكذا انصرف الفقهاء عن واجبهم الأول ورضوا لأنفسهم أن يقفوا موقف الجود والتقليد ، ثم أرادوا أن يخلعوا على ثقافتهم المحدودة طابع القداسة ، وأن يوهموا الناس أنهم حووا علوم الأولين والآخرين ، فنادوا بأن باب الاجتهاد فى الدين قد أوصد ، وأن هؤلاء الذين يحاولون التجديد فى أحكام الشريعة حتى تكون موافقة للتطور الاجتماعى جماعة من الكفرة ؛ بل ربما رموا هؤلاء الذين يرون ضرورة العودة إلى رأى السلف بأنهم قد مرقوا من الدين . وقد روى لنا الشيخ محمد عبده كيف أن أحد هؤلاء المجتهدين ، وهو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى ، نشر مقالا عرض فيه للصوفية ،

(١) قال أبو العلاء : كم توعظون فلا تلبس قلوبكم فنبارك الخلاق بما أحتاكم ؛

وبيّن فيه أن هذا المذهب كان نكبة على الإسلام ، فلما أطلع الناس على مقاله في مصر « هاج عليه حملة العمام . . . وقالوا إنه مرق من الدين . . . ثم رفيع أمره إلى الوالى فقبض عليه ، وألقاه فى السجن . فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته بما اختلق عليه . . . فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ، ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين . . . » (١)

كذلك روى لنا قصة الشيخ عليش الكبير مع الشيخ السنوسى الذى وضع كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية لأنه كان قد اعتمد فى تقرير أحكامه على الكتاب والسنة مباشرة . فلما ترمى النبأ إلى الشيخ عليش ، وهو من هو فى شدة تعصبه للدين بمعناه الضيق الذى كان يفهمه كما يقول الأستاذ أحمد أمين ، حمل حربة وذهب يبحث عن الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين . ولكن سفر السنوسى قبل أن يلقاه الشيخ عليش حال دون وقوع هذه الجريمة النكراء باسم الشريعة الغراء .

وليس علماء الدين الرسمىون فى مصر هم وحدهم الذين كانوا يقفون فى طريق الإصلاح ، وينافحون عن التقليد ، ويحرمون تدريس العلوم الحديثة باسم الدين ؛ بل إنهم كانوا يسلكون مسلك أقرانهم فى مختلف البلاد الإسلامية سواء فى الأفغانستان أم الهند أم إيران أم بلاد المغرب ، حيث كان هؤلاء العلماء يعلنون الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم إصبغاً عما كان عليه.

سلفهم ، وإن كان في البقاء عليه تلفهم .
وقد تساءل الإمام محمد عبده فقال : « هل هذه الحال جديدة على المسلمين ،
حتى يقال إنها عارض عرض عليهم . . . ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال
المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة
على أمجة الأمم ، خصوصاً عند ما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في
الاعتبارات ، فلو أخذ مسلماً من شاطئ الأطلانطيق ، وآخر من تحت جدار
الصين لو وجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : « إنا وجدنا آباءنا على
أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وإن
نطق به الكتاب ، واجتسعت عليه الآثار . »

فإذا كان هذا هو رأى محمد عبده في علماء المسلمين في العصور
الآخيرة ، فهل لأحد أن يعيب على رينان إذا تشابه الأمر عليه ، فسوى بين
الإسلام والمسلمين ، وظن أن هذا الدين يحارب العقل والعلم حقيقة ،
وأن كل من يؤمن به يسلك مسلك التقليد ، أى ينهل من مناهل الجمود ؟
وهل لنا أن ننفي عن علمائنا الرسميين روح العداء للعلم ، أو نشكر عليهم رغبتهم
في فرض ثقافتهم التي ازدهرت في عصور الانحطاط الفكري على عقول
تتابع الحركة العلمية المعاصرة ، وتتوق إلى أن ترى تجديداً في الدراسات
الدينية ، يخرج بها عن المناقشات اللفظية العقيمة ، ويبعث فيها تلك الروح
التي عرفها السلف في دينهم ، والتي حجبها سحب الجهل أو التظاهر بالمعرفة ؟
هـ — ماذا جنى المسلمون منهم ؟ :

والحق أن البلاء الذي وقع بالمسلمين بسبب علمائهم في الناحية السياسية
لا يكاد يعدله إلا نكبتهم بهم في الناحية الدينية . فإن هؤلاء العلماء ساهموا

في تثبيت قواعد الاستبداد السياسي ، وساعدوا قدر طاقتهم في طبع النفوس بطابع الذل والاستسلام للحاكم الزماني ، وجعلوا طغيانه وعدوانه أمراً مشروعاً وقضاء من الله ، ثم أكملوا القضاء على الروح الإسلامية عند ما قصروا في أداء واجبهم الأول وهو إصلاح النفوس وتهذيبها وإرشادها إلى العقائد الصحيحة والأخلاق السامية التي جاء بها هذا الدين الخفيف . ذلك أن المشتغلين بالفقه أرادوا ألا يكونوا أقصر باعاً أو أقل شهرة من رجال علم الكلام أو الجدل في العقائد ، فجعلوا يتوسعون في أحكام الشرع ، ويفرغون فيها ، كما يحلو لهم ، وكما تمليه عليهم خواطرهم السليمة أو المريضة ، فيضعون لكل حادثة حقيقية أو مستحيلة حكماً خاصاً بها ، وإن لم تكن في حاجة إليه . وليتهم اتفقوا على هذه الأحكام ، ولكنهم اختلفوا ، وصار يرى بعضهم بعضاً بالكفر ، على غرار ما كان يفعل علماء الكلام من قبل . ولما ضاق الناس بخلافهم ، وعميت أبصارهم عن النهج الصحيح لم يجدوا مفرّاً من الركون إلى التقليد ؛ كل يقلد إماماً من الأئمة . وتعددت المذاهب واختلفت المناهج ، وألفت الكتب ، وحوث الغث والثمين ، والحق والباطل ، وجاء من بعد هؤلاء المؤلفين خلف يحسن الظن بكل ما جاء في كتبهم ؛ إذ وجد أن التقليد أيسر من الاجتهاد ، والتسليم بما قال أحد السابقين أهون من تحكيم العقل واستئناف مشقة البحث .

ولما رأى المتأخرون مدى الاختلاف بين السابقين أخذوا يبررون هذا الاختلاف بأنه رحمة بالعامّة ، كما وجدوا فيه سبيلاً إلى التحايل على أحكام الشرع ، حتى ذهب بعضهم في تحايله إلى ما لا يقره الخلق ولا الدين ، كأن يهب الرجل ماله لأحد ممن يثق بهم حتى إذا حال الحول استعاده كاملاً ،

دون أن يخرج منه شيئاً مما يجب شرعاً على الأغنياء للفقراء . كذلك أحلوا للرجل أن يهب زوجته التي طلقها ثلاث طلاقات إلى من يشاء ، حتى يستطيع ضمها إليه ، بعد أن يقوم الوسيط أولاً يقوم بمهمة الحلال . أما من يريد أن يقرض شيئاً من ماله بالربا ، دون أن يقع تحت طائلة العقاب ، فله أن يبيع لمن يقترض منه شيئاً خسيساً بشيء ذي قيمة يردده إليه مع ماله الذي أقرضه ؛ إلى غير ذلك من الحيل التي رتبها كان يعلمها بعض الفقهاء أكثر من معرفتهم بفرائض الدين وآدابه ، والتي يهرع إليها العامة للتخلص من أحكام الشرع .

ومن جانيب آخر أغرب بعض الفقهاء في استنباط الأحكام من النصوص إنغراباً شديداً . ذلك أن أحدهم متى وجد نصاً من النصوص الشرعية يتضمن أمراً أو نهياً فهمه أولاً حسبما يؤديه إليه عقله ، ثم حاول تطبيقه على أمثال الحادثة التي ورد فيها ؛ وقد لا يكون بين هذه وبين الحالات التي يماثل بينها شبه ما ، لكنه يأنى إلا أن يجتهد على غير علم أو بصيرة ؛ لأنه يصر على أن يجد لكل حادثة من حوادث الحياة اليومية حكماً شرعياً إما بالوجوب وإما بالتحريم ، ولو كانت مما سكنت عنه الشرع . ومن البديهي أن ينتهي الأمر بأن تصير كل الأشياء ، حتى توافها وسفسافها محرمة أو واجبة ، وأن تختفي الأشياء المباحة التي يستطيع المرء أن يقربها أو يتركها ، دون أن يكون سيف الفقهاء مصلتاً على عنقه .

وقد تتعارض أحكام الفقهاء السابقين في مسألة من المسائل فيرى المتعنت من المتأخرين أن يلزم أشد الأحكام عسراً ؛ لأنه يريد أن يأخذ بالأحوط ، طلباً للمثوبة كما يقول . وهكذا تمادى المتأخرون في التتبع والتشدد ،

حتى أصبح الدين اليسر عبئاً ثقيلاً لا يدع صغيرة أو كبيرة من الأفعال العادية إلا وقرّر لها حكماً . وكثيراً ما يكون هذا الحكم مضاداً للعقل وللطبيعة . ولكن هكذا شاء الفقهاء ، فعلى العامة أن تتبعهم في تشددهم ، وتكسّفهم العناء فيما لا موجب لطالب العناء فيه ، وإلا حل بها من اللعنة في الدنيا والآخرة ما لا قبل لها به . وظل الفقهاء يوغلون في الدين ، برفق وبغير رفق ، حتى غلبهم وصرعهم ، وحتى أدت شدة الحرج التي يشعرون بها ، والقهر الذي يباشرونه على العقول ، إلى تطلع فريق من المسلمين إلى من ينقذهم من عسف المتشددين ، وعنت المتصدين للفتوى بينهم . وعندئذ لم يجد هذا الفريق أمامه من مهرب سوى أن يقذف بنفسه في حلقات أهل التصوف الذين هزنوا عليه أمر التكاليف ، وصرفوه عنها وعن تشدد الفقهاء ، إلى تلاوة التراتيل والترانيم وهز الأعطاف والتمايل على دق الطبول ونقر الدفوف ، فأصبح الدين لديه لهواً ولعباً وصغيراً وتصفيقاً بعد أن جعله الفقهاء أغلالاً وقيوداً .

أما من لم تستهوه مباحج التصوف ، وكان في خلقه شيء من الشدة والتزم فقد رضى أن يظل في حوزة الفقهاء ، وآثر أن يتبع سبيلهم ، ولو كلفوه بما لم يكلفه به الله ورسوله ، ولو أوجبوا عليه من النوافل والقربات أضعاف ما جاء به الكتاب من الفرائض . إنه يميل مثلهم إلى التشدد ويشعر شعورهم بالحرج ، ويرى رأيهم في أن ما جاء به القرآن ليس كافياً في نجاته . فيقبل على هذه النوافل إقبالا ربما أنساه الواجبات ؛ هذا والفقهاء المشرعون لا يكفون عن التشريع والتقنين وبسط أحكام الشريعة على كل ما يعترض طريقهم : فهم يأبون إلا أن يحددوا لكل عمل من الأعمال قيمته ، ولو كان من تلك الأعمال التي تركها الشرع مباحة للناس يأتون منها ما شاموا وبالقدر

الذى يتفق مع حياتهم الاجتماعية التى تتطور دون انقطاع . ولم يعدم الفقهاء حجة لغلوهم وتشددهم فى الدين ، فهم يشعرون بضيق دونه أى ضيق فى أن يتركوا شيئاً من غير أن يبينوا فيه حكم الله ورسوله ، وهم يخافون على الناس أن يخلطوا بين الحرام والحلال ؛ كأن الدين كان ناقصاً فجاءوا هم يكملونه .

وفى الواقع ليس ما يشعرون به من حرج وما يجنحون إليه من تشدد أو أخذ بالأحوط إلا وليد اضطرابهم فى الرأى وقصورهم فى الفهم ، وترددهم فى الجزم ؛ إذ أن الحلال بين والحرام بين ، وما بعد ذلك فهو مباح للناس بدرجات متفاوتة . ومن قبل غلا أحيار اليهود وعلمائهم ، وتشددوا فى الدين حتى فقد روحه ، وأصبح مجرد عبارات وطقوس معقدة إلى حد كبير أو قليل ، فحق للمسيح أن يأخذ عليهم تشددهم وتغنتهم ونفاقهم عند ما يهتمون بالظواهر المادية للدين ويغفلون عن لبه وجوهره . ومن قبل أيضاً أفرط رجال الكهنوت من النصارى فى تشددهم فكلفوا الناس أن يذعنوا لأحكامهم ، وأن يتقبلوها بالسمع والطاعة دون مناقشة أو نظر ؛ بل بلغ من تشددهم وقهرهم أنهم حرموا على أتباعهم تلاوة الإنجيل أو الاستفسار عن عقائدهم ، وبخاصة عقيدة التثليث التى قالوا إن علمها عند آباء الكنيسة وحدهم ، مع أنها حجر الزاوية فى المسيحية .

كذلك زعم رجال الكهنوت فى النصرانية أن لرئيسهم الأكبر حق تقرير العقائد الجديدة وإدخالها فى صلب المسيحية ، وما على الناس إلا أن يتبعوه . فإذا قرر رئيسهم أن مريم العذراء قد رفعت إلى السماء ، مثل ابنها المسيح ، وجب أن يؤمن الأتباع بهذه العقيدة ، وألا يسألوا كيف أو متى رفعت ؛ وله أن يكرس القديسين وأن يختص أنواعاً من الصلاة للتقرب إلى الله

عن طريقهم . وهكذا تتخضم العقائد وتتطور وتزداد تعقيداً بمرور الزمن وبمشيئة رؤساء الدين وغفلة من يأتون بهم .

ولقد رأيت في إحدى مقاطعات فرنسا أن بعض الآباء الذين يقيمون في أحد الأديرة فكروا في وسيلة لجذب قلوب الناس ، فرأوا أن يقيموا على مقربة منهم مغارة تشبه إحدى المغارات المقدسة عندهم وهي مغارة « لورد » [Lourdes] التي يحج إليها المسيحيون من مختلف البقاع للتبرك بتمثال العذراء ولطلب الشفاء للمرضى ممن أعيا الأطباء علاجهم . ثم رسموا هذه المغارة على مثال مغارة « لورد » وبدأوا يقودون أتباعهم نحوها . وقد لامتضى أجيال ، حتى يسمع الناس عن هذه المغارة نبأ عجيماً ، إذ ربما قيل إنها مهبط لأحد القديسين في سالف الأزمان .

وبمثل هذا التشدد والتعقيد يبسط رجال الكهنوت سلطانهم في كل ملة . ونحن لا نرى فقهاء المسلمين وعلماء الدين فيهم من أمثال هذه الأعمال . فمن يدرى من يرقد في أضرحة كثير من أولياء المسلمين في المدن والقرى . فلربما كانت تضم رفات رجال ورعين ؛ لكن ربما ضمت أيضاً رفات قطاع طرق ، أو بعض جثث الحيوانات ؛ ثم يحج الناس إليها ، ويقدمون إليها القرابين ، ويجودون عليها بالندور ويتهلون إلى سكانها أن تكون في عونهم ، كأنما يئسوا من روح الله .

أما التشدد والتعقيد في الأمور التفصيلية التافهة فأكثر من أن يدخل حتى حصر . وكتب الفقه لا ترضع علينا بأمثلة غريبة تخيلها المتشددون ، ووضعوا لها الحلول التي لا تقل عنها غرابة . وليتهم اتفقوا فيما بينهم على حل واحد

لكل مسألة ؛ إذ لو فعلوا لأراحوا أنفسهم وأراحوا الناس معهم .
لكنهم اختلفوا في المذهب الواحد فما بالك بالخلاف الذي يمكن أن يقع
بين المذاهب المختلفة ؟ وليس من غرضنا أن نتعقب الفقهاء في أمثلتهم
العجيبة ، رغبة في التندير بهم أو التشنيع عليهم . فإن هذا الكتاب لا يتسع
لمثل هذا المسلك . أضف إلى ذلك أن السخرية والتهكم في مثل هذه الأحوال
لا يحققان الهدف الذي نرمى إليه ؛ بل ربما انتهيا إلى نتيجة أخرى غير تلك
التي نريد الوصول إليها . وقد كان في وسعنا ، لو شئنا ، أن نذكر أمثلة
لا حصر لها للتدليل على تشدد الفقهاء وتعنتهم ، وأن نختار أكثر الأمثلة
إغراباً في السقم ؛ لكننا آثرنا أن نعرض لبعض الأمثلة اليسيرة ، وفي بعض
المسائل المحدثة ، لعل المشتغلين بالفقه يتجهون من تلقاء أنفسهم وبقلوب
راضية إلى تطهير كتبهم مما يشوهها ؛ وهذا ما ارتضيناه في كتاب آخر لنا
عندما بينا كيف انتهى علماء الكلام إلى الابتعاد عن روح الكتاب العزيز
بأدلتهم الجدلية ، حتى أصبحت العقيدة الواضحة شديدة الغموض في كتبهم : (١)
أما في مجال الفقه أو التشريع فإننا نشير إلى مسألة الطلاق التي عالجها
الفقهاء من أوجه اللفظية أو الشكلية الصرفة ، ونسوا ، في أثناء خلافهم
وسيل حججهم ، أن الطلاق يمس ناحية إنسانية أو اجتماعية هامة ، فعالجوها
كما لو كانت من مسائل المنطق الصوري ، ونعني به منطق أرسطو كما فهمه
المسلمون ؛ ذلك المنطق الذي يبحث في جميع الحالات الممكنة وإن لم تقع
بالفعل ، وهو المنطق الذي نعتقد أنه أفسد على المسلمين علومهم اللغوية

(١) هذا ما بيناه بالتفصيل في مقدمتنا في نقد مدارس علم الكلام التي صدرنا بها كتاب
مناهج الأدلة لابن رشد . ولذلك نحيل عليها في كل ما يتصل بعقم المناقشات الكلامية .

والشرعية ، كما أفسد عليهم ثقافتهم وحضارتهم^(١) - نقول إنهم حاولوا تطبيق قواعد المنطق وقوانين اللغة على العبارات التي تصدر من الرجل في غضبه أو في رضاه ، وغفلوا عن هذا الأمر وهو أن فصح رباط الزوجية ينبغي ألا يكون بمثل هذا اليسر ، وخاصة بعد أن حدد لهم القرآن الكريم ، الذي كان ينبغي أن يظل مرجعهم الأول ، المبادئ العامة التي يجب أن تحوط الحياة الزوجية بسياج قوى ، حتى تكون بمأمن من سفه الزوجين أو تلك الأزمات الطائشة التي تعترض حياة الأسرة ، فتوشك أن تلحق الضرر بمن لا ذنب له ، ونعني بهم الأطفال الذين قل أن نظر إليهم الفقهاء بعين المودة في أثناء جدلهم واختلافهم في الحلول .

ونقول إن هؤلاء المشرعين الذين يؤكدون لنا أنهم يسرون على هدى القرآن في تشريعاتهم ينسون أن هذا الكتاب لا يريد أن يكون الطلاق سلاحا يسلطه الرجل على عنق المرأة ، وبغير حق في أعظم الأحوال . فهو ينهى الناس عن كثرة الأيمان والأقسام التي يذكر فيها اسم الله أو لا يذكر فيها اسمه . ولذلك قال تعالى في التهديد للحديث عن الطلاق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ، لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم . » وإنما نهى عن كثرة إيقاع الأيمان لأن هؤلاء الذين يكثرون من الأحلاف هم هؤلاء الذين وصفهم الله بالمهانة عندما قال في كتابه :

(١) بينا في كتابنا « المنطق الحديث ومناهج البحث » أن الحركة العلمية الحديثة لم تزدهر إلا بعد القضاء على المنطق الشكلي ، كما كان يفهمه أهل العصور الوسطى من المسلمين والمسيحيين على حد سواء . انظر ص ١٥ إلى ص ٣٥ ، من الطبعة الثانية .

« ولا تطع كل حلاف مهين » . ذلك أن الحلاف لا يكون عادة إلا كاذباً .
وهكذا نرى الفقهاء أن الله لا يرضى أن يتخذ اسمه سبيلاً إلى إلحاق
الضرر بالنساء كأن يقسم الرجل ألا يقرب زوجته أربعة أشهر . فإذا فعل
رغم ما في ذلك من الإجحاف بالزوجة التي أوصى الله بحسن معاملتها أوجب
الله الطلاق بعد مرور هذه المدة التي تقطع صلة التواد والتراحم بين الزوجين .
لكنه أوجبه بالنسبة إلى النساء اللاتي ما زلن يصلحن للزواج بدليل أن الآية
خاصة بذوات الحيض .^(١) لذلك ذهب بعض المجتهدين إلى أنه لا يجوز طلاق
المرأة التي بلغت سن اليأس « فإن اليائسة من شأنها ألا تطلق لأن من أمضى
زمن الزوجية مع امرأة حتى يئست من الحيض كان من مقتضى الطبع والفطرة
ومن أدب الشرع والدين أن يحفظ عهدا ، ويرعى ودّها بإبقائها على عصمة
الزوجية ، وإن كان بعض السفهاء لا يحترمونها تلك العشرة الطويلة ،
ولا يراعون ذلك الميثاق الغليظ فيقدمون على طلاق اليائسة ، ثم إن اليائسة ،
إذا طلقت فلا تمكاد تتزوج ، وما خرج عن مقتضى الشرع واستقامة الطبع
فلا يعتد به . »^(٢)

فالشريعة الإسلامية كما يقررها القرآن لا تجعل الطلاق لهواً ولعباً ،
ولا تجعله أداة عمياء في أيدي السفهاء ، أو مجرد كلمة تقال في ساعة غضب
فتقضى على أسرة بأكملها أو تجرد امرأة يائسة من كل مقومات حياتها ؛

(١) للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فإوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا
الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء الآية : سورة البقرة

(٢) هذا هو رأى الإمام محمد عبده — تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧٠ .

بل إن الكتاب الكريم ينصح بإرسال أهل الخسیر للسعی بالصلح بين الزوجين اللذين يمكن طلاقهما ، وذلك إذا دبست النفرة . فإن الله تعالى يقول : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدَا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليهما خبيراً » ولم يقل وإن يريدَا طلاقا لأن أبغض الحلال إلى الله هو الطلاق . والشرع لا يبيح الطلاق إلا إذا استنفدت جميع الوسائل الأخرى ؛ لأنه جعل للرجل حق تأديب امرأته في غير عسف بالهجر في المضاجع والضرب الهين ، حتى إذا بدا ألا سبيل إلى تقويمها عن طريق الصلح أو التأديب جعل للزوج أن يسرحها سراحا جميلا . ثم أعطى للزوجين فرصة للتفكير في العودة إلى الصفاء والحياة المشتركة ، فحدد الطلاق بمرتين ، يحق للزوج فيها أن يراجع زوجته . فإذا تبين بعد ذلك كله أن مثل هذه الحياة لا يمكن أن تطاق أباح الطلاق مرة ثالثة وأخيرة ، لا تعود المرأة بعدها إلى زوجها إلا إذا تزوجت رجلا آخر ، حتى يعلموا أن الطلاق ليس لعباً ولا لهواً .

فالنصوص القرآنية واضحة في تحديد الطلاق ، وهي تتجه إلى كل ذى عقل ، أى إلى هؤلاء الذين يحق تكليفهم بدين من الأديان ، وهي - كما نرى - لا تتسع لما درج عليه المسلمون من أن يأتي الرجل منهم فيوقع الطلاق على امرأته طلقتين أو ثلاثا - كما يبرس له الفقهاء - وربما دون مبرر أو موجب ، أو الأمر لا يتصل بالحياة الزوجية من قريب أو بعيد . فيقال له بعد ذلك إن امرأته طالق ثنتين أو ثلاثة ، مع أن العقل والطبع لا يبرران فصح رباط الأسرة بمثل هذا الجور أو الحق .

وهذا هو ما كان يسير عليه المسلمون في عهد الرسول فلقد روى النسائي

قال : « أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ، ثم قال : « أُلْعَبَ بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ » أى أن الرغبة في التلاعب في الطلاق وفي إلحاق الضرر بالمرأة أمر قديم .^(١)

ومع وضوح نصوص القرآن فإن الفقهاء نسوا ذلك الوضوح ، كما نسوا غضبة الرسول من هؤلاء الذين يتلاعبون بالقرآن . فأخذوا يشرعون لهؤلاء الذين وصفهم محمد عبده قبلنا بأنهم هم السفهاء من الناس : وجعلوا يغربون في أحكام الطلاق إغراباً لا حد له . ذلك أنهم أبوا إلا أن يفرعوا في البحث ، وإلا أن يفرطوا في الجدل ، حتى لا يكونوا أقل نصيباً في العلم من زملائهم من أهل الجدل في العقائد ؛ وهذا هو منشأ تلك المسائل العديدة التي حجبت المبادئ التشريعية الجليلة التي حددها القرآن وأكدها الرسول ، تلك المبادئ التي كان ينبغي للمسلمين أن يلتزموها للفصل في مشا كل الطلاق . لكن هذه المبادئ احتجبت خلف ستار من اللجج والجدل الذي فتح الطريق واسعة أمام صيغ الطلاق المتخيلة وغير المتخيلة ، والتي جعلت الفراق بين الزوجين أمراً يترتب على سفه الزوج أو حمقه أو تلاعبه بالألفاظ .

فإذا نحن انتقلنا من تلك المبادئ التشريعية السامية إلى التطبيق لدى الفقهاء وجدنا ، والحق يقال ، هبوطاً فريداً في التفكير على نحو يفجأ النظر . مثال ذلك إذا قال رجل إنه إن شرب الماء الذي في هذا الكوز اليوم فامرأته طالق ،

(١) كان طلاق الثلاث يقع طلقة واحدة في عهد الرسول وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر . فلما رأى هذا الأخير أن القوم يشددون على أنفسهم شدد عليهم إذ قال : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ! فأمضاه عليهم .

فما الحكم ؟ إن الأمر يتطلب تفصيلا : أحتوى الكوز على ماء حقيقة أم لا يحتوى ؟ أما فى الحالة الأولى فقد اختلف الفقهاء ، فقال بعضهم لو أريق الماء قبل مجئ الليل لم يحنث الرجل فى يمينه وبقيت امرأته حلالا له ؛ وقال بعضهم إنه يحنث على كل حال ، أى أن امرأته تصبح محرمة عليه . أما فى الحالة الثانية فقد اتفقوا على أنه لا يحنث . ونعتقد أنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الرجل ؛ بل كان ينبغى لهم أن يقولوا بضرورة تعزيره أى عقابه ؛ لأنه يربط بين مصير أسرته وبين شرب الماء أو عدم شربه ، دون ما يوجب الربط بين هذين الأمرين .

ومثال آخر لهذا السفه الذى قد يقع فيه بعض الأزواج ، والذى يثير جدل الفقهاء ، وهو أن الرجل لو قال لزوجته : إن كنت تحبين أن يعذبك الله فى نار جهنم فأنت طالق أو قال لها إن كنت تحبيننى فأنت طالق ، فقالت أحب أن أعذب فى النار أو أحبك ، فإنها تطلق . ولا ندرى ما الذى يدفع الرجل سليم العقل إلى استخدام هذه الصيغة حتى يطلق زوجته ! أو لم يكن له أن يبحث أولا أهناك ما يوجب الطلاق حقيقة ؟ وهل هناك من وسيلة للصالح إن وجدت بعض أسباب قد تدعو إلى الطلاق ؟ أم الأولى به ، وقد يش من إصلاح أمره معها ، أن يسرحها سراحا جميلا دون أن يعرض عليها عذاب النار حتى تتخلص منه ، أو يجازيها على حبها له بطلاقها ؟ ونقول مرة أخرى إنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الزوج الذى ينبغى توبيخه ولومه ، بدلا من التشريع له .

ولا ندرى لماذا أجهد الفقهاء أنفسهم لمثل هذا الرجل الذى كان يستطيع تجنب النسل عن طريق العزل ، لكنه لم يرتض ذلك لنفسه ؛ وإنما رضى

أن يقول لامرأته إذا ولدت غلاماً فأنت طالقة طلاقاً واحدة ،
أما إذا ولدت جارية فأنت طالق طلقتين . ثم أراد الله لهذه البائسة
أن تلد غلاماً وجارية ، ثم لم يعلم الزوج - وكان في وسعه أن يعلم - أيهما
خرج إلى الحياة أولاً ؟ لكن الفقهاء رأوا أن يشرعوا له ؛ وأن يختلفوا
في التشريع له . (١)

كذلك اختلف المشرعون فيما بينهم في أمر هذا الرجل الذي قال
لزوجه : إن دخلت هذه الدار فأنت طالق ثلاثاً ، فلم تدخل ، ثم طلقها
طلقتين ، ثم تزوجت زوجاً آخر ، ودخل بها ، ثم عادت إلى الأول ،
فدخلت الدار فما الحكم ؟ قال بعضهم ، إنها تصبح مطلقة ثلاثاً ، وقال
بعضهم : بل تطلق طلاقاً واحدة ، وقال بعضهم : لا تطلق لا طلاقاً واحدة
ولا ثلاثاً ؛ لأن الزواج الثاني أبطل يمين الطلاق الذي وقع من الزوج الأول . (٢)
ومن الأكد أن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا جميعاً في شيء واحد ، وهو أنهم
أغفلوا آية الصلح بين الزوجين ، وآية التسريح بالإحسان .

ومن هذا القبيل أنهم اختلفوا في أمر هذا الرجل الذي جال بخاطره ،
وربما لغير سبب ، أن يقول لامرأته : طلق نفسك ثلاثاً إن شئت فطلقت
واحدة ، فقال بعضهم لا يقع الطلاق ، وقال بعضهم : بل تقع طلاقاً واحدة .
وعندئذ فليس لهذا العايب بأبغض الحلال إلى الله إلا أن يبقى في الحيرة لأن
المشرعين لم يحزموا له بما إذا كانت زوجته حلالاً له أو حراماً عليه .

أما إذا كان من أهل المنطق أو من غير أهله ، وقال لزوجه : أنت طالق

(١) كتاب الهداية شرح بداية المبتدىء ج ١ صفحة ٢٠٠ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠١ .

ما لم أطلقك، أنت طالق ، فعندئذ يفتيه الفقهاء أن امرأته أصبحت مطلقة ؛ لأنه وجد زمان لم يطلقها فيه ، وإن قلَّ ، وهو زمان قوله «أنت طالق ، قبل أن يفرغ منها . (١)

وإذا طاب له أن يقول لزوجته أنا منك طالق فليهدأ نفساً ، ولو كان نواياً للطلاق حقيقة ؛ ذلك لأن المرأة لا تملك الطلاق . لكن إذا قال لها أنا منك بائن ، أو أنا عليك حرام ، فهي طالق ؛ لأن البينونة - ومعناها قطع الصلة بين الزوجين - أمر مشترك بينهما .

وأخيراً - وليس آخراً - في احتمالات الطلاق (٢) : لو طلق الرجل من زوجته جزءاً شائعاً مثل أن يقول لها أنت طالق نصفك أو ثلثك فهي طالق ؛ لأن الجزء الشائع - كما يقولون - محل لسائر التصرفات كالبيع وغيره . أما إذا قال لها يدك طالق أو رجلك طالق فقال بعضهم يقع الطلاق وقال آخر لا يقع ! !

وليس باب الطلاق وحده هو الذي يحفل بمثل هذه الاحتمالات ؛ بل نجد في باب الأيمان شيئاً لا بأس به . مثال ذلك أن الرجل لو حلف

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) أمثلة أخرى : لو قال لها طلقي نفسك فقالت أبنت نفسي طلقت ، وإن قالت قد اخترت

نفسى لم تطلق ، ولا دخل للنية هنا مطلقاً . نفس المصدر ج ١ ص ١٩٦ .

وإذا قال لأجنبية إن دخلت الدار فأنت طالق ثم تزوجها ، فدخلت الدار لم يقع عليها

الطلاق نفس المصدر ج ١ ص ١٩٩ .

أما إذا قال لامرأة : يوم أتزوجك فأنت طالق ، فتزوجها ليلاً وقع عليها الطلاق ج ١ ص ١٨٦ .

ولو قال لها طلقي نفسك من ثلاث ما شئت فلها أن تطلق نفسها واحدة أو ثنتين ولا تطلق

ثلاثاً ، وقال آخرون بل تطلق ثلاثاً إن شاءت . ص ١٩٨ الخ . وهناك أمثلة أخرى لم نر أن

نستشهد بها نظراً لحجافاتها للذوق العام .

ألا يأكل لحماً فأكل لحم السمك فإنه لا يحنث في يمينه ، أما إذا أكل لحم خنزير أو لحم إنسان فإنه يحنث؛ لأنه لحم حقيقي إلا أنه حرام . لكن إذا أكل كبداً أو كرشاً ففيل يحنث في يمينه وقيل لا يحنث . وإذا حلف ألا يأكل أو لا يشتري شحماً فإنه لا يحنث إلا في شحم البطن عند بعضهم ، وقال بعضهم إنه يحنث لو أكل شحم الظهر أيضاً . (١)

أما إذا أقسم ألا يأكل فاكهة ، ثم أكل عنباً أو رماناً أو رطباً أو قثاء أو خياراً لم يحنث ، وإن أكل تفاحاً أو بطيخاً أو مشمشاً حنث عند بعض الفقهاء ، ولم يحنث عند آخرين (٢) . وإذا حلف ليصعدن إلى السماء أو ليقبلن هذا الحجر ذهباً ، فإنه ملزم بيمينه ، ويحنث فيها عقب التلفظ بها . لكن قال بعضهم لا يقع يمينه لأن ذلك أمر مستحيل عادة ، فأشبهه المستحيل حقيقة ، وقال الأولون إنه يحنث في يمينه لأن الصعود إلى السماء ممكن حقيقة : ألا ترى أن الملائكة يصعدون إلى السماء ، وكذا تحوّل الحجر ذهباً بتحويل الله تعالى له . وإذا كان متصوراً ينعقد اليمين موجباً لحلفه ، ثم يحنث بحكم العجز عادة . (٣)

واختلف الفقهاء أيضاً في أمر ذلك الرجل الذي نذر أن ينحرا بنه في مقام إبراهيم ، فقال أحدهم : ينحر جزوراً ، وقال آخر : ينحر شاة ، وقال ثالث : ينحر مائة من الأبل ، وقال رابع : يهدي ديته ، وقال خامس : بل يحج به ، وقال سادس وسابع : لا شيء عليه لأنه نذر معصية ولا نذر في معصية . (٤)

(١) كتاب الهداية ج ٢ ص ٦٨ . (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٧١ .

(٤) كتاب بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣٤١ .

ونقول نحن إنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بكل خلاف مبین يجعل الله عرضة لأيمانه . وكان الأجدر بهم أن يقرروا عقوبة التوبيخ أو التعزير لمثل هؤلاء الذين يعقدون أيمانهم في معصية أو في أمر مستحيل أو في أمور تافهة تتصل بالطعام والشراب !

ومن أمثلة الغلو أو التشدد الذي لا موجب له حقيقة مسألة استخدام السواك . فإنه ورد عن الرسول عليه السلام أنه قال : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك . ولو صح هذا الحديث لما دلّ على أكثر من إباحة استخدامه أو نديه . ومع ذلك وجد فيه الفقهاء مجالا للاجتهاد ، بدلا من الاجتهاد في أمر له خطره في حياة المسلمين السياسية والاجتماعية ، فقال بعضهم إنه سنة ، وقال بعضهم يجب أن يكون السواك من عود الأراك ، وعمّم بعضهم فقال يجوز استخدام الإصبع أو غيره بشرط ألا يؤدي ذلك إلى إدماء اللثة . وتشدد آخرون فقالوا يجب ألا يكون السواك أقصر من شبر ، وإلا كان مخالفاً للسنة . وقال قوم إن السنة تقضى بالأزيد فتحة السواك عن نصف الإبهام ، ولا يتجاوز سمكه عن غلظ إصبع . ثم افترق آخرون في تحديد طريقة استخدامه ، فقالوا : إنه من السنة أن يبدأ المرء بإدخال السواك مبتلا في الشدق الأيمن ثم يمر به على أسنانه ثلاث مرات ، ثم يبصق أو يتمضمض ، ثم يمر به ثلاث مرات أخرى ، ويبصق أو يتمضمض من جديد ، وهكذا تتوالى المرات والبصق والمضمض . وهنا تسأل أحد هؤلاء المجتهدين فقال : أتكفي هذه المضمضة عن سنة المضمضة في اوضوء أم لا تكفي ؟ فمن قال إنها لا تكفي استطاع أن يحتج بأن مضمضة الوضوء

تقتضى إمرار الماء بالخلق للفرغرة ، ولا يتحقق ذلك الأمر باستخدام السواك . ثم اختلفوا بعد ذلك فقالوا : كم مرة يستخدم السواك في اليوم ؟ وهل يجب استخدامه عند كل وضوء أو عند تلاوة القرآن ؟ وبلغ من تشدد هؤلاء المشركين أنهم جعلوا استخدام السواك نوعاً من التبرك والتقرب إلى الله . ثم إن بعض المشعوذين وجدوا فيه كثيراً من المزايا السحرية : منها إنه إذا وضع قائماً ركبته الشيطان . وقال آخرون إنه إذا ألقى أورثاً مستخدمه الجذام ! وبفضل هذا التتبع والتعنت خفي على الناس حكم استخدام السواك . وبعد أن كان أمراً مستحباً كاد يصبح أساساً من أسس الشريعة ، أو حيلة من حيل السحر والشعوذة .

وأقل من هذا التشدد والتعنت ما وقع فيه بنو إسرائيل الذين شقوا على أنفسهم فشق الله عليهم ؛ كما جاء في قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتعذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . » (١) فكان يكفيهم أن يذبحوا أية بقرة إلا أنهم أبوا إلا التتبع

(١) سورة البقرة من آية ٦٧ إلى آية ٧١ .

واللجج في السؤال . فلما شددوا شدد الله عليهم . (١)

لكن لنعد إلى فقهاءنا وإلى كتبهم لنقول : إن من يبحث عن مثل أحكامهم الغريبة هذه سوف يجد منها ما يثير عجبه . لكن ليس في غرضنا - كما قلنا - أن نفسح لها في كتابنا أكثر من هذا المقدار الذي لم نحاول اختياره من أشد الأحكام غرابة . ومع هذا فإن تلك الكتب ما زالت موضع تبجيل وتقديس لدى المتأخرين ، يرجعون إليها كلما حزبهم الأمر ، أو كلما طُلب إليهم أن يقرروا حكم الشريعة في كل ما يجد من الحوادث والأعمال . وقلما يجدون فيها شيئاً يتصل بما يراد معرفة حكم الشرع فيه ، فيتمحلون وجوه الشبه بين القديم والجديد ، ويقيسون أمراً على آخر ، ولا يفكرون مطلقاً في أن يضعوا حكماً جديداً يعتمد على البحث والنظر العقلي ، ويتفق مع الحقائق العلمية التي تم الكشف عنها منذ ألّفت هذه الكتب التي تحجب ، أو تكاد تحجب ، عنهم كتاب الله وسنة رسوله .

فإذا قيل لهم إن تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية قد أدى إلى ظهور حالات جديدة لم يرد بشأنها نص في كتب الفقهاء ، وإنه لا بد من تقرير أحكام خاصة بها تلائم العصر وتوافق العقل أبواً إلا أن يقفوا موقف الجمود ، ومنعوا الاجتهاد في تقرير أحكام شرعية لهذه الحالات الجديدة . ولو أجاز بعض المجتهدين في عصرنا مشروعية التأمين على الحياة أو على البضائع أو على الدور ضد الحريق ، أو أفق بجواز استثمار الأموال الراكدة عن طريق المصارف أو أحل قبول ربح ضئيل للأموال المودعة في صناديق

(٢) راجع تفسير الإمام محمد عبده لهذه الآيات . تفسير المنار ج ١ ص ٢٥٠ .

التوفير ، أو أباح لبس القبعة في أثناء الصيف هاج المقلدون الجامدون فرموه بالكفر . ولم لا يفعلون ؟ ألا يرون أن باب الاجتهاد قد سدّ ، وأن أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوههم ؟ لكنهم ينفرون من الاجتهاد سترأ لعجزهم واحتماه وراء المتقدمين الذين لو وجدوا في مثل ظروفهم لاجتهدوا ولا جازوا كثيراً مما يحرمه القوم لجهلهم وتشددهم في الدين والشعور بالخرج في غير ما يوجب الشعور به .

ولقد ضاق الأفغانى صدرأ بهؤلاء الذين يخفون جهلهم وقصورهم تحت ستار التمسك بما قال السابقون من الأئمة ، وهربا من تقرير الأحكام الشرعية طبقاً لما تقتضيه حاجات الزمان وظروفه ، فقال أيجهل هؤلاء الادعاء أن السابقين الأولين قد اجتهدوا في حدود ما كانت تملية عليهم بيئتهم الاجتماعية والتاريخية ، ولم يقفوا هم أنفسهم عند أقوال من تقدمهم^(١) . ولم يتوقعوا أن من سيأتى بعدهم لن يسلك مسلكهم من الاعتماد على النظر والبحث مع اطلاق الحرية للعقل . ولو استطاعوا أن يجتهدوا لكل ماسيجد في العصور التي تليهم لفعلا . فما الذى يحول إذن دون المتأخرين أن يجتهدوا بدورهم ، وأن يتشبهوا بهؤلاء الذين يحتجون بأقوالهم ؟ ولماذا يؤثرون الجود والتقليد ثم يزعمون أنهم قوامون على الناس في أمور دينهم وديناهم ؟ لقد ترك الأولون للآخرين شيئاً كثيراً . وليست الأحكام التفصيلية التي اهتموا إليها إلا شيئاً يسيراً ، لأنها كانت رهنا بزمانهم . والأحكام تتبدل وتتطور بتبدل الأزمان والعصور . ومن ثم فلا سبيل إلى الإصلاح

(١) انظر أيضاً ص ١٢٢ .

إلا إذا فتح باب الاجتهاد ، وإلا إذا دالت دولة المقلدين العاجزين ، التي رأى محمد عبده قبلنا ، أنها بسطت سلطانها على العالم الإسلامي منذ نحو ألف سنة ، بحيث لا يمكن القول بأنها دولة عارضة توشك أن تزول . فمنذ ذلك الحين يعلم المتأخرون مسائل الخلاف حق المعرفة ولكنهم لا يريدون أن يقطعوا برأى فيها ما دامت الكتب التي في أيديهم لم تشر إلى الرأى الذى يجوز بخاطرهم . فهم يتحرجون كل الحرج من أن يقولوا شيئاً لم يسبقهم إليه أحد . وفى غمرة هذا الخلاف تضل العامة ولا تهتدى إلى الحق فى أمور دينها ودنياها . وقد أشار أبو العلاء إلى هذا البلاء الذى وقع فيه المسلمون بسبب جمود الفقهاء واختلافهم ، فقال يتحدث عن أتباع الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما :

أجاز الشافعى فعال شيء	وقال أبو حنيفة لا يجوز
فضل الشيب والشبان منّا	وما اهتدت الفتاة ولا العجوز
لقد نزل الفقيه بدار قوم	فكان لأمره فيهم نجوز ^(١)
ولم آمن على الفقهاء حبساً	إذا ما قيل للأمناء جوزوا

وحرص هؤلاء على إبقاء الخلاف بينهم ، وعلى احتكار العلم يريدون به عرضاً من الحياة الدنيا ، كما وصفهم ابن رشد فى عصره ، فقال : « ومعظم الفقهاء هكذا نجدهم » . ذلك أن الفقهاء يجدون فى هذا الخلاف والصراع سبيلاً إلى استمرارهم فى البقاء ، وإلى كسب العيش ، وكل ما يشغلهم هو أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، وأن يظل التحالف بينهم وبين الحاكم الزمنى . لذلك قلما تجد الفقهاء يشغلون أنفسهم بالبحث عن أسباب تدهور المسلمين

(١) قضاء حاجة له .

وانحطاطهم ، أو يجهدون الفكر في تلمس الوسائل للنهوض بالأمّة وإعلاء شأنها ؛ بل يعتقدون ، في أشد العصور ظلاماً ، أن الأمّة بخير ، وأن كل ما يحل بها من البلاء أقل مما يمكن أن يحل بها لو أرادت إصلاح أمرها عن طريق غير طريقهم ، مع أن الإصلاح لا يعينهم في قليل أو كثير ؛ إذ يرون أن الأمور تسير دائماً على النحو الذي ينبغي أن تسير عليه ما دام الناس يتقبلون صابرين كلا من الاستبداد السياسي والروحي . فهم متفائلون دائماً . مهما اشتدت الخطوب ، ويرون أنه ليس في الإمكان أن يكون أبدع مما كان . فهم محافظون بحكم وضعهم في الهيئة الاجتماعية ؛ بل بحسب طبيعة مهنتهم . وأهم سمات المحافظة الجمود ، أي محاربة التجديد والإصلاح . فإذا أنت رأيت في عصر ما أن التحالف بين أهل التقليد من رجال الدين وبين حكومة إسلامية بدأت تنفك أو اصره وتنحل روابطه فلك أن تطمئن إلى أن الإصلاح يسير بخطا حثيثة ، وأنه يسير في الاتجاه الصحيح .

الفصل الثالث

طرق الإصلاح

١ - نهضة الشرق

١ - شدة القهر تؤدي إلى الانفجار :

لن ينهض الشرق من كبوته ، ولن يسترد مكانته التي طالما حنَّ إليها أهله إلا إذا عرف أدواءه ومواطن الضعف فيه ، وإلا إذا علم كيف يسد تلك الثغرات العديدة التي نفذت إليه منها أطماع وجيوش الدول الأجنبية . وقد أجمع المصلحون ممن عرضوا لمشكلة تدهور المسلمين على أن الاختلاف السياسي والديني أفضى إلى ظهور طبقتين كانتا وبالاً على الإسلام ، وهما طبقة الملوك المستبدين وحلفاؤهم من العلماء المنافقين ، كذلك اتفقوا على أن هذا التحالف قضى على الروح الدينية الحقيقية ، وعكس معايير الأخلاق ، فثبَّط الهمم ، وشغل الناس عن دنياهم بحجة الاستعداد لآخرتهم ، مع أن من واجب المسلم أن يعمل لهما معاً . لذلك كان من الطبيعي أن تتوالى النوازل على الأمة الإسلامية خلال العشرة القرون الماضية ، مما أدى إلى استسلامها لشقر قليل من أبنائها ، ثم زاد البلاء شدة عندما أخذ الأجانب ، في مطلع العصر الحديث ، يعبثون بأقدارها ويسخرونها كما تسخر الأنعام أو ما هو أشد من ذلك سبيلاً .

على أن هذه المصائب والكوارث المتتالية ، ولا سيما كارثة الابتلاء

بالسيطرة الأوروبية ، أزججت الغافلين ، ونهبت النائمين ؛ لأن أية أمة من الأمم إنما تسلك مسلك الانحطاط والانحلال إذا غلب عليها الاستبداد السياسي أو الروحي أو كلاهما معاً . فإذا هي بلغت غاية من الخضوع والاستخذاء ، ولم يعد في القوس منزع فزعت من ركودها ، وحاولت المحافظة على بقائها . ذلك أن الأجنبي لا يريد الاستعمار فحسب ؛ بل يحرص ، في التحليل الأخير ، على إفناء الأمم التي تخضع له . فإذا استطاع أن يفنيها فعل ، كما حدث في القارات التي كشف عنها الأوروبيون منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى الآن ، حيث أبيدت ملايين من أهل البلاد الأصلية تحت ستار نشر الحضارة الأوروبية . والحق أنهم أبيدوا ليفسحوا المجال أمام النازحين من دول ضاقت بسكانها .

فإذا عجز المستعمرون ، لسبب ما ، عن إبادة أمة بأسرها اتخذوا إلى ذلك سبباً مختلفاً ، كأن يحاولوا محو خصائص هذه الأمة وتقاليدها ولغتها ودينها لكي يسهل عليهم إدخالها في فلكهم أو إدماجها في شعوبهم ، كما حاولت أن تفعل فرنسا مع بلاد الجزائر التي تقول عنها إنها مقاطعة فرنسية ، أو جزء من أرض الوطن ، لكل فرد من أفرادها أن يخضع للقوانين والتقاليد الفرنسية حتى يغدو مواطناً كأي فرنسي آخر . وتلك حيلة قد ينخدع لها بعض من لا عقل له ، ولكنها لا تخدع الفرنسيين أنفسهم أو لا يصدقها الرجل الفرنسي العادي في الأقل ، فكثيراً ما يخبرك مثل هذا الرجل متطوعاً أن شعب الجزائر من جنس غير جنسه ، ودين غير دينه ، وهو لا يرضى في قرارة نفسه ، أن يقف المستعبدون على قدم المساواة مع الأحرار . كذلك أرادت إنجلترا أيضاً شيئاً من هذا القبيل مع مسلمي الهند

عندما ساعدت على نشر موجة الإلحاد بينهم لتصرفهم أولاً عن دينهم ، لكي
تستطيع القضاء في يسر على كل مقاومة في الأقطار الهندية . (١) وهكذا
تفعل الدول الغربية جميعها عندما توفد المبشرين لتمهيد الطريق أمام
جيوشها وأساطيلها .

غير أن الأمة الإسلامية ، وإن كانت بلغت من الانحطاط غايته ،
وأوشكت أن تبيد بسبب ظلم حكامها وأعوانهم ، فإنها كانت تحتفظ بجذوة
كامنة تتمثل في دينها الذي أتاح له سلامة بنيته وبداهة عقائده وموافقة
للطبيعة الإنسانية أن يصمد أمام كل غزو ديني أيا كان مصدره . فلما اشتد
الضيق بالمسلمين ، وبلغت النفوس التراقي ، وسقطت جل البلاد الإسلامية
في يد الأجنبي أو صنائعه ، وقرب الخطر من القلب ، أى من جزيرة العرب
والأماكن المقدسة ، تحركت الخواطر وانتفضت الأمة الإسلامية لتدفع
عن كيائها ، فتجمع الشمل ، وقامت جماعة من المسلمين المخلصين من مختلف
الأقطار تثير الهمم ، وتدعو إلى الاتحاد والتكاتف والتعاون أمام هذا الخطر
الأكبر ، فتجددت الروابط ، وتقاربت الأقطار المتباعدة والآراء المتنافرة
، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أفكارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ،
مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا
في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الخطأ وعلل الضعف ، راجين أن
يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، مؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا
حسناً ليسلكوه لحماية الدين والشرف . وإن في الحاضر منها لهنزة تغتم ،

(١) انظر كتابنا جمال الدين الأفغاني : حياته وفلسفته ص ٥٥ — ٥٥ .

وإليها بسطوا أكتفهم لا يخالونها تفوتهم ، ولئن فانت فسكن من الغيب
من مثلها . . . » (١)

وهكذا نشأت جمعية العرة الوثقى من هؤلاء العقلاء الذين حددوا هذا
الهدف الجليل فى كثير من الأقطار الإسلامية ، وخصوصاً فى البلاد الهندية
والمصرية ، وجعلوا يبحثون عن أسباب النجاح من كل وجه ، ويبدلون
الجهد فى جمع كلمة المسلمين ، مضحين بأرواحهم . وكان على رأس هذه الجماعة
جمال الدين الأفغانى الذى خصص حياته للدفاع عن الإسلام وأهله فى كل
قطر من أقطارهم . فكان لإنشاء هذه الجمعية ومجالتها أثر كبير فى بعث الحاس ،
وتوحيد القلوب ، وثورة الشعوب ضد حكاهم المستبدين وملوكهم الخائرين ؛
لكى يأمنوا ظهورهم فى أثناء صراعهم مع الدول المستعمرة . وامتد لهيب
الثورات فى كل مكان فى مصر ، وفارس وغيرهما . وما برحت الأمم الإسلامية التى
استيقظت من هجمتها الطويلة تسير على هدى هؤلاء الأحرار المصلحين ، لتتزع
بلادها بلداً بلداً من أيدى الغاصبين ، فتحررت مصر والباكستان وإيران وسوريا ،
وبدأت أفريقية الشمالية تجاهد بدورها لرفع يد الحكام الأجانب عن عنقها .
فاليقظة الإسلامية شاملة ما فى ذلك ريب ، ووسائل النجاح موفورة ،
ولا يعدو الأمر أن يكون مسألة زمنية ؛ فسوف تسترد هذه الأمم حريتها
فى المستقبل القريب أو البعيد . ولو كانت أكثر اتحاداً وتضامناً لاستطاعت
أن تختصر كثيراً من المراحل والتضحيات . ولكن من يدرى فرما كان
ذلك هو الطريق الطبيعى . فإن الأمة التى تفقد حريتها لمئات من السنين

لاستطيع استردادها بين يوم وليلة ، كالمريض الذي ترهقه العلة ، في سنين طوال ، فيعجز عن استرداد الصحة دفعة واحدة ؛ بل لا بدله من فترة النقاهة والتدرج ؛ إذ كثيراً ما ينتكس المريض إذا حاول ما ليس في طاقته ، أو سلك مسلك الأصحاء في طعامهم وشرابهم .

ومن الأكيد أن الأمم الإسلامية قد استيقظت منذ الحركة النوهابية وزادت يقظتها إبتداء من أواخر القرن الماضي ، ولا ريب في أنها يقظة حقيقية غير مفتعلة ، وفي أن تلك الأمم تشرف على أفاق جديدة . ومن الأكيد أيضاً أنها أخذت تشعر بقوتها الحقيقية ، وتعلم أن هذه القوة وليدة الاتحاد والوفاق ، وأن سبيل الخلاص إنما يكون بالعودة إلى الأخلاق الإسلامية التي انعكست معاييرها بسبب الاستبداد وازدهار طائفة من المشعوذين والمتجرين بالدين . وليس من ريب في أن اليقظة كاملة ، وأن الحن التي اعترضت ، أو قد تعترض ، الأمم الإسلامية ليست من تلك الحن التي تعود بها إلى ما كانت عليه في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي . فقد احتملت الضيم إلى حد لا سبيل إلى الزيادة فيه مشقال خردلة . وهي تعلم أنها إذا أخطأت طريقها إلى استرداد حريتها مرة فلن تخطئه مرة أخرى ؛ إذ ستكون أكثر حذراً ، وأشد فطنة في المرة التالية . ذلك أنه إذا طاح أو هوى زعيم من زعمائها فسيأتي من بعده زعيم آخر ، أصلب منه عوداً ، وأطول باعاً ، وأنفذ بصيرة ، وأكثر دهاء . وهي تعلم أنه ربما فشلت ثورة الأحرار مرة ، لكنها تنجح في المرة التالية . وإن حوادث الشرق في عشرات السنين الأخيرة لتشهد بأن الأمم الإسلامية تفيد من أخطائها ، وأن البذرة

التي غرسها زعماء الإصلاح الديني والسياسي قد أنبتت أفضل الغرس
وتبشر بأفضل الثمر .

ب — مجددون ورجعيون :

وقد لاحت معالم اليقظة في مختلف الأقطار الإسلامية في أوقات
مقاربة ، فظهر بعض المصلحين في الهند من أمثال أحمد خان ، ثم جاء
جمال الدين الأفغاني فأيقظ الدول الإسلامية فبدأ بمصر والسودان ، وثنى
بإيران ، وظل يحمل لواء الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية زهاء
ربع قرن أو يزيد . وفي أثناء ذلك تتلمذ عليه أحرار مصر وتركيا ممن كان
لهم شأن في النهوض بالشرق فيما بعد . حقاً أدركه اليأس من أبناء ملته في آخر
حياته ، لكن الأفكار لا تموت . وما النهضة التي نراها الآن في مختلف بلاد
المسلمين إلا من غرس يديه . على أن هناك طائفة أخرى ساهمت بقدر
ما في هذه النهضة الشاملة ، وإن كانت تختلف عن جمال الدين وتلاميذه
في أنها لم تتخذ العودة إلى الدين أساساً ومحوراً لدعوتها ؛ بل كانت طبقة
من الملحين الذين تأثروا بإلحاد أوروبا ، وظنوا أن النهضة السياسية
والاجتماعية تكفي في تنبيه هذه الأمم المغلوبة على أمرها . ومع ذلك فإنها
لم تعلن إلحادها ؛ بل كثيراً ما استخدمت الدين ستاراً لتحقيق أغراضها
السياسية والقومية . كذلك نلاحظ لدى بعض هؤلاء الدعاة والزعماء نفراً
آخر ينادون بمبادئ تشبه مبادئ الماسونية شبيهاً عجيباً ، وتدعو إلى محاربة
التعصب الديني وإلى ضرورة الحياة النيابية على غرار ما فعل الماسونيون
في الغرب ، للقضاء على استبداد الأقلية التي تتحكم في الشعوب باسم الحكم
الملكي الوراثي أو باسم الدين .

هذا إلى أن حركة الإصلاح لم تجد الطريق معبداً أمامها ، وكان من الطبيعي أن تصطدم بقوة هائلة ، وهي قوة المحافظين على القديم ممن يرون في تغيير الأوضاع خطراً على الدين أو على أنفسهم . ولم تكن قوة الرجعيين بالامر الذي لا يؤبه به ؛ فإن للقديم سحره وجلاله وقديسيته ، وله أنصاره وأعوانه الذين ينافحون عنه إما عن علم ، وإما عن جهل ، وربما كان أعوان القديم من الجهاد أكثرهم حدة في الدفاع عنه ، وأشدهم حماساً في محاربة الإصلاح والسخرية من زعمائه وقادته . فلقد لقي جمال الدين من جهلاء الأتراك أكثر مما لقي من علمائهم ؛ إذ انسأقت العامة وراء شيخ الإسلام هناك ترميه بالإلحاد والزندقة ، وتطوع بعض الكتاب للطعن في دينه على غير معرفة بحقيقة حاله . وإذا ساهم الجهاد في مقاومة المصلحين فعملوا شيئاً كثيراً ، فإن التيارات الاجتماعية والعاطفة الدينية العمياء تكتسح في طريقها كل عاطفة أخرى كعاطفة الإنصاف أو الرحمة ؛ وفيها يفقد المرء العادي حرية تفكيره ، وينصاع لما يقوله الآخرون فيردّد ما يرددون ؛ بل ليغلو في ترديده دون بصيرة ، حتى ليظن أنه الحق نفسه . فإذا هدأت الأفكار الشائرة عاد كل من هؤلاء إلى نفسه ليرى أنه أفرط في النقد وغلا في اتهام الناس بالباطل . وقلّ أن يقابل الإصلاح بنفوس راضية ؛ بل إن من شأن العبقرية أو الزعمامة أن يلقاها الناس بالسخط والحقد ، حتى إذا فرضت نفسها عليهم ، رضخوا لها ، وجعلوا يقولون إنها إنما جاءت تعبر عن أفكارهم وتترجم آمالهم .

كذلك لقي الإمام محمد عبده من عداء الخاصة والعامة أكثر مما لقي منهما أستاذه . فإن الخديوى عباس ركن إلى بعض الرؤساء الروحانيين ممن

لهم نفوذ عظيم في نفوس العامة ، لكي يبشوا له العداوة بين الشيخ محمد عبده وبين رجال الأزهر ؛ بل يقال إنه ذهب إلى تحريض بعض أعضاء مجلس إدارة الأزهر على الاستقالة ، لكي يستعفى عنهم بآخريين يكونون أقدر على الوقوف في طريق الإصلاح الذي كان محمد عبده ينادى بضرورة إدخاله على هذه الجامعة الإسلامية . ولم يكن شيوخ الأزهر ليغفروا له أنه جاء يحارب الجود والتقليد ، ويحث على التجديد والاجتهاد . فظنوا أن خير سلاح يوجهونه إليه فيصميه هو أن يتهموه بالكفر ، وأن يشيعوا ذلك عنه ، حتى ينفر الناس منه جميعاً . وقد أفلحوا في كيدهم إلى حد كبير ؛ وهنا يأتي دور الجبهة ، ومن لا خلاق لهم ممن يتجرون بالرأى العام عن طريق الصحف ؛ فانساق هؤلاء وهؤلاء ، من تلقاء أنفسهم أو بتحريض أعداء الشيخ محمد عبده ، للتشهير به ورميه بكل نقيصة ، وافنت الصحف الهزلية في التشنيع عليه حتى أصبح لا يطبق حياته ، دون أن يرجع عن آرائه أو تهن عزيمته ، وإن تركت هذه المقاومة العمياء آثارها العميقة في نفسه وصحته .

لكن مثل هذه المقاومة ما كانت لتهد من عزم هؤلاء المصلحين الذين أدركوا بفطرتهم الثاقبة أن الزمن في جانبهم ، وأن فلول الحقد والحسد والجهل سوف تولى الأدبار عما قريب ؛ ذلك أنهم فطنوا إلى ما لم يفطن إليه هؤلاء الذين تغمرهم الحياة السياسية من كل جانب ، فلا يتبينون منها شيئاً - فنقول إنهم فطنوا إلى أن العالم الإسلامي قد بدأ يضطرب تحت وقع ضربات الغرب ، وأنه أخذ ينتفض مذعوراً من سباته العميق ، يريد تحطيم أغلاله وقيوده واسترداد مكانته . كذلك أدركوا أن هذه الأمة ما زالت تصلح للبقاء ؛ إذ على الرغم مما حل بها من الكوارث فما زال في أعماقها طبقة من الذين يتوقون إلى النهوض والدفاع عن النفس ، والذين لم يأت

الاستبداد السياسى والروحى على خير ما تنطوى عليه نفوسهم من العزم على الصمود للظلم والدجل ، ومن الرغبة فى استعادة ما فقدته أمتهم من مجد وشرف . وفى جملة القول حدس هؤلاء القادة حدسا صادقا أنه قد آن للشرق أن يقف على قدميه ، ويزيل الصعاب التى اعترضت تقدمه مئات السنين ، فى الوقت الذى استطاعت فيه دول أوروبا أن تخرج من ظلمات العصور الوسطى ، وأن تتحرر من طغيان الحاكمين بأمرهم فيها .

أضف إلى ذلك أن احتكاك الشرق بالغرب لم يكن شراً كله ، بل كان فيه جانب من الخير ؛ فقد وقف المسلمون على حقيقة أذهلتهم ، وهى أن الحضارة الغربية أصبحت الحضارة العالمية ، وأن كل حضارة سواها لا تستطيع البقاء إلا إذا أخذت بالأسباب التى أدت إلى ازدهار حضارة الغرب ، من اعتماد على العلم والحرية السياسية ؛ كذلك علموا أن حضارتهم التى طالما زهوا بها ، والتى حسبوا أنها ما زالت تمثل الحضارة الإنسانية ، أصبحت لا تغنى عنهم شيئاً ، ولا سيما بعد أن تلوثت مصادرها الأولى بأوشاب وأخلاط مسختها حتى أصبح التعرف عليها يكاد يكون من أشق الأمور وأكثرها عناء ، وحتى أصبحت فى حالتها الراهنة لا تدفع عنهم شراً ولا تأتيهم بخير . ذلك أن العلم والفن أصبحا غريبين بعد أن ضاق الشرق بهما ، كما انتقلت القوة والغلبة معهما من جانب إلى آخر .

ونقول إن هؤلاء المصلحين لم يضيقوا بهذه المقاومة اليائسة التى بذلها الرجعيون للاحتفاظ بآخر معقل من معاقليهم ؛ ذلك أنهم علموا أن الشعوب الإسلامية ستدرك - أو أدركت بالفعل - أن القديم إلا غناء فيه ما لم يطعم بالجديد ، وما لم تهذب أطرافه وحواشيه حتى يمكن التوفيق بينه وبين الجديد .

فكل محاولة يقوم بها أنصار الجمود والتقليد للوقوف في تيار الحضارة الجديدة التي تقوم على أساس العلم ، ستلقى أسوأ مصير ؛ فإن الأمم لا تستطيع أن تعيش على القديم وحده ، وبخاصة إذا كان هذا القديم مليئاً بالأخطاء والأوهام والتقاليد التي لا تتفق في كثير من الحالات مع الديانة الأولى . فالخير كل الخير للشرق أن يعترف أن الحياة لا توهب للضعفاء والجهلاء ، وأن محاربة العلم والحرية السياسية باسم الدين غدت أسطورة لا تخدع أحداً ، وأن هؤلاء الذين يقاومون الإصلاح ويحاربون أمته إنما يطعنون في غير مطعن ، وينفقون جهودهم عبثاً ، وأنهم سيرجعون عن باطلهم ، طال بهم الزمان أم قصر ، وأنهم سيعلمون متى يجب أن ينقلبوا مع الريح ، لكي يكونوا أول الفائزين بشمرات جهاد الآخرين .

وهذا هو ما حدث بالفعل فإننا نرى بأعيننا أن أحفاد أو أبناء هؤلاء الذين حاربوا جمال الدين ومحمد عبده وأضرا بهما يقبلون على دراسة العلوم الأوروبية التي كان أجدادهم أو آباؤهم يصرحون بأنها خطر على الدين . كذلك نرى أن الدين لم يفقد شيئاً سوى تلك الأوهام والآراء المميتة التي كانت وصمة عار في جبين السمحة الغرام . فقد أخذت موجة التصوف الكاذب تنحسر ، وبدأ أوساط الناس وعامتهم يتجهون إلى الدين الحق من تلقاء أنفسهم ، دون أن يقودهم إليه علماء الدين الرسميون ؛ بل رأينا أكثر من ذلك ، وهو أن الإصلاح الديني يسير بخطا حثيثة وأن آراء كبار المصلحين من أمثال جمال الدين ومحمد عبده تدرس جنباً إلى جنب مع آراء أرسطو وأفلاطون وكانت وديكارت في المعاهد الدينية أيضاً . فلقد تحطمت حصون الرجعية أو فتحت في الأقل أبوابها للعلوم الحديثة والفلسفة ، واضطرت

أن تقبل ما كانت ترفض من قبل ؛ لأنها ما زالت شديدة الحرص على الحياة ، ولا حياة في عصرنا هذا لا للجامدين ولا للمتعصبين للجمود . ولو قام غلاة الرجعيين اليوم ينذرون الناس بخطر العلوم الحديثة على الدين لهذا القوم أكتافهم سخرية ، ولو كانوا من أشد الناس عداً للعلم بالأمس .

فمن الأكيد أن روح الإصلاح قد سرت وتغلغلت في نفوس كثير من أبناء الأقطار الإسلامية ، وأن مظاهر التطور بدأت تلوح في مختلف مرافق الحياة ، وأن الشرق يشهد اليوم تفاعلاً عجيباً بين عناصر القديم وعناصر الجديد . ويعلم أن الغلبة ستسكتب ، دون ريب ، لهؤلاء الذين يأخذون من الحضارة الغربية أحسن ما فيها ليوفقوا بينه وبين العناصر الإسلامية الأصيلة . ومن الطبيعي أن هذا التفاعل الكبير سوف يطهر العقائد من كثير من الشوائب والأوهام والآراء الفلسفية العتيقة التي ظنها مفكر والمسلمين في عصورهم السابقة النتائج النهائية للحكمة والتفكير العقلي ؛ كذلك سوف يقضى على كثير من العادات الغربية التي نمت ثم ازدهرت وتجلت على الزمن ، في عصور التأخر والجمود . على أن هؤلاء الذين يريدون الاحتفاظ بكل شيء في القديم ، ولو كان شراً ، ويبدلون قدر طاقتهم في الوقوف أمام تيار الحضارة العلمية والاجتماعية الراحفة في بلاد الشرق يغفلون عن حقيقة كبرى ، وهي أننا إذا فرضنا جدلاً أن أهل الجمود انتصروا ، وأنه أمكن الرجوع إلى الأفكار العتيقة التي سادت في بلاد المسلمين في أيام تدهورهم ، فإن ذلك لن يغنى عنهم شيئاً . حقاً سوف تعود البلاد الإسلامية إلى حالة من الانحطاط لا يمتناها إلا مريض العقل أو العاطفة . ولكن هل من الأكيد أن يرضى الناس جميعاً بهذا النكوص ؟ وهل من المعقول أن تقف دورة

الفلك ، فلا تتجدد نفس العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التي أدت إلى يقظة المسلمين في القرنين الأخيرين . إن الزمن لا يعود إلى الوراء عادة ، وقد تتخلف بعض الأمم ، وتركذ وتأسن حضارتها ؛ فإن بقي فيها صباغة من عزم وطموح لم تلبث أن تتحرك عجلة التطور ، وتتوالى طلائع الإصلاح حتى تنشط الهمم الخاملة ، وتدب الحياة في أوصال هذه الأمة التي يحرص الرجعيون على الحياة على أشلائها . وإن سنن العمران التي تبعها الشرق في يقظته توحى بأن الريح تهب في جانب دعاة الإصلاح ، وأن المسلمين لن يعودوا إلى ركودهم عما قريب ، ولو كره أنصار القديم .

ح - الوحدة الدينية والسياسية :

وقد استيقظ المسلمون حقاً ، وبدأ النصر في جانب دعاة الإصلاح ، عندما جاءهم رائد الإصلاح السياسي والديني في أواخر القرن التاسع عشر ينبئهم أنهم لن ينهضوا من عثرتهم ، ولن يحتفظوا بالقليل الذي بقي في أيديهم ، ولن يستطيعوا استعادة قليل أو كثير مما فقدوه ، إلا إذا سار الإصلاح السياسي جنباً إلى جنب مع الإصلاح الديني ، وإلا إذا اتحد المسلمون أولاً ، وعادوا إلى دينهم الحق المجرد من عناصر الشرك ومن عقيدة التواكل ، ومن عادات التخاذل والشقاق . فالإصلاح السياسي رهن بالإصلاح الديني ، وكلاهما في الحق مكمل للآخر .

وليس هناك في الحقيقة ما يدعو إلى اليأس . فإن المسلمين ما زالوا ، كما يقول الأفغانى : « يملأون الأقطار التي ورثوها عن آبائهم ، وعديدهم لا ينقص عن مائتي مليون ، وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من

عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد ازدراء بالحياة الدنيا ، وأقلهم مبالاة بزخرفها ؛ جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ؛ فأودع في أفكارهم جرائم الحق ، وبذر في نفوسهم بذور الفضائل . فهم بأصول دينهم أنور عقلاً وأنبه ذهنًا ، وأشد استعداداً لنيل الكمالات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة في الأخلاق . . . لا يرغبون بسلطة غيرهم عليهم ، ولا يحوم بفسكر واحد منهم أن يخضع لذي سطوة من سواهم ، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت . ولما بينهم من الأخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه .»

وتلك هي العقلية الإسلامية التي أدت في قديم الزمان إلى انتشار الدين الإسلامي انتشاراً لم يشهده أي دين آخر . ذلك أنه يتجه إلى الفطرة الإنسانية السليمة ، وهي تلك الفطرة التي ترى في حرية العقل والضمير خير ضمان للعقيدة الحقّة التي توجب على صاحبها ألا يذل ويخضع ويقر بالعبودية إلا لله وحده . وقد جاء الإسلام في وقت تدهورت فيه الديانة المسيحية ، واتجهت نحو الشرك في بزنطة حيث انتشرت الأوهام والعقائد الوثنية والأساطير القديمة بفضل علماء الدين من اليونانيين ذوي العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فأصبحت المسيحية عبثاً وسخرية على حد قول لوثر بستر دارد^(١).

أما الدين الجديد فقد نجح في طبع العرب غلاظ القلوب بطابع الرحمة

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٤ .

والتسامح والسعى إلى الخير ، فذهبت عنهم همجية الجاهلية وحدتها ، وغدوا فاتحين رحماء لا يميلون إلى إراقة الدماء ، ولا يهدفون إلى تدمير حضارات الأمم التي دخلت تحت سلطانهم ؛ بل كان الأمر على عكس ذلك تماماً ، فقد أخذ العرب ينهلون من موارد المعرفة ، وحملت الأمة الإسلامية أمانة العلم وأصبحت أكثر أمم الأرض حضارة وتقدماً وعمراناً ، وكتبت الغلبة لثقافتها خمسة قرون أو أكثر ، وأخذت بيد العالم المسيحي فأخرجته من حلسكة العصور الوسطى . فلما دب الضعف إلى العقائد وكثرت الفرق الدينية ، وسيطر أهل التعصب بمن تأثروا بالتقاليد المسيحية أو الهندية، على عقول العامة ، دب الوهن إلى هذه الأمة ثم طفقت تنحدر حتى قاربت الهاوية . ومع ذلك فإنها تستطيع أن تقف في طريق الانحدار دفعة واحدة ، فتسترد أنفاسها ، وتسترجع مجدها الذي طالما بكت على ضياعه عبثاً، لو أنها عادت إلى الأصول الدينية الأولى وإلى الأخلاق الإسلامية التي كانت منبعاً تفيض منه قوتها وحضارتها .

فالوحدة الدينية في رأى جمال الدين هي الأساس الحق لكل نهضة سياسية ؛ بل هي منها بمثابة الروح من الجسد . ذلك أن القطعة الدينية بين أبناء الأمة الإسلامية والخرافات التي دخلت على عقائدهم كانت أهم العوامل التي أدت إلى تفرق أجزاء هذه الأمة وتنافر ملوكها وأفرادها على نحو انتهى بتدهور الأقطار الإسلامية المتناحرة وإلى ضعفها جميعاً ، ثم إلى سقوطها قطراً بعد آخر في أيدي العدو، حتى أصبح المسلمون في آخر العهد يحارب بعضهم بعضاً تحت أعلام دول أجنبية ، كما حدث في الحروب العالمية الأخيرة . وقد أحس الأفغانى من قبل بتفكك هذه الأجزاء وتناثرها

وتقاطعها فأبى لنفسه أن ينتسب إلى جزء منها ؛ بل كان يرى أنه غريب لا وطن له ، لأنه لا وطن اليوم للمسلمين . فقد أصبحوا غرباء في بلادهم ، وأذلاء في أقطارهم ، يتحكم الأجني في أرواحهم وأموالهم .

قلو أن المسلمين فطنوا إلى علة العلل - وقد فطنوا إليها بالفعل - لعلوا أنها تنحصر في الاختلافات الدينية والخرافات التي مسخت عقائدهم ، واتجهت بهم إلى نوع صريح من الشرك ، يقوم فيه الأولياء أو القديسون مقام الآلهة في ديانات الشعوب الوثنية كديانة الإغريق والرومان . ولو أنهم أرادوا لأمتهم حياة كريمة - وهذا هو ما يريدونه بالفعل إلا طبقة من الخونة والمرزقة - لوجب عليهم أن يعودوا إلى دينهم الحق وإلى وحدتهم السياسية الأولى التي مزقتها الخلافات والمطامع والفتن . فالهدف الأول الذي يرى الأفغان ضرورة تحقيقه ، حتى يكون النهوض بالمسلمين أمراً ممكناً ، هو أن يسعى هؤلاء لإقامة حكومة إسلامية كبرى ، تضم تحت جناحها مختلف الولايات التي أصبحت عزلاء تنتظر سوء المصير ، إن لم يكن قد أدركها سوء المصير بالفعل .

غير أنه تبين أن تحقيق الخلافة الإسلامية في العصر الحديث على غرار ما كانت عليه في أيام أبي بكر وعمر بن الخطاب أمر يكاد يكون مستحيلاً ؛ لذلك قنع بأن ينشئ المسلمون اتحاداً إسلامياً عاماً شبيهاً بالنظم السياسية الحديثة لبعض الأمبراطوريات الكبرى في عصره . فهو لا يدعو إذن إلى ملك واحد يسيطر على الممالك الإسلامية جميعها ؛ لأن ذلك أمر عسير بعد ظهور القوميات في العصر الحديث . لكنه يرجو أن يكون القرآن دستور الجميع وسلطانهم ، وأن تصبح الوحدة الدينية هدفهم الأكبر ، بينما يبذل كل ملك من ملوكهم

غاية الجهد للدفاع عن أقرانه ، فإن حياته بحياتهم ، وبقائه ببقائهم . وهذه الوحدة السياسية هي التي تتطلبها الدين ؛ فإنه يأمرهم أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا ينفرقوا . فجبال الدين ليس عدواً للملكية في ذاتها ، ولكنه عدو الاستبداد السياسي أيا كان لونه ؛ فإذا صالح حال ملوك المسلمين واتحدوا فليس هناك بأس من بقائهم . وهذا في رأينا دليل على أنه لم يرتض مبادئ الماسونية ، ولم يعمل على نجاحها ، وأنه لم ينخرط في سلك هذه الجماعة إلا ظناً منه أنها تنادى بالمبادئ الإنسانية الحققة من حرية وإخاء ومساواة .

فالوحدة السياسية — ولو كانت بين الملوك — ضرورة توجبها العوامل التاريخية التي تسكتنف المسلمين في عصرهم الراهن . لقد اشتد بهم قهر الدول المستعمرة ، فاستيقظت ضمائرهم وسرت فيهم حمية دينهم ، فليس لهم أن يتركوا مثل هذه الفرصة التي يوايتها الزمان بها ، وليس لهم أن يقعدوا عن العمل الحثيث للوحدة الإسلامية ، في ظل نظام الحكم الملكي السائد في بلادهم ، ولن يغنيهم أن ينقطعوا للبكاء على المجد الغابر ؛ فإن البكاء — كما يقول الأفغانى — لا يحيي الميت والأسف لا يرد الغائب ، والحزن لا يدفع المصاب . كذلك ليس لهم أن يهنوا ويضعفوا في محنتهم الراهنة ، ولا يرهبوا قوة العدو ؛ فإن الوجل يقرسب الأجل واليأس وضعف الهمة من أسباب الختف . والحق أن اليأس والجنن ليسا من خلق المؤمن ؛ إذ لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يخاف الموت إلا من فقد ثقته بربه . فاليأس والجنن دليلان على الكفر : « لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة الله في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوِّغ لهم إيمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا للضميم . . . وإن من الحق أن نقول

إن أبواب رحمة الله مفتوحة لديهم ، وما عليهم سوى أن يلجئوها . . . وليس عليهم في استرجاع مكائنتهم الأولى . . . إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم . وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكّن الجامعة الدينية بينهم» . (١)

٢ — طريق الثورات السياسية والاجتماعية

اتجاهات ثلاثة :

لقد أجمع المصلحون على ضرورة الإصلاح ، لكنهم اختلفوا في تحديد طرقه ووسائله . فمنهم من دعا علانية إلى الثورة ضد الاستبداد السياسي والروحي ، واستخدام العنف للقضاء على تلك الفئة التي تقف في سبيل النهضة الإسلامية . ومنهم من رأى أنه لا بد من العودة إلى التعاليم والأخلاق الإسلامية حتى يلتئم الشمل ، وتنمحي الفُرقة ، وعندئذ يكون النصر السياسي أمراً محققاً . ومنهم من رأى أن محاكاة أوروبا في علومها وصناعاتها أسلم الطرق لرفع مستوى الحياة في الأمم المستعبدة ؛ إذ أن الفقر والجهل حليفتان للاستبداد ، وأن الثروة والعلم هما عدة العصر وذخيرته .

وقد جمع جمال الدين بين هذه الاتجاهات المختلفة . ذلك أنه كان باعث الثورات السياسية في مصر وإيران وتركيا ؛ بل هو باعث الثورات التي شهدتها الشرق الأوسط وشمال أفريقية في السنوات الأخيرة أيضاً ؛ فإن هذه الثورات ليست في الحقيقة إلا امتداداً لحركة الشعوب الإسلامية من أواخر القرن الماضي . وليس من الغلو في شيء أن ننسب إلى الأفغانى هذه الآثار

كلها فقد كان لشدة ذكائه وحدة عاطفته أكبر الأثر في تحريك الهمم وإثارة النفوس لعدة أجيال ، شأن العباقر الذين لا تموت آراؤهم بموتهم ؛ بل تتحقق عادة بعد أن يدركهم اليأس من تحقيقها . أما في مرحلة اليأس من إصلاح حال المسلمين لجودهم وفتورهم فقد كان الأفغانى شعلة لا تخبو جذوتها ، وثورة لا تهدأ حركتها : أينما ذهب تأججت النفوس ، وقام أشباه الموقى من مضاجعهم يطالبون بالحرية ، وينادون بموت الخونة ، وطرد المستعمرين الذين حسبوا أنفسهم سادة أمم منحلة . أما بعد موته فقد انقلب اليأس أملاً ، والجمود والانحلال تجديداً وحيوية ، وزادت الثورة عنفاً ، والنفوس اضطراباً .

فجمال الدين الأفغانى رسول النهضة السياسية في الشرق ، وهو رائد التجديد الإسلامى . لقد ثار على أهل الجمود من العلماء فقواموه ما استطاعوا . ودعا إلى تحرير الدين من الأوهام والأباطيل ، وحاول صرف الناس عن عقيدة التواكل التى ما تطرقت إلى أمة إلا كانت نذير فنائها . وكان اتجاهه الدينى هم أهم ما ورثه عنه تلميذه الشيخ محمد عبده . وربما كانت طبيعة التلميذ لا تتسع لأكثر من هذا الاتجاه . ومع ذلك فإنه لم يكن أقل خطراً من الاتجاه السياسى الذى ارتضاه آخرون كعبد الرحمن الكواكبي ، وطبقه بالفعل مصطفى كامل وسعد زغلول في مصر ، وجمعية تركيا الفتاة في دار الخلافة .

أما الاتجاه العلمى فكان شديد الوضوح عند جمال الدين الأفغانى على الرغم مما قد يزعمه زاعم يريد الانتقاص من قدر هذا المصلح أو يريد أن يصوره للعامة في مظهر عالم الدين الرجعى الذى يحارب الحضارة الأوروبية

والعلم الحديث . ونقول ربما هو جرم جمال الدين من هذه الناحية ؛ فإن بعض الناس يخلط بين موقفه من الآراء الإلحادية الأوروبية التي أخذت تنتشر بين المسلمين وبين موقفه من العلوم والفنون التي كان يعلم حق العلم أنها سبب نهضة الغرب ، والتي كان ينادى بضرورة اقتباس الشرق لها إذا أراد التحرر من إيساره ثم اللحاق بأهل أوروبا . وسنفصل هذه الفكرة في موضعها .

ولم يكن بد من أن يوجد رجل في مثل ذكاء الأفغانى وعبقريته لكي يستطيع التأليف بين هذه الاتجاهات الثلاثة التي يحسب بعض المصلحين من الدرجة الثانية أو الثالثة استحالة التوفيق بينها . لكن جمال الدين كان أطول باعاً ، وأصلب عوداً ، وأجود استعداداً ، وأشد حمية ممن تملذوا عليه . لقد أراد محاربة الاستبداد السياسى والجمود الدينى والتدهور العقلى فى آن واحد ، وقد فعل . ولو أنه وجد من الأتباع من ينهض بحمل العبء معه فلربما لم تتطلب النهضة الإسلامية هذه السنين الطوال لكي تصبح فى وقتنا هذا حقيقة ملموسة فى مختلف الاتجاهات ؛ إذ بدأت الأقطار الإسلامية تتحرر من استبداد الملوك ومن عنيت المستعمرين منذ أوائل القرن الحالى ، وأخذ علماء الدين الرسمى يفسحون المجال أمام نفر من العلماء الدينيين المجددين الذين يرون أن لا عزة لدينهم مع هوان وضعة معتنقيه ، والذين يتودون حركة الجماهير الشائرة فى بعض الأقطار الإسلامية ضد المستعمرين ، بدلا من أن يسعوا إلى التحالف معهم أو طلب العون والرزق لديهم ، على نحو ما كان يفعل بعض الشيوخ ورؤساء الطرق الصوفية منذ عهد ليس بالبعيد . كذلك جعل الشباب يتجه إلى الدراسات العملية المثمرة من طب وهندسة وعلوم وزراعة وملاحة ، بدلا من تلك الدراسات النظرية

التي لا تكفي وحدها في إعداد جيل قادر على الصراع لكسب القوت في هذه الحياة التي يكتب الفوز فيها للعمل ، لا للقول والجدل ، أو الآراء الفلسفية الإلحادية التي ربما تجد صدى في نفوس العاجزين ممن لا يطيقون الكفاح من أجل البقاء ، فيظهرون سخطهم بالتجرؤ على مقام الإلهية الذي خذلهم بعد أن خذوا أنفسهم .

٣ — الإصلاح السياسي

١ — مثال من الغرب :

ترجع نهضة أوروبا الحديثة إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، أي إلى العصر الذي غابت فيه شمس المسلمين في بلاد الأندلس . فإن سقوط هذه البلاد في يد الفرنجة كان بدءاً لعصر الكشف الجغرافية الكبرى ثم الاستعمار . وفي أول الأمر اتجهت أنظار الأوروبيين نحو الغرب بعد كشفهم عن أمريكا عفواً ، وهكذا وضعوا أيديهم على قارتين جديدتين . ومنذ ذلك الحين كان من المستطاع أن يتنبأ المتنبئون بأن ساعة الغرب قد دقت ، وأن شمس الشرق قد غربت ، وأن أوروبا سوف تسيطر على مصير الحضارة الإنسانية .

غير أن ذلك كله كان في حجب الغيب ، وكان أهل القارة الأوروبية في شغل شاغل بالفتح والكشف من جانب ، وبالتحرر من سيطرة الملوك ورجال الكهنوت من جانب آخر . ولم يكتب النصر لهذه الشعوب على ملوكها ورؤسائها الروحانيين إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما قام

الفرنسيون بشورتهم الكبرى التي غيرت معالم أوروبا ، وهزت عروش ملوكها ، فلم تنقض عدة أجيال حتى اختفت الملكية الاستبدادية دون رجعة ، وقنع رجال الدين بأن يحيا حياتهم الخاصة ، وأن يتركوا ما لقيصر لقيصر ؛ أى أنهم رضوا أن يشغلوا أنفسهم بالدين وحده .

ولم يكن التحرر من الطغيان السياسي والديني إلا نتيجة لجهود جماعة من المفكرين الأحرار ، أو الملحدين كما يسميهم رجال الكهنوت في أوروبا ، ونريد بهم طائفة البنائين الأحرار أو الماسونية . فقد ظهرت هذه الطائفة هناك في الربع الأول من القرن السادس عشر ، أى في العصر الذي نادى فيه لوثر وكالفن بضرورة الإصلاح الديني . وكان أهم دعايتها في إيطاليا أفراد عائلة تسمى « سوزيني » . وقد أراد هؤلاء أن يذهبوا في الثورة على الكنيسة الكاثوليكية إلى حد أبعد مما ذهب إليه كالفن ولوثر . وكانت الفكرة الأساسية للماسونية الأوروبية هي القضاء على مبدأ الأسرار في المسيحية ، وتأويل كل ما لا يقبله العقل منها إلى درجة أنهم أفرغوا البروتستانت أنفسهم من العقائد التي أنكروها عقيدة التثليث وعقيدة الخطيئة الأولى ، وتجسد الله سبحانه في شخص المسيح . ثم انتشرت الماسونية من إيطاليا إلى كثير من الأمم الغربية كبولنيا وإنجلترا وهولندا وفرنسا وبلاد المجر وروسيا .

وإلى هذه الطائفة يرجع الفضل في هدم الملكية وتدمير سلطان الكنيسة . ومن المحقق أن « فولتير » و « ديدرو » وغيرهما ، ممن مهدوا لقيام الثورة الفرنسية ، كانوا من أتباع الماسونية . كذلك من الأكيد أن الديانة الطبيعية [Déisme] التي نادى بها فولتير ، وأراد الاستعاضة بها عن المسيحية ، ليست إلا صورة من الفلسفة الماسونية التي تقوم على فكرة

الاعتراف بإله واحد ، يطلقون عليه اسم مهندس الكون الأكبر ؛ وتعتمد على أسس المعرفة العقلية التي يتخذون الهندسة والرياضة نموذجاً لها . أما في عهد الجمهورية الفرنسية الأولى التي تلت سقوط الملكية فقد استولى الماسونيون على السلطة الحقيقية ؛ ذلك أن عدداً كبيراً من ممثلي الأمة كانوا من أفرادها ، ومعهم بعض القسس الذين خرجوا على تعاليم الكنيسة . هذا إلى أن نابليون نفسه انتسب إلى الماسونية عند مروره بجزيرة مالطة ، في طريقه إلى مصر . وهذا يفسر لنا سبب اضطهاده للبابا في عصره . كذلك كان نابليون الثالث ماسونياً هو الآخر .

ب - ضرورة الثورة على الاستبداد :

وهذه الطائفة هي التي يشير إليها عبد الرحمن الكواكبي ، دون أن يذكر اسمها ، فهو يقول ، عند حديثه عن سبب نهضة أوروبا ، إن حكماء أوروبا المتأخرين قد حرروا الناس من الملكية والكنيسة عن طريق العلم . ثم إنه يبدو أكثر تحديداً عندما يقول : « وقد سبق هؤلاء فئة اتبعت أثر النبيين ، ولم تحفل بطول الطريق ، وقد نجحت ورسخت ، أعني بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ، ولا تمسكوا بمعادة كل دين كهؤسسى جمهورية الفرنسيين ، بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم وهدبوا وسهلوا ، وقرّبوا حتى جدّوه وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاقهم . » (١) فإذا علمنا أن الماسونية هي التي وضعت أسس الجمهورية الفرنسية وأن « روبسبير » وغيره كانوا من الماسون لم يبق لدينا شك في حقيقة هؤلاء الذين يوصى

(١) طبائع الاستبداد ص ٧٥ .

إليهم الكواكبى. وإذا علمنا من جانب آخر أن الماسون ينكرون ألوهية المسيح، وينادون بالإخاء والحرية والمساواة، وهى مبادئ دينية يمكن أن تنسب إلى المسيحية أو إلى الإسلام على حد سواء، زاد يقيننا أن هذه الطائفة التى يلح إليها الكواكبى والتى حررت أهل أوروبا كانت طائفة الماسون. هذا إلى أن الكواكبى ينادى صراحة بأن الشرقيين، على اختلاف مللهم من مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين فى أشد الحاجة إلى مثل هؤلاء الحكماء الذين لا يكثر ثون « بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء والرؤساء الفساق الجهلاء » حتى يستطيعوا النظر فى الدين وتجديده وتطهيره من الزوائد والخواشى الباطلة التى تطرأ عادة على كل دين تقادم عهده، مما يحتم ظهور بعض المجددين المصلحين الذين يرجعون الدين إلى أصله عن طريق العلم والمعرفة. وتلك فكرة قريبة من آراء الماسونية أنفسهم.

غير أنه لا يدور بخلدنا بعد هذا كله أن نقول إن عبد الرحمن الكواكبى كان ماسونياً، فإنه كان أقرب ما يكون إلى المذهب الوهابى. ولا يكفى أن تتحد المبادئ بحسب الظاهر، إذا كانت تختلف بحسب الواقع أو من جهة التطبيق، أى أن الكواكبى إذا ارتضى مثل هذه المبادئ فليس من الضروري أن يكون ماسونياً؛ فإن كل مسلم عاقل مجدد يستطيع أن يقول قوله دون أن يكون ماسونياً. هذا إلى أننا بيننا أن الماسونية فى الشرق لم تبلغ قط مبلغها فى الغرب، وأن السبب فى ذلك يرجع إلى أن المسلمين ينكرون ألوهية المسيح، كما أن دينهم لا يعترف مطلقاً بوجود طبقة من رجال الكهنوت الذين يفرضون فهمهم للدين على بقية الأمة؛ لأن الدين الإسلامى هو الدين الذى يرفض الواسطة بين الله وعباده، أيًا كانت طبيعتها. فإذا جاء

السكواكي أوجمال الدين وغيرهما ينسكرون على علماء الدين الأدعياء ساطانهم لم يكن ذلك مروفاً أو خروجاً على الدين أو انتساباً حقيقياً إلى الماسونية . ويبدو لنا ، فيما عدا ذلك ، أنه ، وإن كان قد اطلع على مبادئ الماسونية الغربية ، فإنه لا يرتضيها ، وبخاصة إذا كانت ماسونية ملحدة . فهو يلبح دائماً أن نهضة الشرق بثورته على الحكم الملكي الاستبدادي وحلفائه لن تقوم إلا على أساس ديني . وهو يأخذ على الشرقيين أنهم لا يتبعون دينهم الذي يدعوهم إلى التحرر من الظلم والذل ، والذي لا يجيز العبودية ، إلا في حالة واحدة ، أي عندما تكون لله وحده . فالمسلمون في رأيه لا يحبون الموت ؛ بل يحرصون على الحياة ، لكنهم لا يعرفون طريق الحياة السعيدة . ولو علموا سبلها الحق ، لعرفوا أن الهرب من الموت موت ، وطلب الحياة حياة . غير أنه إذا دعا المسلمين إلى التمسك بدينهم فإنه ينههم عن التعصب الممقوت ؛ فإن مصيبة الشرق واحدة ، وهي نكبتة باستبداد الأمراء ، وخضوعهم لتوجيهات الغرب . وإذن فليتحد المسلمون والنصارى في جهادهم من أجل الحرية ، وليتجه كل منهم إلى دينه ، فإن الدين لله وحده ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . (١)

فالطريق إلى الإصلاح واضحة عنده ، وهي الثورة على الحكم الفردي . غير أنه يجب الحذر ، ولا سيما إذا كان أعوان الملك المستبد وجنوده من غير أبناء الوطن . ولعل السكواكي يشير إلى فشل الثورة العراقية بسبب عدم تجانس القوات الحربية ، ولوجود عنصر الشراكسة الذين كانوا يرون

(١) المصدر السابق صفحة ١٠٤ .

فى نجاح عرابى قضاء على نفوذهم . أما إذا كان المستبد قوياً بجندوه وأنصاره من الأجانب ، فقد وجب التريث ، وإعداد العدة ؛ لأن الثورة من غير استعداد وتعبئة كاملة ليست إلا فتنة تُحصد فيها أرواح الناس حصداً . ومع هذا قد يبلغ الاستبداد غايته ، فلا يجدى النصيح شيئاً ، وعندئذ تنفجر الثورة انفجاراً طبيعياً . فإذا نجحت ، على الرغم من وجود هذه العقبات جميعها ، وجب على القائمين بها أن يبدأوا بالقضاء على المنافقين ، حتى يأمنوا ظهورهم ، وحتى لا يكون نفاق هؤلاء سبباً فى ضياع جهودهم .

وهناك ظروف مواتية يجب أن تترقبها الشعوب الشرقية للخلاص من مستعبداتها ، وهى إن فاتتهم مرة فقد لا يضمن بها الدهر مراراً أخرى . فمنها أن يخرج المستبد مغلوباً على أمره من حرب قاده إليها غروره وقصر نظره ، دون أن يستطيع إلصاق الهزيمة ببعض القواد . ومنها أن يجرؤ المستبد على خدش العواطف الدينية مما يثير حفيظة الشعب وحنقه . ومنها أن تحدث أزمة اقتصادية تعجز الطبقة المتوسطة عن احتماها ، أو يظهر المستبد مودته وثقته لمن تجده الأمة عدواً لشرفها أو دينها وتقاليدها .

وقد تجتمع هذه الأسباب كلها فى أمة من الأمم الشرقية . وفى هذه الحال يكون نجاح الثورة أمراً محققاً ، وبخاصة إذا قادها جماعة أفادوا من أخطاء سالفهم من الأحرار . لكن النجاح الأول وحده ليس إلا مقدمة لكثير من المشاكل التى تعترض الأمة التى تخرج من الظلام فجأة إلى نور يكاد يعشى بصرها ، أو يذهب به . ومهارة القادة تتجلى حينئذ فى دفع هذه الأمة الحائرة نحو مصيرها فى غير هوادة أو رفق ؛ لأن التردد فى تحقيق نتائج هذا النصر يذهب بروعته

ويوشك أن يشير رغبة الغدر والنكوص لدى ضعاف القلوب أو أصحاب المنافع الخاصة .

كذلك لا يكفي أن تنجح ثورة من الثورات في القضاء على القديم ومساوئه وأعدائه الذين لا تخلو منهم أمة من الأمم ؛ بل يجب أن تحدّد أهدافها منذ البدء تحديداً واضحاً ومفصلاً . ذلك أن الأهداف الغامضة تفضي عادة إلى انقسام القائمين بأمر الثورة . وإذا حدث أن انقسم هؤلاء فيما بينهم فإن رؤوس الخونة تطل من مخابئها تنفث السم في نفوس الأمة ، ومحاوّل أن تفيد من هذا الخلاف . وكلما زاد الخلاف حدة أصبح الخونة أكبر أملاً في إثارة الفتنة ، وأطول باعاً في اختراع الأكاذيب لتيسير نفوس السذج ، سواء أكانوا من الخاصة أم من العامة ، وكلما اشتد ساعد الخيانة رجحت عوامل الشر في هذا المجتمع الذي لم يسترد بعد حالته الطبيعية من إثر الهزة الكبرى التي قلبت فيه الأوضاع رأساً على عقب . أما إذا عظم الخلاف ففرق بين القائمين بأمر الثورة دون رجعة فما لا ريب فيه أن أنصار النظام القديم لن يترددوا في إثارة الفتن الداخلية التي ربما كانت أشد خطراً على كيان الأمة من طغيان المستبدين وجبروتهم .

فمن الواجب إذن أن يحكم الثائرون خطواتهم ، وأن يجيدوا تحديد برامجهم ، وأن يشركوا الشعب كله في الحماس معهم لتحقيق هذه الأهداف ، وأن يشعروهم دائماً أنه مسئول عن مصيره ، وأن يجعلوه يعمل ويشعر أنه يعمل حقيقة ؛ إذ ليس أفتك بحيوية الشعوب من البطالة والفراغ . وهذا هو السبب في نجاح الثورات الكبرى كالثورة الفرنسية في مطلع القرن الماضي ؛ فإنها كانت ثورة شعب بأسره . وقد استطاع قادتها أن يشغلوا هذا الشعب

وأن يشعروه بأنه هو الذى سينشر مبادئ الحرية والمساواة والإخاء بين بقية الشعوب الأوروبية بعد أن تتخلص مثله من الاستبداد السياسى والروحى . تلك هى آراء الكواكبى فى ضرورة الثورات السياسية فى الشرق للخلاص من الطغيان أيا كان نوعه . غير أنه لا يذهب مطلقاً إلى تحريض الشرقيين على رجال الدين دون تفرقة . ذلك لأنه يفرق بين نوعين من العلماء الدينيين . فهناك فريق العلماء المناققين الذين يرى هو أن أفضل الجهاد فى هذا الزمن هو الخط من أقدارهم عند العامة . وهناك فريق العلماء العاملين الذين يجب احترامهم والاعتراف بفضلهم وحسن فهمهم للدين ؛ لأنهم لا يتخذونه وسيلة من وسائل الكسب أو الرزق ؛ بل يؤمنون به عن يقين ، ويلتزمون بمبادئ الإسلام وأهمها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإن الملوك والأمراء إذا رأوا احترام الناس لهم وسخريتهم من العلماء الأدعياء أقبلوا عليهم أيضاً رغم أنوفهم ، وأذعنوا لنصحتهم طوعاً أو كرهاً . وإنا لنجد مثلاً لذلك فى أيامنا هذه عند كثير من علماء المغرب . فإن هؤلاء رغبوا عن أن يكونوا أداة فى يد الملوك أو الأمراء من حلفاء المستعمر ، وذلك لأنهم احتفظوا لأنفسهم بكرامة العلماء من أهل الحل والعقد ، وفرضوا أنفسهم على قومهم بالفضل والعلم . فأصبحوا أصحاب الحق فى اختيار السلطان أو عزله إن أخطأ أو حاد عن سبيل الحق . وهم الذين يدعون الناس إلى الجهاد إذا قهرهم الأجنبي المستعمر على قبول حاكم دينى لا يرتضونه ؛ وهم الذين نصرروا أمتهم فى المطالبة بعودة سلطانهم الذى يعقدون عليه آمالهم فى الإصلاح وفى الظفر بالحرية .

ويرى الكواكبى أن من واجب هؤلاء العلماء الذين يربأون بأنفسهم

عن أن يحنوا رقابهم للملوك المستبدين أن يلبثوا إلى خير السبل وأيسرها لتثقيف العلماء من الطبقة التي تليهم ، وأن يحاولوا رفعهم إلى مكانتهم في العلم والخلق ، ليسكونوا من بعدهم رؤساء الأمة ووكلاءها ، أي أهل الحل والعقد فيها . وذلك لأن ضعف أو قوة الأمة الإسلامية راجع إلى ضعف أو قوة احتساب أهل العقد والحل واشتراكهم في تدبير الأمة . فإن استبداد الملوك بمصائر هذه الأمة كان سبب البلاء الأكبر الذي حاق بها ؛ في حين أن حكم الشورى كان سبباً في قوتها ومجدها « وهكذا عند التدقيق في كل فرع من الدول الإسلامية الماضية والحاضرة ؛ بل في ترجمة كل فرد من الملوك والأمراء ؛ بل في حالة كل عائلة أو كل إنسان فرد نجد الصلاح والفساد دائرين مع سنة الاستشارة والاستقلال في الرأي . » (١)

ويعتقد الكواكبي أن المسلمين لو نجحوا في ثورتهم على الاستبداد واستطاعوا الرجوع إلى حكم الشورى لما كان لهم أن يقنطوا من اللحاق بالأمم الغربية التي سبقتهم إلى الأخذ بأساليب الحكم النيابي . ذلك أن الضعف الذي يقعدهم عن النهوض يمكن أن يزول . فكم من أمة حل بها التدهور ، ثم استردت حضارتها وكيانها كالرومان واليونان وغيرهما من الأمم . ثم تأخذ الكواكبي نشوة من الأمل ، فيرى أن الفارق بين الأمة الإسلامية وبين الأمم الحية المعاصرة لا يعدو أن يكون فارقاً في العلم والأخلاق العالية . وهو في رأيه فارق هين يمكن القضاء عليه ؛ لأن مدة تحصيل العلم لا تزيد عن عشرين سنة ، ومدة تطهير الأخلاق أو السمو بها لا تتطلب أكثر من أربعين عاماً . ونود أن لو كان صادقاً في نبؤته ؛ وإن بدا لنا أنه

ربما كان شديد التفاؤل . ومع ذلك فإننا نعترف له أنه اهتدى إلى أهم نقط الضعف لدى المسلمين ؛ لأنه عرف أن الحرية لا تمنح عفواً ، وإنما تؤخذ عنوة ، ثم إنه لا يمكن الاحتفاظ بها في أمة تجمع بين الجهل وسوء الخلق .

٤ — النهضة عن طريق العلم

(١) العلم والدين :

لقد أجمع المصلحون منذ أواخر القرن الماضي على أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالعلم ، ولا يريدون به هذا العلم المتحجر الذي عرفوه في كتب المتأخرين من الفقهاء وأهل الجدل ، ذلك العلم الذي مازال يطبع عقول ملايين من أبناء المسلمين بطابع الجمود وضيق الأفق الذي تتميز به عقلية القرون الوسطى ، وإنما يريدون به العلم الحديث ، أي العلم الأوروبي الذي يعتمد على كشف القوانين وتسخير الظواهر الطبيعية ؛ ذلك أن هذا العلم هو الذي يحرر العقول من الأوهام والأباطيل ، وهو الذي يستطيع أن يجدد حيوية الشعوب الإسلامية ، وأن يعين أبناءها على الاقتراب من مصادرهم الأولى التي استغلقت على أفهامهم ، مع أنها أكثر وضوحاً وبداهة ، مما اخترعه ذوو اللجج من علماءهم السابقين . وقد ضربنا أمثلة من كتب الفقه تبين لنا كيف تناسى الفقهاء آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، فأوغلوا في تغنيمهم ولججهم حتى كرسوا الناس في دينهم ، وجعلوهم يحسبونه أغلالاً وقيوداً .

ونقول : إن المصلحين أجمعوا على ضرورة الاستعانة بالعلم الحديث ؛ لأنهم رأوا أن تقدم أهل أوروبا ، إنما يرجع إلى تحررهم من عقلية العصور الوسطى ، ومن رجال الكهنوت الذين زعموا أنهم قادة الفكر وحملة العلم

الدينوي والآخروي . لذلك نرى أمثال أحمد خان في بلاد الهند يقرّر في صرامة أن المسلمين لن ينهضوا إلا إذا أخذوا عن أوروبا علومها ومدنيتها ؛ ذلك لأن العلم لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ؛ بل إنهم فقدوا ذلك أو كادوا يفقدونه بسبب جهلهم . ومن ثم يجب عليهم أن يشاركوا الأمم الأوروبية في معارفها ، وأن يزاحموها ما استطاعوا في كل فروع العلم والفن . كذلك رأى محمد عبده في مصر أنه لا أمل في نهضة المسلمين في مصر إلا بإصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة وتطهير الدين من الخرافات التي تفيض بها تلك الكتب التي ينظر إليها بعض المشتغلين بدراسة الدين نظرة التقديس التي لا تقوم على الفهم ، بقدر ما تقوم على الجهل والرغبة عن تكوين رأى شخصي .

لكننا سنشير بصفة خاصة إلى موقف أكبر هؤلاء المصلحين ، ونريد به جمال الدين الأفغاني ، فقد قيل عنه إنه كان عدواً للحضارة الأوروبية (١) ، وإنه وقف في سبيلها حتى لا تنفذ إلى بلاد المسلمين . وربما احتج هؤلاء بموقفه من أحمد خان في الهند ، ومن آراء الفلاسفة الماديين في رسالته للرد على الدهريين (٢) ، أو ربما احتجوا بنقده لجماعة ممن بهرتهم مظاهر الحضارة الأوروبية وقشورها ، أو ربما لم يحتجوا بشيء من هذا كله أو من غيره ، لكنهم أرادوا — لسبب لانود البحث عنه — أن ينسبوا إلى الأفغاني رأياً لم يكن من آرائه في حقيقة الأمر . ونقول إننا لانود البحث عن العوامل التي قد تدعوهم إلى تجريح هذا الرجل ؛ لأن هناك ما هو أجدى في نظرنا من الاستطراد في هذه المسألة ، ونريد بذلك الأهم الأجدى أن

(١) أنظر صفحة ١٧٦ .

(٢) أنظر كتابنا جمال الدين الأفغاني : حياته وفلسفته ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

جمال الدين عرف للعلم الحديث قيمته ، وأنه لا ينكر ان تقدم أوروبا يعتمد على أساس من العلم الصحيح ؛ بل إنه ليأخذ على المسلمين ، وعلى علماء الدين منهم خاصة ، أنهم يتفنون من العلم موقف العدا ، بحجة المحافظة على العقيدة وعلى التقاليد . ذلك أنه لا يحفل أن هذا الدين يدعو إلى العلم ، وأن القرآن يعجب لهؤلاء الذين يسوون بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وكيف يحفل الأفغانى موقف الإسلام من العلم ، وهو الذى لا يفتأ يردد فى كل مناسبة أن الإسلام ليس عدوا للعقل أو مناهضا له ، وأنه يمتاز عن غيره من الأديان بدعوة الناس إلى البحث النظرى والبرهنة على عقائدهم ، والسعى فى تحصيل العلم ولو كان فى أقصى أطراف الأرض ؟ فهل لأحد أن يزعم ، بعد ذلك ، أن الأفغانى كان رجعيا مقلداً ، وأنه وقف فى طريق نشر الثقافة الغربية فى الشرق ؟ حقا لقد دحض بعض الآراء الفلسفية الإلحادية ونفى بها نظرية الماديين ، أو أصحاب المذهب الوضعى ، وهو ذلك المذهب العلمى المزعوم الذى ساد فى أوروبا فى أواخر القرن الماضى ؛ لكننا نعلم الآن أن كل الآراء الفلسفية الإلحادية التى حيكت حول نظرية « داروين » هى أبعد عناصر هذه النظرية عن طبيعة العلم باعتراف المشتغلين بالفلسفة فى وقتنا الحاضر . كذلك نعلم أن العلماء فى هذا العصر قد رجعوا عن المذهب الوضعى الذى زعم أن العلم قد أدرك غايته ، فاعترفوا أن آفاق العلم ما زالت أكثر امتداداً واتساعاً مما خيل لبعض الفلاسفة كأوجست كونت وأتباعه ؛ ممن كانوا يرون أن العلم كشف عن جميع القوانين الممكنة ، وأنه يستطيع أن يحل محل الدين فى وضع أسس الأخلاق دون حاجة إلى العقائد الدينية ، كالإيمان بوجود الله وخلود النفس . فإذا كانت هذه

الآراء الإلحادية ، أو الفكرة المفرطة عن قيمة العلم ، هي التي حاربها جمال الدين
فإننا لنعجب لأمر هؤلاء الذي يرمونه بأنه كان عدواً للعلم ؛ إذ كان أولى بهم أن
يعترفوا بأنه كان صادق النظر ، وأنه سبق علماء عصرنا في هتك ستار هذه
الآراء الفلسفية الخاطئة ؟

هذا إلى أن الأفغانى يأخذ على المسلمين أنهم لا يقتبسون من الحضارة
الأوروبية سوى مثل هذه الآراء الفلسفية الواهية ، ولا يرتضون منها غير كل
نافه لا خطر له ؛ بل هم أسرع الناس إلى اختيار كل شيء يزدعم انحلالاً
وتدهوراً ، ثم يغفلون عن العلوم الحقيقية كالعلوم الطبيعة والكيمياء
والهندسة والميكانيكا ، وغيرها من العلوم التطبيقية أو الفنون التي لا غنى
عنها في تسخير قوى الطبيعة ، وكسب أسباب القوة الحربية .
ولو أنهم فهموا دينهم حق الفهم لعللوا أن تحصيل مثل هذه العلوم
واجب ديني ، قبل أن يكون واجباً اجتماعياً ؛ لأن الإسلام يدعو أهله
إلى أن يكونوا أقوياء ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا عن طريق العلم .
فمن العبث إذن أن يقال إن جمال الدين كان عدواً للعلوم الحديثة ؛ إذ كيف
ينادى مصلح من طبقة إلى العودة إلى الدين الصحيح ثم يعلنها حرباً عواناً
على العلم الذي يدعو إليه هذا الدين ؟ حقاً إن من يحارب العلم رجل يجهل
حقيقة الإسلام وحقيقة العلم . وما نظن أن الأفغانى قد بلغ هذا الحد من
الغفلة التي ربما نسبها إليه من لا علم له بآرائه الحقيقية .

ب - موقف المسلمين واليابانيين من العلم الأوروبي :

فإذا بقي بعد ذلك ريب في نفوس من يصفون جمال الدين بأنه كان عدواً

للعلم ، فمن اليسير أن يلتبسوا رأيه في المقارنة بين موقف المسلمين واليابانيين من حضارة الغرب . فقد فتن الأولون - كما قلنا - بالمظاهر التافهة لهذه الحضارة ، كما شغلوا عقولهم بالآراء الإلحادية ؛ بينما احتفظ الآخرون بعقائدهم الوثنية ، ووقفوا في طريق التبشير بالدين المسيحي ، واحتفظوا بتقاليدهم العتيقة ، لكنهم حرصوا كل الحرص على تقليد الأوروبيين تقليداً صحيحاً ؛ وذلك باقتباس علومهم المختلفة . لذلك رأيناهم يرسلون البعثات العلمية بالمشات لتحصيل كل نافع ، ثم ترجموا العلوم أولاً ؛ لأن حاجتهم إلى العلم كانت أشد من حاجتهم إلى الأدب أو إلى مذاهب الإلحاد ، وهذا فيما نعلم عكس الاتجاه الذي سلكه المسلمون حتى زمن قريب . ويفسر لنا هذا المسلك لماذا ما برحنا متأخرين عن الغرب بأشواط بعيدة . أما اليابان فقد نهضت نهضة علمية حقيقية ، وأرغمت الأوروبيين على احترامها ؛ لأنها سابقتهم في ميدان العلم والصناعة حتى سبقتهم .

وربما أمكن تفسير هذا الفارق بين اليابانيين والمسلمين بأن أمة اليابان لم تشهد من الكوارث التاريخية ما شهدت الأمة الإسلامية . فقد ظل اليابان مغلقاً في وجه الغرب والمسيحية أكثر من قرنين من الزمان . ثم فتح أبوابه على العالم الخارجي ، فرأى أنه يستطيع هو الآخر أن ينشئ أمبراطورية عظمى ، وأن تحقيق هذا الأمل لا يكون إلا باصطناع الأساليب التي يستخدمها الغرب من إعداد القوة ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا بتحصيل العلم . أما بلاد المسلمين فقد فتحت أبوابها منذ أجيال بعيدة للغزو الأوروبي ، سواء أكان حريياً أم فكرياً ؛ لكنها بقيت في أثناء ذلك بمعزل عن الحركة العلمية الصحيحة . وساعد على ركودها أن فلاسفة الغرب حرصوا على

التغريب بالشرق ، فأطروا أهله بأن شرقيهم مهبط الوحى ومسرح الخيال ، وأن العقلية السامية لا تقوى على التعمق والتحليل وسبر غور الظواهر للكشف عن قوانينها . وفرح الشرقيون ، ومن بينهم المسلمون ، بهذا الإطراء ، وحسبوا أن خيالهم وروحانيتهم شيء أصيل فيهم ، ولو بحثوا فى أعماق نفوسهم ، فى الوقت الحاضر ، لوجدوها على غير كثير من الخيال والروحانية ، وأنهم جماعة من المرضى ، وأن الغرب قد أحسن التغريب بهم حتى يقضى على كل محاولة جدية لتقليده تقليداً صحيحاً ، وأن له فى ذلك التغريب أساليب شتى ؛ فهو يعلم أنه لن يستمر مسيطرآ على الشرق إلا إذا وقف فى سبيل نهضته عن طريق العلم . فقد شهدنا كيف اجتهد الإنجليز فى صرف المصريين عن المناهج الصحيحة ، وحاولوا أن يدخلوا فى روعهم أن بلادهم زراعية فحسب ، وأنها لا تصلح لأى نوع من الصناعة ، وبخاصة صناعة النسيج التى تتطلب جواً انجليزياً لا مصرياً ؛ ورأيناهم كيف غيَّروا اتجاه التعليم ، وجعلوا يعدّون طبقة من الموظفين الذين يشبهون الآلات الصماء ، ولا يقطعون برأى دون الرجوع إلى رؤسائهم من الأجانب . وهكذا قضى على روح الابتكار وعلى الرغبة فى حرية التصرف . وساءت الأداة الحكومية بعد خروج هؤلاء الرؤساء ؛ لأن المرؤسين ألفوا ألا يبتوا فى أمر من تلقاء أنفسهم ؛ بل لابد من مسئول يرجع إليه . فغدا كلُّ يطرح المسئولية عن نفسه ليلقيها على غيره ، وبين هذا وهذا وذاك تضيع حقوق الناس .

وكيف لا يحاول الغرب خديعة الشرق ؟ إنه يوهمه أنه جاء إلى بلاده لكي ينهض بأهلها ، فيظن الشرق أن سيطرة الغرب مؤقتة ، وينسى أن هذا

الغرب لن يفي بوعدده . وكيف له أن يحترم عهداً وهو يرى رأى العين أن كل شعب يستعمره ، هو شعب جاهل خامل يقيم ببقاع خصبة غنية بالمعادن والثروات الطبيعية ، وبأقاليم تتسع للمشروعات الاقتصادية الكبرى؟ هذا إلى اعتدال جوها وموافقتها لحياة الجنس الأوروبي الذى يؤمن أنه أحق الناس باستغلال هذه البلاد ، وأنه ليس للشرقيين أن يحتجوا إذ لو كانوا فى مكان الأوروبيين لفعلوا مثلهم .

ح — الجمع بين التعليم النظرى والعملى :

ولما كانت حياة أهل الشرق بالعلم الصحيح موتاً لحكم الغرب فيهم^(١) لم يكن بد من أن يحوِّروا فكرتهم عن العلم تحويراً شاملاً ؛ بحيث لا يكون العلم ثقافة سطحية هى أقرب إلى الجهل منها إلى أى شىء آخر . فيجب أن يهدف التعليم عندهم إلى الجمع بين الناحيتين النظرية والعملية . ذلك أننا نميل عادة إلى تقليد الأوروبيين فى مظهرهم ، فنحسب أن العلم سبيل إلى الانصراف عن العمل اليدوى ، مع أن الأكثرية الغالبة من شباب أوروبا تنفر من الوظائف الحكومية ، وتتجه نحو الأعمال الحرة ؛ لأنها أقصر الطرق إلى تحصيل الثروة والرفاهية . فيجب إذن أن نقلد الغرب فى اتجاهاته الصحيحة وأن ننظر بعين الحذر إلى اندفاع شباننا إلى الدراسات النظرية التى تخلق طبقة من المستهلكين لا المنتجين . وقد آن للشرق أن يعلم أن مستقبله رهن بالعمل والإنتاج ، فإن أصغر دول الغرب رقعة ربما كانت تفوق فى إنتاجها بمالك الشرق الأوسط بأسرها .

(١) وهذه كلمة لجمال الدين الأفغانى .

وليس من بأس أن يُعلّم الطفل الحداثة والتجارة وتربية الحيوان إلى جانب القراءة والكتابة والحساب « حتى يخرج رجل علم وعمل ، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل ، يكثر به وبأمثاله العدد ولا ينتفع به أحد » ، وحتى لا تجد الأقطار الشرقية نفسها أمام تلك الأزمات الشاذة التي يسمونها « أزمات المتعلمين » ويريدون بها ، أن خريجي الجامعات أو المدارس العليا لا يحسون عملاً يتناسب مع مؤهلاتهم العلمية . ونقول إنها أزمات شاذة ؛ لأنها غير معروفة في الغرب بل تجري الأمور على عكس ذلك ؛ فإننا نسمع بين حين وحين أن إقبال الشباب المتعلم على الأعمال الحرة في المعامل والمصانع يزعج أساتذة الجامعات إلى حد كبير ؛ لأنهم يرون أن خيرة المتخرجين ينصرفون عن مهنة التدريس في الجامعات مما ينذر بهبوط المستوى العلمي عندهم .

أما في الشرق فما زالت العلوم النظرية والآراء الفلسفية والدراسات التاريخية تحتل المقام الأول في المعاهد . وكثيراً ما يتجه المتخرجون في المدارس العملية إلى الكليات النظرية للحصول على مؤهل علمي يتيح لهم الظفر بإحدى الوظائف الكتابية ، فراراً من عناء مهنتهم العملية ، ومن سوء تقدير الناس لها . وهذا هو أحد أسباب تأخر الشرق حتى الآن . فإنه بدأ يقلد الغرب قبل اليابان ، لكنه لم يصل بعد إلى ما أدركته هذه الأمة من قوة وثروة . ذلك أن العلم الصحيح هو الذي يجمع بين الجانب النظرى والعملى . وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية فيما مضى بسبب العلم . واليوم يفوقنا الغرب أيضاً بسبب العلم ؛ لأنه مصدر القوة والسطوة ، بينما يستسلم له الشرق بسبب الجهل ، وهو منبع كل ضعف وتخاذل . وقد يقال إن شباب الشرق مكره على الانجاء إلى الدراسات النظرية لأن منافذ العمل مسدودة

أمامه بكل سبيل : ولا ندرى إذا كان أصحاب هذا الرأى جادون فيما يقولون ؛ لأننا نرى كيف نزح الأجانب إلى بلدنا ، فوجدوا في مجال الاقتصاد والصناعة مجالا فسيحا كان سيباً في ثرائهم وفي سيطرتهم على توجيه الاقتصاد القومى . فالمسألة إذن مسألة تربية وإعداد وتوجيه . وربما كان حظنا في هذه الأمور قليلا منذ عدة أجيال .

غير أنه إذا وجب علينا أن نأخذ عن الغرب علومه النظرية والعملية فليس معنى ذلك أن نعتقد أن الحضارة الأوروبية المادية هل المثل الأعلى الذى ينبغى لنا تحقيقه في الشرق . حقاً إن العلم قد تقدم تقدماً مذهلاً في أواخر القرن التاسع عشر ، وما برح مجال التقدم فيه غير محدود . لكن العلم لا يوصف بالخير أو الشر في ذاته ؛ بل الإنسان هو الذى يحسن أو يسيء توجيهه . وقد رأينا كيف غلبت النزعة المادية على أهل أوروبا فسخروا العلم ، لا لنفع البشر ؛ بل استخدموه أكثر ما استخدموه في صنع أدوات القتال ، واستعانوا به على استرقاق الأمم المتخلفة واحتكار ثرواتها الطبيعية ، أو لأشعال نيران الحروب العالمية في قارتهم وفي غيرها . وقد غلت الأمم الغربية في هذا الاتجاه المادى إلى حد أن كثيراً من عقلائها يرى أن الحضارة الأوروبية مهددة بالإفلاس والتدهور إن سارت في طريق النزعة المادية حتى نهايته . ومن قبل قال جمال الدين شيئاً من هذا القبيل في أحاديثه الخاصة . وهذا هو ما ردّده « غاندى » من بعده ، وهذا هو ما يخشاه الأوروبيون أنفسهم في منتصف القرن العشرين . فهل يحق لأحد أن يسارع إلى اتهام الأفغانى بعدائه للعلم ، مع أنه نادى منذ ستين عاماً بأن العلم الصحيح هو الذى يقود إلى السلام والرخاء ، لا إلى الحرب والفناء ؟

وربما كان جمال الدين الأفغانى الذى قيل إنه يحارب العلم الحديث أكثر فهما لحقيقة هذا العلم من كثير من فلاسفة الغرب فى عصره من أمثال أوجست كونت ، الذى كان يسخر من الفلاسكين الذين يريدون الكشف عن أجرام سماوية جديدة ، بحجة أن هذه الكشف لا تعود على المجتمع الإنسانى بأى نفع ما ؛ فى حين يقول الأفغانى : « كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفانى خاضعة للعقل المطلق الإنسانى فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سوف يكون غدا ممكنا . » كذلك كان يعتقد أن كل ما يوجد على وجه الأرض له سبب ، وإن خفى ، وأنه يمكن تفسير الأشياء جميعها بإرجاعها إلى أسبابها . أما تفسير بعض الحوادث والظواهر بالصدفة والاتفاق فلا يرتضيه سوى الجاهل . فإن الصدفة لا تفسر شيئا ؛ بل هى دليل جهلنا بحقيقة الأشياء . ولذلك تكثر الصدق عند الجاهل أما فى نظر العلم فهى قليلة ، وعند القدرة الإلهية معدومة ولا وجود لها . وهذا هو ما رددته العلماء الأورويون بعده ، وبعبارات تشبه عباراته شها عجيبا . (١)

كذلك اهتدى جمال الدين إلى فكرة يعتز بها علماء العصر ، وهى نسبية العلم الذى لا يكاد يقف عن حد ، والذى يكمل مع الزمن ، دون أن يصل إلى غايته أبدا ؛ فإن العلم أوسع من أن تحيط به حياة الفرد أو حياة الأمم . وكل ما وصل إلينا من العلوم مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين ، وعلى مدى الأجيال العديدة لم تنزل بالنسبة إلى الحقائق الثابتة فيها

(١) قال هنرى بوانكاريه فى كتابه « قيمة العلم » : إن القانون (الطبيعى) من أحدث الكشف التى اهتدى إليها العقل الإنسانى . وما زالت توجد شعوب تعيش فى معجزات مستمرة ، دون أن تبدى دهشتها لذلك . أما نحن فيجب أن ندهش من اطراد الطبيعة ونظامها .

علوما ناقصة ، أو هي في حقيقتها قشور لتلك العلوم في غايتها وحقيقتها .
وتلك هي الفكرة التي سادت في أوروبا بعد موت الأفغانى ، والتي ما زالت
تسود حتى الآن . (١)

وإنما أبجنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا في حديثنا عن فكرة جمال الدين
في العلم ، لكي نبين أنه أكثر فهما لحقيقة العلم الصحيح ورسالته مما يظن
هؤلاء الذين رموه بأنه كان مناهضا للثقافة الغربية ، وأنه حرم الشرق من
اقتباس هذه الثقافة ، وأنه عاد بالمسلمين إلى الوراء ، وشغلهم عن مستقبلهم
بالدعوة إلى الهياج والثورة والعودة إلى القديم . ونقول إنه أكثر فهما لقيمة
العلم مما يزعم هؤلاء الذين ينسبون إليه رأيا لم يقل به ؛ لأنه لم يقف في دعوته
عند حد الحز على الثورات السياسية ؛ بل دعا المسلمين إلى الخروج من
ثقافتهم الرأكدة ، وحثهم على تحصيل العلوم الحققة التي ربما أتاحت لهم
الدفاع عن أنفسهم .

على أنه ينبغي ألا نخصص أكثر من هذا القدر للرد على هؤلاء الذين
يحاولون الخط من شأن رائد المصلحين في العصر الأخير ؛ إذ الحكم بيننا
وبينهم هو مسلك الأمم الإسلامية في الوقت الحاضر . فإن أكثر هذه الأمم
تقدما هي تلك التي تبعت تعاليم الأفغانى ، فبدأت تجمع بين الدراسات
النظرية والعلمية ؛ في حين أن أكثرها تخلفا هي تلك التي ما برحت تقنع
بالدراسات النظرية السطحية التي يخيّل إليها أنها هي المعرفة الحققة . ولقد
حسب بعض الناس أن هذه المعرفة النظرية تكفى في إصلاح حال المسلمين ؛

(١) إرجع إلى كتابنا في المنطق الحديث ومناهج البحث، الطبعة الثانية ص ١٣٦-١٣٧

لكن خفي عن أصحاب هذا الرأي أن هذه الحال بلغت من السوء مبلغاً لا يجدى معه أن تنشر الأفكار الفلسفية والأخلاقية لتنبية الأفكار وتقويم الأخلاق في أمة عم فيها الذهول ، وسيطر الجهل فيها غير منازع . فماذا تجدى هذه الأفكار في أمة قل قارئوها ، وندر الفاهمون من بين هذه القلة ؟ هذا إلى أن من قد يستطيع الفهم منهم ربما حمل الكلام على غير معناه « لضيق في التصور أو ميل مع الهوى . »

حقاً إن مثل هذه الآراء الفلسفية قد تؤتى ثمارها في الأمم المتحضرة ، التي أخذت بنصيبها من العلم والرفاهية ، فهفت نفوس أفرادها إلى الاطلاع على الجديد من النظريات الأدبية والسياسية ؛ لأنها تجد في ذلك نوعاً من الترف العقلي الذي ينسبها مشا كل الحياة المادية لوقت قصير تعود بعده إلى حياة الجد والعمل . وليس ذاك الشأن فيما نعلم شأن البلاد الشرقية ؛ بل إن الترف العقلي في مثل هذه الحال يشبه الطعام الجيد الذي لا يلائم طبع المريض فزيد العلة حدة ، وتزداد الصحة سوءاً . وكيف لنا أن نحدث ذوى البطون الخاوية والأقدام العارية عن نظريات فلسفية كنظرية النشوء والارتقاء لدى « داروين » ونظرية الواجب الأخلاقي كما كان يفهمها « كانت » ؟ إن ما يحتاج إليه أصحاب هذه البطون والأقدام هو معرفة علمية عملية تقتل جوعهم ، وتحفظ أقدامهم من وهج الحر وقذارة الطريق . وبعد ذلك فقط يمكن أن نحدثهم عن نظريات العصر الحديث ونظريات العصر القديم . أما قبل ذلك فلا بد من أن يحيا الإنسان قبل أن يتفلسف .

هـ — العلم وحده لا يكفي :

لقد خيل إلى الإمام محمد عبده أن الإصلاح إنما يكون بإنشاء المدارس العامة دفعة واحدة ، في كل بقعة من بقاع الممالك الإسلامية ، وبجعلها على نسق مدارس أوروبا . وهكذا تتم المعرفة بسرعة ، وتتقدم الأخلاق تبعاً لتقدم العلم . لكن أستاذه كان أبعد نظراً وأصدق حدساً ؛ لأنه كان يرى أن العلم لا يكفي في النهضة بالأخلاق ، وهذا ما أثبتته تطور العلم فيما بعد ؛ فإن بعض المدارس الفلسفية في أوروبا حاولت اتخاذ العلم أساساً للأخلاق بدلاً من الدين ، ونعني بها مدرسة علم الاجتماع الفرنسي ، غير أنها لم تفلح ؛ وعاد المصلحون يقولون بضرورة الدين لبناء الأخلاق ^(١) . كذلك فطن الأفغانى إلى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسيطر في عصره لا تتيح تحقيق فكرة تلميذه . حقاً قد تكون الفكرة جليلة في حد ذاتها ؛ لكنها عسيرة التحقيق ومشكوك في نتائجها ؛ إذ ... ما أبعد ما يظنون . فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزماناً ، حتى تذوق لذته ، وتجنّب ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته ، قائماً مقامها في تنفيذ ما أراد من خيرها ؛ ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة . وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه . فهل مع الضعف قوة تقهر ، وثروة تغني ؟ ولو كان للأمة هذان لماعدت من الساقطين . فإن قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الإمكان لو لا ما يكون ، وما هو كائن من طمع الأقوياء ، حتى لا يدعوا إليهم سبيلاً لأن يستنشقوا

(١) أنظر كتابنا جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ص ١٣١ — ١٣٢

نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ على أننا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ؟ ، (١)

ثم إن بعض الشرقيين قد يبلغ درجة الكمال في تحصيل العلم والفلسفة ، وربما قيل إنهم يستطيعون إرشاد إخوانهم . لكن ليس القول بمنطوق دائماً على الواقع ؛ فإنه لا يكفي أن تنقل النظريات إلى بيئة ما لكي تنجح فيها ؛ بل من الضروري أن تعدل هذه البيئة وأن تحور تحويراً أساسياً حتى تستعد لقبول العلوم الحديثة . فإن هذه العلوم نشأت في الأمم الأوروبية في ظروف محددة ، ثم ازدهرت بعد أن قطعت في نموها مراحل معينة . فإذا هي نقلت دفعة واحدة ، إلى بيئة لا تناسبها فإنها توشك أن تؤدي إلى عكس الغاية المرجوة منها ؛ إذ كيف تتسرب إلى الأذهان المشحونة بأفكار وتقاليد عتيقة لا تتلاءم مع هذه الآراء الجديدة ، وبخاصة إذا كانت آراء فلسفية أو نظرية لا تتصل بحياة الأمة ؟

إن الشرق في حاجة إلى الحياة قبل حاجته إلى الفلسفة ، وهو أشد احتياجاً إلى الفنون العملية منه إلى الآراء النظرية . وإن أفضل النظريات السياسية أو الأخلاقية لتعجز عن تعديل أخلاق الأفراد وإرشادهم إلى طرق الرشاد بل من الضروري أن يتم التقدم المادي أولاً لأنه أساس لكل تقدم ثقافي أو فلسفي . فإذا قيل إن اليابان قد نجح في نقله للعلوم الأوروبية دفعة واحدة

وليس هناك ما يحول دون أن يسير الشرق الإسلامى كله على نهجه قلنا إن هذا الشرق لم يفعل كما فعل أهل اليابان ؛ لأن بيئة اليابان تختلف عن بيئتنا ، ولأن سياسة اليابان سياسة دولة مستقلة تأخذ ما تريد وتدع ما لا تريد ؛ فى حين أن الشرق الإسلامى كان تحت سيطرة أو نفوذ الغرب . وهذا هو السبب فى أن ناقلى هذه العلوم — إن وجدوا — يعجزون عن التحرر من أوهامهم المألوفة وممارسهم فى نفوسهم ، على عهد الصبا ، من تعظيم الأمم الغربية ؛ فيأخذون عنها علومها نظرية يسمعونها وقد لا يفهمونها ، ثم لا يراعون مناسبتها لأبناء أمتهم . هذا إلى أنهم قد يفقدون حاسة النقد والحكم السليم ، فيعتقدون أنهم أدركوا غاية العلم .

وحقيقة فشلت حركة النقل والاقتباس حتى مطلع القرن الحالى ؛ لأنها كانت تتجه إلى العلوم النظرية والآداب أكثر منها إلى الفنون العملية وإلى العلوم الطبيعية . هذا إلى أهل الشرق لم يحاولوا الجمع أو التوفيق بين الثقافتين الغربية والشرقية ، على الرغم من البعثات العديدة التى أرسلت فى القرن الماضى . ذلك لأن الشرقيين عنوا فى الواقع بالمظاهر الغربية أكثر من عنايتهم بالجواهر لذلك لم تحقق بعثاتهم نفعاً كبيراً ، ولم تتغير أحوال هذه الدول من الضعف إلى القوة . وقد تساءل الأفغانى فقال : « هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ . . وهل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ . ويمضى جمال الدين فى تسائله وتعجبه ، وهو آمن من أن يجد أحداً يناقضه . فإن التاريخ يشهد بأن مصر والدولة العثمانية أخذتا فى الانحلال فى القرن التاسع عشر

حتى سقطت الأولى في يد الإنجليز ، وحتى أصبحت الثانية دولة مريضة ، ثم لم تلبث أن فقدت ولاياتها في الشرق والغرب .

فإذا قيل ألم يفد الشرقيون شيئاً من اتصالهم بالحضارة الغربية ، وهل يعقل أن الاحتكاك المستمر بهذه الحضارة لم يؤد إلى ثمرة ما ، أجاب الأفغانى : نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفقهون بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشا كلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غاياتها ، ولا تعلم بداياتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية ، أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المساكن والمباني ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأوروبية وعدوها من مفاخرهم .

وربما قيل إن جمال الدين يقسو على معاصريه . لسكنا إذا ألقينا ببصرنا على عهد سعيد وإسماعيل رأينا كيف شيدت القصور والحدائق وجمّلت مصر ، كما يقولون ، ومع ذلك فإن كلا من التجميل والتحسين لم يتجاوز بعض المدن الكبرى ، كالقاهرة والإسكندرية ؛ بينما بقي الريف المصرى في مظهره العتيق المحزن ، حيث تتجمع الدور البائسة كمقطع من الطين التي تشوه جمال الحقول . هذا وما زلنا نرى في عصرنا ، وفي كل مرافق الحياة الخاصة أو العامة ، في أكثر الدول الشرقية ، أن العناية بالمظهر أكثر منها بالجوهر . فتقام الأبنية الضخمة للجامعات على نمط ربما لا نجد له مثيلاً في كثير من عواصم أوروبا . فإن جامعة باريس مثلاً ، على شهرتها العلمية ، لتستحي من أن تقف إلى جانب

جامعاتنا تطاولها بروعة البناء أو شدة البذخ، لكن الفارق الكبير بين الحركة العلمية في كل من فرنسا ومصر أكبر من أن يشار إليه .

وإنك لتري جامعات الأقاليم هناك في قصور أثرية قديمة ، ومع ذلك فهي لا تفتقر ساعة من نهار : يتردد الطلاب على معاملها ومكاتبها دون انقطاع ؛ بل إن المكاتب هناك ربما فاقت قاعات المحاضرات في نفعتها . فالمظهر لا يهمهم بقدر ما تعنيهم جدوى الدراسات ونفعها . أما في الشرق فقد تنفق مئات الألوف من الجنيهات على بناء معهد من المعاهد العملية ، فتري بناء شاحنا ، لكنه لا يحتوى على المعامل الضرورية للبحوث . ولو وجدت هذه المعامل فسرعان ما يتطرق إليها العطب بسبب الإهمال وسوء الاستخدام ، فلا يتحقق الهدف من إنشائها ؛ بل ربما جال في خاطر المرء أنه كان من الأولى أن تنفق هذه الأموال الطائلة في أغراض أخرى . فإن الأمة أخرج إلى المال للماء بطون الجائعين منها إلى تبديده في تجهيز المعامل التي لا يمكن الانتفاع منها .

تلك هي الأسباب التي دعت جمال الدين إلى النظر بعين الريبة إلى هؤلاء الذين تتلذذوا على الغرب في عصره، أو فيما قبل ذلك . وربما وجب أن نتلصص له العذر ؛ فإن ملوك المسلمين وأمراءهم ما كانوا يعنون بالعلوم الحديثة عنايتهم بمظاهر الترف . وربما كان هؤلاء الذين أخذوا بمظاهر الحياة الأوروبية هم الذين سيطروا على مصائر الشعوب الإسلامية ، ومهدوا لدخول الأجنبي إلى بلادهم ، كما حدث في إيران، وفي مصر عندما كان المتعلمون في الغرب موضع ثقة المستعمر . وحقيقة حدث شيء من هذا القبيل ، في جميع الأقطار الإسلامية التي وقعت تحت سيطرة الغرب . غير أننا نعتقد أن جمال الدين أفرط في غلوه

وتشاؤمه حتى ظنه بعض الناس عدواً للحضارة الأوروبية، وإن لم يكن هناك ما يوجب هذا الظن .

على أن تجارب الشرق منذ بدء هذا القرن أثبتت أنه من الممكن أن توجد طبقة من صميم طبقات الشعب تستطيع الاطلاع على الحضارة الغربية ، دون أن تفقد شخصيتها ، أو تنسى أصولها ومبادئها ؛ بل رأينا أن كثيراً من الشعوب التي فرضت عليها الثقافات الأجنبية فرضا ، كما هي الحال في شمال أفريقيا ، لم تزد إلا رغبة في التحرر ؛ لأن الطبقة المثقفة فيها بالثقافة الأوروبية هي التي تقود الجماهير هناك . ولا ريب في أن تطور الحياة الاجتماعية في بلاد الشرق في عشرات السنين الأخيرة يؤذن بظهور طبقة من المطلعين على الثقافتين الشرقية والغربية ممن يستطيعون التوفيق بين الجديد والقديم في غير إفراط ولا تفريط . وفي رأينا أن مستقبل البلاد الإسلامية رهن بهذا التوفيق . فإنه لا يجدى في شيء أن نظل جامدين ؛ بينما يسير العالم بأسره بخطا واسعة في الاتجاه العلمي . وليس من حسن السياسة في التفكير أن نحارب الجديد باسم ما ينطوى عليه القديم من خرافات وأوهام ؛ بل الأجدر الجمع بين خير العناصر في القديم والجديد .

أما فيما يمس تشاؤم الأفغانى فهناك ما يبرره ، لأنه عاش في عصر غير عصرنا ، وفي زمن تمزقت فيه الأمة الإسلامية ، وأحدثت بها الأخطار من كل جانب . فهو في عجلة من أمره ، لا يريد أن يتبع رأى المشبطين للهيم من القائلين بضرورة التدرج . وهو يعجب لهم كيف يرجئون الإصلاح في أشد الأوقات حاجة إليه . إنهم لا يفعلون سوى أن يلقوا على الزمن عبثاً يعجزون هم عن النهوض به ، ثم يظنون أن الأيام كفيلة بحل المشا كل دون أن يبذلوا

من ذات أنفسهم شيئاً ، أو دون بذل القليل منها . لقد كان أولى بهم في رأيه أن يبحثوا عن العوامل التي صحبت نشأة الأمة الإسلامية وأدت إلى نهوضها الأول . ولئن اهتموا إلى هذه العوامل لعرفوا أن الدين كان سبباً في جمع كلمة هذه الأمة وبسط سلطانها . فالعودة إلى الدين أقصر طرق الإصلاح وأسلمها .

٥ — النهضة عن طريق الدين

— الدين والوحدة الإسلامية :

لقد ظهر الإسلام بين أمة تشبه أن تكون أمة بدائية مزقتها العصبية الجاهلية ، وسادت فيها الفردية المفرطة فلا تعاطف ولا إخاء ؛ وإنما تنابذ وتفاجر بالأجداد والأسلاف ، فمحا الدين ذلك كله دفعة واحدة ، وتشربت به النفوس فغدا الناس بنعمة الله إخواناً ، وانمحت العصبية القبلية ، وأصبح الفضل لذوى التقوى ، من العرب والعجم على حد سواء . وقد نجح الدين الجديد في توحيد القلوب والتسوية بين الأجناس نجاحاً لم يحظ به دين آخر . وعلى الرغم من المحن والكوارث التي حلت بالمسلمين في عصور تدهورهم فما زالت في طيات نفوسهم آثار من هذه العاطفة الإسلامية . حقا إنها آثار ضئيلة لا تدفع شراً ، ولا تأتى بخير في عصرهم الراهن ، ولكنها بذرة صالحة يمكن أن تنمو وتزدهر ، فتقضى على عوامل الخلاف بينهم .

لذلك يرى أنصار الإصلاح الديني ، وعلى رأسهم جمال الدين ، أن المسلمين لو عادوا — والعود يسير لا يقتضى جهداً ولا زمناً ، وإنما يتطلب

من كل امرئ منهم أن يضحي بخصائص الشر التي تسكن أو تختمر في قلبه -
نقول لو عادوا إلى دينهم لاستطاعوا أن يقضوا على أسباب الخلاف بينهم ،
ولعلموا أنه ليست هناك وراثه في الملك في الإسلام ، أو امتياز في الجنس
أو قوة العصبية ؛ بل الميزة التي يفضل بها الناس بعضهم بعضا هي الوقوف
عند أحكام الشريعة ، والقدرة على تنفيذها ، والعمل على النهوض بالامة
عن طريق الاشتراكية الإسلامية التي تقوم على حكم الشورى . وهذا
الإخاء ، الذي يقوم على أساسه الإصلاح السياسي والاجتماعي ، هو ما يمكن
تلخيصه في قول الرسول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل
على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية . »

فالرابطة الإسلامية الحقيقية كفيلة بالقضاء على أسباب الخلاف وعلى
الصراع الطائفي أو المذهبي . وبها وحدها يستطيع المسلمون أن يكونوا أمة
واحدة ، يحسب لها الأجنبي حسابها . وقد أحسن السلطان عبد الحميد الإفادة
من هذه الرابطة للتهويل على الأمم الأوروبية عندما كان يندرها بأن أي
اعتداء أوروبي على أية ولاية عثمانية سوف يثير المسلمين في مختلف البلاد
الإسلامية وبخاصة في الهند . وقد أفلحت هذه الحيلة فترة من الزمن ، حتى
بلغت دولة آل عثمان من الضعف غاية لا تجدى معها ثورة المسلمين في بلاد
الهند أو في غيرها . وهكذا نفهم لماذا ألح الأفغان في ضرورة تقوية هذه
الرابطة ، ولماذا حاول جمع المسلمين على كلمة واحدة . وأيا كان الأمر فقد
أبرأ ذمته ، وبذل من أجل هذه الأمة كل ما ينبغي أن يبذل .

ولئن أدركه اليأس من أمرها إثر هذا الجهاد المستمر فإن دعوته وجدت
آذاناً واعية ، وبدأت الأقطار الإسلامية طريقها نحو الاتحاد . ولم يعد

الغرب يسخر برابطتهم ؛ بل يقدّر لها قدرها ، ويعترف أنها أقوى من أية رابطة يعقدها دين آخر بين أتباعه . فمثلا يشهد لو ثرب ستودارد بأن من يريد حقيقة أن يعلم الهدف الذي يرمى إليه الإسلام من الرابطة الدينية فليلق ببصره على المسلمين في العصر الراهن ، وليستمع إلى تجاوب التعاطف والحنين بينهم حتى يقف على سر هذه الرابطة ، وعلى مكانتها في نفوس المسلمين . ففي الحق ليس هناك دين من الأديان يؤلف بين قلوب أبنائه ويوحد شعورهم ويحفزهم إلى التضامن والأخوة والاستمساك بعروتها كالدين الإسلامي . ولقد فتح المسلمون من الأمصار ما فتحوا ، ودخل في دينهم كثير من الأمم ، ثم حلت بهم الكوارث فلم نسمع أن شعبا صبأ بعد أن أسلم .

ونقول نحن من جانبنا إن الرابطة الإسلامية التي كانت غاية في الوهن في أواخر القرن التاسع عشر قد تأكدت وقويت ، ولم تعد مجرد عاطفة سطحية عابرة ؛ بل أصبحت رابطة تدعو إلى العمل ، بعد أن كانت قاصرة على مجرد التحسر والشكوى . وإن في موقف الدول الإسلامية من ثورة الجزائر ومراكش في هذا العام دليلا على جدوى التعاوى بين المسلمين في مختلف أقطارهم . حقا لم يتكشف الزمن بعد تماما عن نتائج هذا التضامن . ولكننا نرى أن المستعمرين بدأوا يحسبون لرغبات أهل المغرب حسابها ؛ في حين أنهم لم يحفلوا بالرأى الإسلامى عندما قامت ثورة الريف المراكشى منذ نحو من ثلاثين عاما .

ب — الدين والإصلاح :

فالدين إذن أساس لكل إصلاح ، ولكن بشرط أن يكون بريئا من

محدثات البدع ؛ إذ به يأتلف الشمل ، وتنبعث النفوس إلى تفضيل الشرف على لذة الحياة نفسها ، وإلى كسب الفضائل والعلوم ، وهى سلاح المجتمع في القديم والحديث . ولقد آن للمسلمين أن يدركوا أن ما عرض لأمتهم من التدهور إنما كان بسبب الخروج على الأصول الدينية السمحة والتشبث بالبدع التى أقامها الناس مقام الأصول والعقائد الصحيحة . فالعلاج الناجع لا يكون إذن إلا برجوع هذه الأمة إلى أصول دينها ، والأخذ بأحكامه ، وإرشاد العامة إرشاداً قوياً يكفل تطهير القلوب من الدغل ، وتهذيب الأخلاق من الدنس ، ويوقد نيران الغيرة ، ويبعث المسلمين على بيع أرواحهم من أجل أمتهم .

والحق أن الإصلاح الدينى أيسر منالاً وأقصر طريقاً ، وفيه تفضل القدوة الحسنة كل موعظة أو خطابة . والعاطفة الدينية الملهبة تصنع من المعجزات ما تقصر دونه أية عاطفة أخرى ؛ بل هى أساس ومنبع لكل عاطفة سامية غيرها ، سواء أكانت عاطفة وطنية أو أخلاقية . وإن من يطلب الإصلاح من غير هذه الطريق فإنما يركب من أمره شططاً ، فيجعل النهاية بداية ، ويعكس أساليب التربية ، ويخالف قوانين التطور الاجتماعى . فماذا يجدى علم دون دين أو خلق ؟ إنه أولى أن يؤدى إلى عكس ما يريد المصلحون ، وربما كان سبباً فى أن تزداد الأمة فساداً وانتكاساً .

وقد تخيّل جمال الدين كيف يمكن أن يتم الإصلاح عن طريق الدين ، فضرب لنا هذا المثل فقال : لو أن حاكماً صغيراً من بين أمراء المسلمين اهتدى إلى طريق الإصلاح المثلى ، فجعل الأوامر الدينية قانوناً لولايته ، وأخذ ينفذ حدود الدين فى غير تفرقة بين رعيته وأهله وساهم مع المحكومين

فى التزام الأخلاق الإسلامية ، وصدف عما ابتلى به ملوك المسلمين من الرغبة فى التظاهر بالعظمة والبذخ المخجل لاستطاع أن ينال عظمة الملك وبسطة السلطان ، وأن يكتسب الأنصار والأتباع ، فى مختلف البقاع الإسلامية ، دون أن يتجشم فى ذلك تعباً أو جهداً ، أو يضطر إلى إنفاق المال لإعداد الجيوش أو التحالف مع الدول الكبرى ؛ إذ سيجد نفسه فى غنى عن ذلك كله بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأسس الإسلامية الأولى ، وسوف يكون منهجه قدوة لغيره من أمراء المسلمين .

وهذا هو ما يعتقدُه دعاة الإصلاح الدينى عادة . غير أننا نراهم يضعون حلولاً ساذجة لمشاكل ضخمة ، ويتخيّلون طرقاً مثالية بعيدة عن واقع الحياة وفوااميسها . ولذا فإن فكرتهم لا تثبت أمام النقد . حقاً إننا لانسُكر مطلقاً أن الإصلاح الدينى أساس لكل إصلاح آخر ؛ لاعتقادنا أن الأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ، وأنه لا أمل فى نهضة أمة تدهورت أخلاقها . لكننا نرى الأفغانى يبسطُ الأمور أكثر مما يقتضيه الحكم السديد الذى عرفناه له ؛ لأنه ينظر إليها من زاوية ضيقة . فإن هذا الحاكم الصغير لا يستطيع تغيير قوانين العمران أو بسط سلطانه على بقية الأقطار بمثل هذا اليسر البالغ . فإننا نرى ملوكاً طبقوا الشريعة وأقاموا الحدود غير أنهم بعيدون عن أن يبسطوا سلطانهم على العالم الإسلامى . هذا إلى أن الناحية الدينية ترتبط بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وثقافة ، وجميع هذه العوامل يؤثر بعضها فى بعض ، وهى لا تتطور فرادى كل فى طريقها لا تلوى على شىء ؛ بل إنها تتشابك وتتداخل وتتقاطع وتفضى إلى ظواهر جديدة . فالعودة إلى الحياة الاجتماعية التى عرفها السلف مثال أعلى يستحيل

تحقيقه . ولكن من الممكن أن يعود المسلمون إلى أخلاقهم الأولى في الوقت الذي لا يهتمون فيه النواحي العلمية والاقتصادية والعمرانية . وفي جملة القول لا نرى أن الإصلاح يمكن حصره في مجال أو ميدان واحد ؛ بل من الضروري أن يمتد إلى جميع الميادين الأخرى ؛ إذ كيف نتطلب جودة العقيدة وحسن الخلق لدى الجاهل المعدم الذي تضطره حياته أن يمد يده إلى مال غيره ؟ لا ريب في أن قطع هذه اليد خير رادع للآخرين . لكن أليس من المستحسن أيضا أن يقل عدد الأيدي المبتورة لاعن طريق الإرهاب مع البؤس الشامل ؛ بل بالنهضة الاقتصادية والأساليب الاجتماعية التي تتبعها الدول المتحضرة التي ترى رعاية الفقير من أهم واجباتها ؟ ولو فرضنا أن أمة إسلامية استطاعت تحقيق شروط الحياة الاجتماعية التي عاش فيها المسلمون في الصدر الأول فإن ذلك لا يحول دون أن تؤدي عوامل التطور إلى نفس النتائج ، بمعنى أن هذا المجتمع المثالي سوف يخضع لعوامل تاريخية وسياسية تجعله يتحول شيئا فشيئا حتى يشبه المجتمع الحديث .

غير أنه يجب علينا أن ننصف جمال الدين فنقول إنه نادى بضرورة الإصلاح في النواحي السياسية والدينية والعلمية ، وكل ما يمكن أن يوجه إليه من نقد هو أنه لا يلح في بيان الصلة الوثيقة بين هذه النواحي المختلفة . ويمكن توجيه مثل هذا النقد أيضا إلى تلميذه الأكبر . فإن محمد عبده ظن أن الإصلاح السياسي يمكن أن يتم بمعزل عن الإصلاح الديني والعلمي . وقد زادت هذه التفرقة وضوحاً في ذهنه بعد اختلافه مع أستاذه في باريس وعودته إلى مصر . فهو يخبرنا أن فكرة الإصلاح لديه تتلخص في الدعوة إلى أمرين خطيرين ، وهما تحرير الفكر من التقليد ، وفهم الدين فهما يتفق

مع ما درج عليه السلف قبل ظهور الفرق الكلامية . وبهذا وحده يمكن الرجوع إلى المصادر الأولى التي ترينا أن الدين ليس عدوا للعلم والحضارة ؛ بل باعث على الكشف عن أسرار العالم ، وداع إلى قبول الحقائق العلمية الثابتة ، ودافع إلى أكمل الخلق وأفضل العلم . أما الأمر الآخر الذي كان يشغله فهو إصلاح أساليب اللغة العربية ، حتى يسهل فهم النصوص الدينية ، وحتى تتسع اللغة ، من جانب آخر ، لما تتطلبه الثقافة العلمية الحديثة .

كذلك ينبئنا الشيخ محمد عبده أنه عني ، أول الأمر ، بدعوة المصريين إلى معرفة حقوقهم على حكامهم ، وضرورة احتساب نفعهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه جهر بهذا القول ، والاستبداد في أشد عنفوانه ، قبيل الثورة العراقية وفي أثنائها . ثم يستمر فيقول إنه كان روح هذه الدعوة ، وإن لم يكن إمامها المتبع أو رئيسها المطاع . غير أنه يعترف ، في نهاية الأمر ، أنه عدل عن فكرة الإصلاح السياسي ؛ إذ لم يحن بعد وقتها في ظنه . وهنا يحيل الإمام مشكلة هذا الإصلاح على القضاء والقدر ، لأنه أيقن أن النهضة السياسية « ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال . فهذا الغراس هو الذي ينبغى أن يعنى به الآن . . . » فهو إذن من أنصار فكرة التدرج في الإصلاح ، وهي تلك الفكرة التي لم يكن ليرتضيها جمال الدين . وفي رأينا أن التلميذ كان أقل طموحا وأملا من أستاذه ، وأنه كان يرتضى بعض آرائه ، وبخاصة رأيه القائل بأن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأسلم من إصلاحهم عن طريق التقاليد الأعمى للحضارة الغربية .

ح - التدين والتعصب :

ظن بعض المصلحين ممن تسربلوا بسرايل الغرب ، وذهبوا في تقليد الأوروبيين مذاهب الخبط والخلط ، أن الإصلاح المرجو لا يتم عن طريق الدين ؛ بل أولى به أن يتحقق باطّراح التعصب الديني ، والاتجاه صراحة نحو الحضارة الغربية لاقتباسها بأكملها ، غير حافلين بالفروق العميقة التي توجد بين البيئة الإسلامية والبيئة الأوروبية ، ولا يميزين بين ما يصلح منها وما لا يصلح . ويصف الأفغانى هذه الفئة من دعاة الإصلاح بأنهم يتشدقون بأشياء لا يعلمون من حقيقتها شيئاً ، ولا يفرقون فيها بين الحق والباطل ، وهم أبواق تردد ما يزعمه الغرب من تعصب المسلمين . مع أن هؤلاء هم أقل الناس تعصباً لدينهم بحسب الحق والواقع ، ولا أدل على ذلك من تفرقتهم بين العقيدة والعمل ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بدينهم إيماناً تاماً لما كان هذا الإيمان مجرد صيغ تجرى على الألسنة أو عبارات تُقرأ فحسب ، في الوقت الذي نرى فيه تخاذلهم وشقاقهم .

ففكرة التعصب التي تنسب إلى المسلمين زعم يزعمه المستعمرون ، وبخاصة إذا حاول رعاياهم من المسلمين أن يجمعوا كلمتهم أو يؤلفوا جبهة منهم للمطالبة بالقوت الذي يدفع عنهم المجاعة؛ بينما ينعم الأجانب المستعمرون بكل خيرات بلادهم . ففي هذه الحالة يفتنّ المستعمرون في وصفهم بالتعصب وكراهيتهم للمستعمرين لأنهم على دين غير دينهم ؛ وذلك لكي يثيروا الرأى الأوروبي المسيحي ضد هؤلاء الذين يجرأون على المطالبة بحق الحياة لأنفسهم . ثم تُعلن التعبئة العامة ، وتجهز الجيوش وترسل لقتال هؤلاء المتمردين ، فتلقى القنابل على القرى الآمنة ، وتهدم الدور على أهلها ، وتسفك دماء

المئات بل الألوف من الثائرين ، وبعد ذلك يقال إنهم من المتعصبين الذين يضمرون الكراهية للأوروبيين وينكرون فضل هؤلاء عليهم : ألم يعمروا الأرض ، وينشئوا المدن ؟ ولكن لمن عمروا وبنوا : ألا أنفسهم أم للآخرين ؟ ويشور الرأى الأوروبي المسيحى حنقا على هؤلاء الذين يدفعهم تعصبهم إلى نكران الجميل وجحود أفضال الحضارة الأوروبية . أما إذا نجح الثائرون فى فرض ثورتهم فإننا لا نسمع حديثا عن تعصبهم ؛ بل يسارع أعداء الأمم إلى أساليبهم الأخرى للاحتفاظ ببقية من النفوذ فى ديار المسلمين .

من هذا يتبين لكل ذى فطنة أن أهل المسيحية أكثر تعصبا لبني ملتهم من المسلمين فيما بينهم . ومع ذلك فكثيرا ما ينخدع المسلمون لدعاية الغرب فيصدقون أن رابطة الدين بينهم منبع كل عناء ، وأنها حجاب كشف أوسد منبع بينهم وبين الفوز بتقدير أمم أوروبا ، وينسون أن التعاون الذى توجهه رابطة الدين فضيلة من الفضائل ؛ لأنه خير الوسائل لحفظ كيان أمة من الأمم ، وهو صفة موجودة فى كل شعب من الشعوب .

فليس التمسك برابطة الدين — أو التعصب لها أن شئت — أمرا مردولا فى ذاته ؛ وإنما يقبح إذا خرج عن حد النخوة والنجدة إلى محاولة إلحاق الضرر بأتباع الديانات الأخرى ، بل هو مشار الحية وهو الذى ينأى بأصحابه عن التسفل والخيانة وارتكاب الدنيا بما يعود على الأمة كلها بالضرر . أضف إلى ذلك أن تماسك الأمة واتجاهها نحو الفضيلة يكون بقدر تعاون أفرادها الذين تربطهم رابطة الدين ، وهى أقوى من رابطة الجنس . فإن هذا التعاون يزيد من قوة الأمة ، بحيث يصبح كل فرد من أفرادها بمنزلة العضو فى الجسد السليم الذى لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ،

ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود،^(١) فإذا انعدمت هذه الرابطة الدينية في أمة من الأمم كان ذلك دليلا على تحلل الروابط الاجتماعية فيها ، وعلى تفرق الكلمة وتعدد الأهواء والنزعات . وعندئذ يجد الأجنبي سبيلا إلى استعبادها ، ولاتتاح لها النجاة إلا إذا تجددت الروابط بينها مرة أخرى . وفي الحقيقة لنا أن نعجب لأهل أوروبا الذين لا تخلو كتاباتهم من الحديث عن الروح المسيحية والحضارة المسيحية ، ثم نراهم يضجرون أو يسخرون من هؤلاء الذين يتحدثون عن الروح أو الرابطة الإسلامية .

غير أن للتعصب حدودا ، وخيره ما كان وسطا بين الإفراط والتفريط . فالتآخي والتعاطف والتعاون على الخير بين أفراد ملة واحدة لا يمكن أن يوصف بأنه تعصب ؛ بل هو نوع من التعاون الاجتماعي الذي تقرره الأديان جميعها ، ويوجهه كل عقل سليم . ومن ثم فإننا لا نأخذ على المسيحيين تضامنهم على الخير ، ولا نفهم كيف يأخذون على المسلمين تضامنهم على الخلاص من سيطرتهم ؛ فإن ذلك التضامن من أسمى ضروب الخير .

ثم إن التعاون بين أبناء الملة الواحدة يحتمل النقص والزيادة . فإذا انمحت الأخوة ، وحل العداوة والشقاق محل المحبة والتضامن تسرب الوهن والضعف ؛ ولذا حق للأفغان أن يصف أهل التفريط في الرابطة الدينية بأنهم من الزنادقة الذين يزعمون أن التضامن بين أبناء كل دين يبتعد بهم عن طريق الحضارة ، ويحجبهم عن العلم والمعرفة ، ويحملهم على الجور والظلم تجاه من يخالفهم في دينهم . ويظن هؤلاء الزنادقة أن انحلال الرابطة الدينية هو الشرط الأساسي

(١) العروة الوثقى ص ٩٩

فى التقدّم ، ويزعمون أن الفوز معقود بتخليص العقول من العقائد والعودة إلى قانون الطبيعة . وإلى مثل هذا الرأى ذهب الملحّدون فى جميع الأمم فى العصرين القديم والحديث ، ولدى الإغريق والفرس والعرب ، فكان مذهبهم الإلحادى سلبيا فى القضاء على حضارات أممهم .^(١)

إن أهل أوروبا ينكرون على المسلمين اعتزازهم بدينهم ، ومحاولة نجدة إخوانهم ممن تتكل بهم دول الغرب . ومع ذلك فإن الأوروبيين يفعلون أكثر مما يفعل المسلمون . حقا إنهم يقولون إنهم يعتزون برابطة الجنس لا برابطة الدين . ولكن ذلك لا يغير حقائق الأشياء ؛ لأن رابطة الجنس عندهم رابطة دينية فى الوقت نفسه ما دامت أوروبا مسيحية بأسرها . وإذا تظاهر أهلها بكراهية الحديث عن رابطة الدين إذا كانت خاصة بالمسلمين أو بهم هم أنفسهم فإنهم لا يحدعون أحدا . هذا إلى أنهم ينظرون ، فى كثير من الأحيان ، إلى من لا يتبع دينهم المسيحى من أبناء قارتهم ، نظرتهم إلى من ليس من جنسهم ، مع أنه من الثابت تاريخيا أن معظم يهود أوروبا ينحدرون من نسل آرى لاسامى ؛ ذلك أن الدين اليهودى كان دينا تبشيريا فى عصوره الأولى ، وقد تسال إلى أوروبا وانتشر فى كثير من بقاعها حتى جاءت المسيحية فأوقفت زحفه .

ولا نريد أن نتطرق هنا إلى مناقشات تاريخية سبقنا إليها بعض الكتاب من المحققين^(٢) ، وإنما يكفيننا القول بأنهم إذا أصرّوا على التفرقة بين التعصب للجنس والتعصب للدين فإن رابطة الدين تشبه رابطة الجنس فى أنها من أجل

(١) انظر كتابنا عن جمال الدين الأفغانى من صفحة ١٢٩ — ١٧٤

(٢) كتب الدكتور عوض محمد عوض بحثا عن اليهودية

الفضائل وأكثرها نفعا إذا لم تتجاوز حد الاعتدال ، ولم تدفع أصحابها إلى ظلم الآخرين أو انتهاك حرمة المخالفين لهم في العقيدة . ومن قبل حكم المسلمون شعوبا مسيحية ولم نسمع من المسيحيين أنفسهم أن حكمهم المسلمين جاروا عليهم أو أكرهوهم على ما يخالف عقائدهم . لكننا نعلم من جانب آخر أن رابطة الجنس التي يعتز بها الأوروبيون ، والتي يحاولون إقناعنا أنها ليست من الرابطة الدينية في شيء كانت سبيلا إلى الجور ؛ بل ذريعة إلى إبادة أجناس بأسرها لكي تفسح المجال أمام الجنس الأبيض الذي اتفق أن كان يدين في الوقت نفسه بالمسيحية .

وليت المسلمين أشبهوا المسيحيين الذين يعيشون بينهم في ترابطهم وتعاونهم ! فإن هذا المسلك جدير بالإعجاب والمحاكاة ؛ بل إننا لنجد أن أهل الإسلام أولى بذلك لأن دينهم يدعوهم إلى محو الفروق بين الأجناس المختلفة في ألوانها ولغاتها وعاداتها ؛ بل أديانها أيضا . وهذه — فيما نعلم ويعلم الأوروبيون المسيحيون أيضا — إحدى فضائل الإسلام الذي لا يفرق أهله بين الناس تبعا لألوانهم ؛ وإنما يرونها جميعا إخوانا ، وهو الدين الذي وقف رسوله عند مرور جنازة يهودي فقيل له إنه يهودي ، فقال أليس نفسا ؟

و — التعصب في الإسلام والمسيحية :

ومهما يكن من شيء فإن الرابطة الدينية التي تجمع بين المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، والتي تختلف قوة وضعفا تبعا لاقترابهم أو ابتعادهم عن أصول دينهم ، هي تلك الرابطة التي يخشاها الأوروبيون ، ولا يدخرون ذخرا لتفكيك عراها وصرف المسلمين عنها . وهم سيعجزون عن تحطيمها مادام

المسلمون يسترشدون بقبس من دينهم الذى نادى بالإخاء والمساواة وحققهما بالفعل بين أتباعه على اختلاف أجناسهم وألوانهم . وهذه الرابطة الاجتماعية الإنسانية هى التى يطلق عليها الأوروبيون اسم التعصب الدينى لدى المسلمين ، ويخلطون بينها وبين ما شهده الغرب من حروب وصراع بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي منذ بدء حركة الإصلاح الدينى . فلما انتشرت مبادئ الماسيونية فى أوروبا فى القرون الأخيرة اكتسبت كلمة التعصب لديهم معنى جديداً ، وهو غلو رجال الكنيسة وأتباعهم ووقوفهم فى وجه كل إصلاح مدنى أو سياسى .

أما التعصب الدينى لدى المسلمين فله معنى آخر لا بأس من الإلحاح فى بيانها ؛ لأنه يعبر عن الأخوة الدينية التى تسوى بين الأصفر والأبيض والأحمر ؛ وهذه المساواة طبيعية بين أهل العقيدة الواحدة ، وهى كفيلة بتحقيق أسباب القوة لهم مما يرد عنهم طمع الأمم المخالفة لهم فى اعتقادهم . وقد أدت هذه الرابطة رسالتها ، فدفعت بأمة كانت من أعرق الأمم فى الجاهلية وغلظة الأكباد وموات الضمير ، فجعلتها من أرقى الأمم فى وقت قصير ، ونعنى بها تلك القبائل العربية التى خرجت من شبه جزيرتها القاحلة فعمرت شطرا كبيرا من المعمورة حتى وقتنا هذا . ومع ذلك ظلت أكثر الأمم تسامحا مع ذوى الديانات الأخرى ، فلم تخرج أحداً من دينه بالقوة أو العنف ؛ إذ كانت تعلم ، بلسان كتابها ، أنه لا أكرهه فى الدين وأنه لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

ويشهد التاريخ أن العرب لم يكرهوا أمة على ترك دينها ؛ بل أوصاهم الرسول خيرا بأهل الكتاب ، على الرغم من غدر اليهود وعدائهم لدعوة

الإسلام. وأكثر من ذلك رأينا كيف حمى العرب اليهود في بلاد الأندلس، وكيف عاش أصحاب الملل الثلاث عصوراً طويلة في الشرق والغرب في وفاق ووئام؛ إذ تركت لغير المسلمين حريتهم الدينية لقاء جزية رمزية هي الثمن البئس للدفاع عن أموالهم وأرواحهم وعقائدهم؛ بل قل إنها هي السبيل إلى مقاومة انتشار الدين الجديد لو شاؤوا مقاومته. وذلك شأن القوى الكريم الذي لا ينازل أحداً إلا إذا وضع في يده سلاحاً يدفع به عن نفسه.

حقاً إن بعض الولاة اضطهدوا أهل الكتاب، في فترات نادرة من التاريخ الإسلامي، ولكنهم كانوا ولاة من لا ثقة بعقائدهم أو دينهم كالحاكم بأمر الله الذي ادعى الألوهية، وكان يغضب على المسيحيين أو اليهود فينكل بهم، ويهدم معابدهم، ثم يرضى عنهم فيقربهم إليه حسبما كان يميله عليه مزاجه المضطرب. غير أننا لا نجد في تاريخ المسلمين ولاة يشبهون الحاكم بأمر الله. وليس هناك من يستطيع اتهام المسلمين بأنهم فككروا أو حاولوا التفكير في إبادة مخالفينهم في الدين ومحق وجودهم؛ في حين يشهد المسيحيون أنفسهم بأنهم تدفقوا على بلاد الشرق في القرون الوسطى لا للدعوة إلى دينهم بالحسنى، وإنما للفتك والإبادة. ذلك أن الحروب الصليبية التي اكتوى بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء كانت وليدة التعصب الديني، لكنه كان تعصباً دينياً من جانب واحد، أي أنه كان تعصباً دينياً مسيحياً. كذلك فتك الإسبانيون بمسلمي الأندلس. ولا ريب أننا لا نأخذ على الإسبانيين أنهم أرادوا استرداد حريتهم وبلادهم. غير أن هناك فارقاً كبيراً بين الجهاد من أجل الاستقلال السياسي، وبين التعصب الديني العنيف الذي تمثل في محاكم

التفتيش وفي إبادة المسلمين في جزيرة الأندلس أو في إكراههم على ترك دينهم إن أرادوا البقاء بها .

ويمكن الاستشهاد لتعصب المسيحيين بما وقع في العصور المسيحية الأولى عند ما حصلت الشوكة لأهل هذا الدين ؛ فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم . ومهما اشتط المسلمون في تعصبهم فإنه « لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفينهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة ، وهى في وهن الضعف . ، وعلى الرغم من الفتوح الإسلامية لم يخرج المسلمون عن المبادئ التى حددها لهم دينهم في معاملة المخالفين لهم في عقائدهم ، وكان شعارهم دائماً هو أنه من يرضى بحمايتهم فله ما لهم وعليه ما عليهم ؛ بل بلغ من تسامحهم أنهم أتاحوا لاتباع الديانات الأخرى أن يرتقوا إلى أسمى المراكز في بلادهم .

وهذا أمر لم تعرفه البلاد الغربية إلا في عصور متأخرة ، وفي بعض الدول دون بعض ، حيث نرى بين حين وحين أن يهودياً يرأس الوزارة . ومع ذلك فإن باب الاضطهاد الدينى لم يوصد بعد . وإن من يطالع على الآداب الأوروبية الشعبية وغير الشعبية ليرى كيف يحاول المسيحيون النيل من المسلمين ومن صاحب الرسالة بصفة خاصة . فهم يريدون تنشئة الأجيال على كراهية المسلمين والخط من دينهم .

وما يزيد في كراهية الأوروبيين وعدائهم للإسلام أنهم يعلمون أن هذا

الدين يقف حائلاً بينهم وبين السيطرة التامة على بلاد المسلمين . ذلك لأن الرابطة الدينية بين هؤلاء تعترض سبيلهم إلى تحقيق أطماعهم الاستعمارية التي لا تكاد تقف عند حد . ولو استطاعوا أن يتهجوا مع المسلمين ما نهجوه مع هنود أمريكا لما ترددوا لحظة واحدة . ألم يذهب أحدهم في أوائل القرن الحالى إلى حضن المسيحيين على نبش قبر الرسول وتخطيم الكعبة وإلى القضاء نهائياً على الأمة الإسلامية ؟ (١)

قد يقال إننا نفرط ، بدورنا ، بعض الإفراط فى تحليل عواطف الأوروبيين تجاه المسلمين ، وربما ظن بعض الناس أن التعصب المسيحى قد أفسح مكانه للتسامح والشفقة والإحسان . لكننا ندفع عن أنفسنا تهمة الغلو بما قرأناه أخيراً لكاتب فرنسى يأخذ على الأمريكيين أنهم يعطفون على أهل الجزائر ومراكش فى ثورتهم ضد الاستعمار الفرنسى ، ويذكّرهم بأنهم فعلوا أكثر مما يفعل الفرنسيون ؛ فإنهم أبادوا قبائل الهنود الحمر ، ولم يحتفظوا من هؤلاء الهنود إلا بعدد قليل كوسيلة للدعاية السياحية . فكأن هذا الكاتب يطلب إلى الأمريكيين أن يطلقوا أيدي المستعمرين فى رقاب ملايين المسلمين ، حتى لا تضيق أراضيهم بمئات الألوف من الأوروبيين الذين لا تتسع لهم بلادهم ! إذن لو استطاع أمثال هذا الكاتب أن يبيدوا المسلمين لفعّلوا . ولا يحول دونهم ودون ذلك سوى الرابطة الإسلامية فى مختلف أقطارهم .

لذلك نراهم لا يألون جهداً فى محاربة هذه الرابطة باسم التعصب الدينى حتى يتحلل المسلمون من روابطهم فيسهل القضاء عليهم فرادى . غير أنهم لم

ينجحوا إلا في تسخير نفر قليل من زعانف المسلمين لنشر آرائهم ، أى بمن فقدوا الاعتزاز بدينهم ، ولم يستعيصوا عنه بحبهم لوطنهم . « فثلثهم كمثل من يهدم بيته ، قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه ، فاضطر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته . » (١)

وهؤلاء هم من وصفهم جمال الدين وتلميذه في العروة الوثقى بأنهم الدهريون ممن يستترون باسم الإسلام ، وينشرون آراء الإلحاد باسم العلم الحديث . وقد عجب الأفغانى لأمر كثير من سدج المسلمين الذين يقعون في حبال الدعاية الاستعمارية مع محافظتهم على عقائدهم ، وتمسكهم بإيمانهم ؛ ومع ذلك فهم « يسفكون الكلام — كما يقول — في ذم التعصب ويهجرون في رمى المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بذلك يشقون عصاهم . . . ويخربون بيوتهم بأيديهم . . . » لقد نسى هؤلاء السدج أن الغربيين الذين ينشرون بينهم مثل هذه الآراء ويزعمون أنهم أعداء للتعصب هم أكثر الناس تعصبا في الحقيقة ، وأحرصهم على حماية الدعاة إلى دينهم والقائمين بنشره في البلاد الخاضعة لسلطانهم ؛ كما يتجلى ذلك التعصب في تضامن البلاد الأوروبية ، على اختلاف مذاهبها السياسية ، وفي تعاونها للقضاء على كل حركة استقلالية يقوم بها المسلمون في إحدى المستعمرات الأوروبية . وقد لمسنا عن قرب كيف شوهدت ثورة المغرب الأخيرة ، وصورت في مختلف الصحف الأوروبية بأنها وليدة التعصب الدينى ، مع أن قليلا من العقلاء والمنصفين من الأوروبيين يقرّون أنها وليدة البؤس والفقر ، إن لم تكن في رأيهم دليلا على رغبة الشعوب في تقرير مصيرها .

وإن ما نراه اليوم من اجتماع كلمة الأوروبيين على الطعن في كل نهضة إسلامية هو ما لحظه أصحاب العروة الوثقى منذ سبعين عاما في سياسة الدول المسيحية ؛ فإنك تراهم على اختلافهم في الأجناس وتحاقدهم وتناذبهم في السياسات وترقب كل دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين ، وإن كان في أقصى قاصية من الأرض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية . أما لوفاض طوفان الفتن ، وطم وجه الأرض ، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا ينتبه لهم إحساس ؛ بل يتغافلون عنه ، ويذرونه وما يحرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السامة والهمل الراحية ، وليسوا من نوع الإنسان الذي يزعم الأوروبيون أنهم حماة وأنصاره . وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم . وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . ، وقد رأيت أنت كيف تجاوزوه عندما بلغوا في تنسكيلهم بالمسلمين إلى أن تحالفوا مع من زعموا أنهم قتلوا المسيح ، ومهدوا لهم وساعدوهم لتشريد مئات الألوف من المسلمين الذين يظهرون لهم العطف باللسان ، ويضمرون لهم الفتك بالعمل الوئيد المستمر .

فليس للمسلمين أن يصدقوا إذن ما يقال عنهم من أنهم متعصبون وأنهم مفرطون في تعصبهم ؛ بل أولى بهم أن يعلموا أن تمسكهم بالدين واعتزازهم

بالرابطة الإسلامية هو السلاح الذى يملكونه فى وقتهم الحاضر ، فى انتظار أن يقذفوا بأعدائهم إلى البحر كما فعل أسلافهم من قبل ، ولكن دون أن يهبطوا إلى ما هبط إليه الأوروبيون من البطش والعدوان . لقد سبق أن طردهم صلاح الدين من الأراضى المقدسة ، ولسكننا لم نسمع منهم هم أنفسهم إلا أنه كان مثال الفروسية والسماحة الإسلاميتين . ذلك أن الدين الإسلامى لا يرضى إكراه الناس على مالا تطمئن إليه قلوبهم ، ولو كان الإسلام نفسه ؛ بل إنه يصارح المفرطين فى التعصب بأنهم ليسوا مسلمين . أفبعد ذلك يقولون إن المسلمين متعصبون وإنهم يهتدون أهل الديانات الأخرى ويقسمون على إبادةهم ؟ أليس الأجدر أن يعترف الغرب بما يعلنه المسلمون حق العلم من أن « الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد » (١)

لقد نظر المسيحيون إلى الإسلام دائماً نظرتهم إلى الخطر الأكبر الذى لا يفوقه خطر آخر ؛ بل قال بعضهم إن الإسلام كان طعنة خنجر وجهت إلى المسيحية ، وذلك فى الوقت الذى يبحث فيه الإسلام أتباعه على حسن معاملة أتباع المسيح بصفة خاصة ؛ ولا ندرى لماذا يصراهم الصليب على تعصبهم ؟ ألم يأمرهم المسيح بمحبة أعدائهم ؟ فلماذا لا يطبقون هذا المبدأ على المسلمين ، ولا سيما إذا كان هؤلاء لم يضمروا لهم حقداً حتى فى

(١) من كلام جمال الدين الأفغانى .

أيام قوتهم وسلطانهم؟ والحق أن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ليس أمراً مستحيلاً إذا طبق كل من الفريقين مبادئ دينه وتعاليمه .

لقد مضى الزمن الذي كان فيه أهل الشرق غفلاً يؤمنون بما يوحى إليهم به دعاة الغرب وزعانفه . فهم يعلمون حقاً أن الغرب لا يريد بهم خيراً ، وأنه لو استطاع أن يمحوهم محواً لفعل ، وأن ما يحفظ عليهم بقاءهم حتى الآن هو أن دول أوروبا عجزت عن القضاء على الرابطة الإسلامية التي يسمونها تعصبا وهي في الحق ليست تعصبا . ولو سلمنا جدلاً أنها كما يقولون ، لما كانت شيئاً ذا قيمة بجانب تعصب مسيحي أوروبا ؛ إذ « قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات . »

فإذا بقي بعد ذلك شيء من ريب في نفوس هؤلاء الذين يحلو لهم أن يخذعوا أنفسهم بأساليب الغرب ودعايته ، فليس لهم إلا أن يلقوا ببصرهم على ما يصطنعه الأوروبيون من وسائل الشدة والقهر في المستعمرات الإسلامية التي ما زالت في أيديهم ؛ وعلى التقدم الهائل الذي تخطوه البلاد التي نجحت في التحرر من سيطرة الغرب .

ولكننا نؤكد آخر الأمر أن التعصب الأعمى لن يفيد المسلمين ولا المسيحيين شيئاً ؛ إذ لا يورث هذا التعصب سوى الحقد والكراهية ، والشر لا ينتج إلا شر أمثله . إذن فالسبيل القويمة إلى النهضة الإسلامية هي أن ينقطع المسلمون عن المفاخرة بماض مجيد لم يكونوا أمناء عليه ، وأن يعلموا أن عصر المعجزات قد انقضى ، وأنهم لن يكونوا أهلاً للالتقاء إلى هؤلاء الذين يفخرون بهم إلا إذا لحقوا بهم عن طريق العلم والعمل والأخلاق والوقوف على سر تقدم الغرب وقوته ومحاولة الوصول إلى مرتبة في العلم والقوة .

فهرس

صفحة

٣ - ٤

المقدمة

الفصل الأول [من صفحة ٥ إلى صفحة ٧٩] تدهور المسلمين

١ - حالة المسلمين في العصر الأخير :

« أ »	الاستعمار والمسلمون	٥	١٠ -
« ب »	المسلمون بين عهدين	١٠	١٤ -
« ح »	الفقر	١٤	١٦ -
« د »	الجهل	١٧	٢٠ -

٢ - ابتعادهم عن الدين :

« أ »	الصراع السياسي والديني	٢٠	٢٣ -
« ب »	التفرقة بين العقيدة والعمل	٢٣	٢٦ -
« ح »	تصوف المتأخرين	٢٦	٢٩ -
« د »	مظاهر الشرك	٣٠	٣٢ -
« هـ »	الدفاع عن عقيدة التوحيد	٣٢	٣٦ -

٣ - يأس وجبن :

« أ »	يأس	٣٦	٤٣ -
« ب »	جبن وذل	٤٣	٥٠ -

٤ - ضعف الأخلاق وتمجيد الرذيلة :

« أ »	الخلاف والتقاطع بين المسلمين	٥٠	٥٤ -
« ب »	اختلال المعايير الأخلاقية	٥٤	٦١ -

٥ — هل الإسلام سبب في انحطاط المسلمين ؟ :

- « أ » الحركة العقلية في بدء الإسلام ٦١ — ٦٦
« ب » انتشار الإسلام على الرغم من تدهور المسلمين ٦٧ — ٧٠
« ح » الإسلام والنصرانية ٧٠ — ٧٧
« د » مسئولية المسلمين ٧٧ — ٧٩

الفصل الثاني [من صفحة ٨٠ إلى صفحة ١٥٧]

أسباب التدهور

١ — فساد الملوك واستبدادهم :

- « أ » تنافس طلاب الملك وترفعهم ٨٠ — ٨٥
« ب » جهل الملوك وغرورهم ٨٥ — ٨٩
« ح » خيانة الملوك ٨٩ — ٩٤
« د » أعوان المستبد ٩٤ — ٩٩

٢ — تحالف الملوك مع رجال الدين :

- « أ » اتحاد الهدف ٩٩ — ١٠٤
« ب » اتحاد الوسائل ١٠٤ — ١٠٦
« ح » نهاية التحالف ١٠٧ — ١١٢

٣ — مسئولية رجال الدين :

- « أ » جبناء أو مرءون ١١٢ — ١١٨
« ب » محاربة الإصلاح ١١٨ — ١٢٦
« ح » روح العداء للعلم ١٢٦ — ١٣٢
« د » يجهلون الدين أيضا ١٣٢ — ١٧٣
« هـ » ماذا جنى المسلمون منهم ؟ ١٣٧ — ١٣٧

الفصل الثالث [من صفحة ١٥٨ إلى صفحة ٢٢٤]

طرق الإصلاح

١ — نهضة الشرق :

- « أ » شدة القهر تؤدي إلى الانفجار ١٥٨ — ١٦٣
« ب » مجددون ورجعيون ١٦٣ — ١٦٩
« ح » الوحدة السياسية والدينية ١٦٩ — ١٧٤

٢ — طريق الثورات السياسية والاجتماعية :

- اتجاهات ثلاثة ١٧٤ — ١٧٧

٣ — الإصلاح السياسي :

- « أ » مثال من الغرب ١٧٧ — ١٧٩
« ب » ضرورة الثورة على الاستبداد ١٧٩ — ١٨٦

٤ — النهضة عن طريق العلم :

- « أ » العلم والدين ١٨٦ — ١٨٩
« ب » موقف المسلمين واليابانيين من العلم الأوروبي ١٨٩ — ١٩٢
« ح » الجمع بين التعليم النظري والعمل ١٩٢ — ١٩٨
« د » العلم وحده لا يكفي ١٩٨ — ٢٠٤

٥ — النهضة عن طريق الدين :

- « أ » الدين والوحدة الإسلامية ٢٠٤ — ٢٠٦
« ب » الدين والإصلاح ٢٠٦ — ٢١٠
« ح » التدين والتعصب ٢١١ — ٢١٥
« د » التعصب في الإسلام والمسيحية ٢١٥ — ٢٢٣
فهرس ٢٢٤ — ٢٢٦

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	٤	تلميته	تلمية	١١٦	٣	مع	مع أن
٢٧	١٣	ينسبونها	ينسبون	١٢٣	٧	القديم	بالقديم
٣٢	١٨	كانت	كادت	١٢٢	١	منه غلوا	غلوا
٣٤	١٩	ولأن	لأن	١٣٩	٢	إلى من	لمن
٥٢	٤	فيما	في	١٣١	٨	التعصب	التعصوف
٥٧	١٢	الضعف	الضغط	١٨١	٨	يحبوت	يحبون
٩٥	٨	منهم	منهم	١٩٦	١٥	سلك	مسلك
٩٨	٢٠	الثورة	الثروة				

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

أسماء الكتب التي ظهرت من هذه السلسلة :

- ١ — المنقذ من الضلال لمحجة الإسلام أنجز الى
(الطبعة الثانية : مريدة ومنتحة) مع مقدمة مستفيضة في منطق التصوف
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٢ — فلسفة ابن طفيل ، ورسائله « حى بن يقظان »
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٣ — الفيلسوف المفترى عليه « ابن رشد »
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٤ — التصوف عند ابن سينا
الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٥ — التفكير الفلسفى فى الإسلام
الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٦ — مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد
مع مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام
الأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٧ — جمال الدين الأفغانى « حياته وفلسفته »
الأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٨ — الإسلام بين أمسه وغده
الأستاذ الدكتور محمود قاسم